تُراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 286 أغسطس 2023

اللؤلؤ في الإمارات...
موروث واستدامة

ذكريات زمن البدايات.. مجلس المغفور له
الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
في مدينة العين

لؤلؤ أبوظبي «يحيي إرث الأجداد»

القيم الأخلاقية
في منهج السنع الإماراتي

المتنبِّي.. عِظامٌ في تابوت

رائد الفنون الرقمية جلال لقمان:
الحركة التشكيليّة الإماراتيّة
تعيش عصرها الذهبي

التراث والذاكرة المجتمعية

نادي تراث الإمارات يطلق النسخة الـ «31» من ملتقى السمالية الصيفي

اللؤلؤ في الإمارات... موروث واستدامة

«**اللؤلؤ**» كلمة لم تقتصر على دنيا الزينة والتنعم بل شاعت بمعانيها ومفرداتها المختلفة في أقوال العرب وفي عباراتهم وأمثالهم وفي ألقابهم وأسمائهم، وله قيمة ثقافية بمعطياته الكثيرة التي دخل في التراث الفصيح والشعبي معاً حيث تكوّنت لدى الناس مكونات ثقافية واسعة في موضوع اللؤلؤ وسائر متعلقاته، كأخبار الرحالات ورُكاب السفينة وأغانيهم وأهازيجهم. وانتثر اللؤلؤ في النصوص الأدبية من قديم حياة الشعر والنثر واتخذ مكانه متميزة في أشعار العرب، وكَرّمته اللغة العربية وفسحت له من الأسماء ما لم تفسح لكثير من الجواهر، واجتمع لدى بعض الباحثين العديد من المصادر والمراجع والمعاجم التي توثق لهذا الإرث الأصيل.

ومثلت كلمة «اللؤلؤ» لمجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة عصر رفاهية وعماد حياة ومستقبل وتاريخ مثير بجمال وظلم وخطر، ولذلك تسعى دولة الإمارات اليوم جاهدة من أجل استدامة واستعادة هذا الموروث الحضاري العتيق ولتعيد بريق الطراز الرفيع الذي كان عليه بَحارتُنا من خلال تخصيص متاحف لكل ما يتعلق باللؤلؤ وصناعته، كمجموعات لأدوات الغوص والمعدات والخرائط وأدوات الموسيقى التي كانت تصاحب الغواصين، مروراً بالميزان المصنوع من الحجر، وهي آلة لمعرفة المقدار من الثقل كان يستخدمها تُجّار اللؤلؤ. وتكشف إحدى هذه المتاحف عن قطعة ثرية وفريدة وبوزن لؤلؤة تعد من أكبر المجموعات اللؤلؤية على كوكب الأرض. كما تولي دولة الإمارات العربية المتحدة اهتماماً كبيراً بعملية استزراع اللؤلؤ وإنتاجه؛ لأن البيئة الطبيعية في هذه المنطقة تعد من أكثر البيئات ملاءمة لإنتاج اللؤلؤ واستزراعه، وقد حققت من هذه العملية نتائج مذهلة بإنتاج أجود أنواع اللؤلؤ في العالم، كما أن الدولة ترعى جمعيات الغوص، وتوفر بطولات ورياضات بحرية مخصصة للهواة وللراغبين في الغوص بحثاً عن اللؤلؤ في أماكن وجوده في مياه الإمارات. وأسست الدولة الأندية التراثية التي تدعم هذا الموروث وتنقله للأجيال، كنادي تراث الإمارات الذي يقدم دورات تدريبية شفهية وميدانية لمنتسبيه ويُعلّمهم أبجدية فلق المحار وفرز اللؤلؤ إلى أحجامه المتباينة، بحيث ينصرف المتدربون إلى الغواص - المدرب - الذي يجهز لهم كيساً كبيراً مملوءاً بالمحار كان قد قام بالغوص بنفسه لإحضاره لهم أمام مرآهم، فيشعرون كما لو أنهم أمام صندوق مغلق لا يعلمون ما هو حظهم، هل ستكون ثمة لؤلؤة بداخل المحارة أم لا.

ولأن «اللؤلؤ» جزء أصيل من قصة تاريخ وتراث دولة الإمارات في مراحله المختلفة، جاء اختيارنا له ليكون ملف العدد لهذا الشهر وكلنا أمل بأن تستمتعوا بمواد العدد المنوعة.

شمسة الظاهري
رئيسة التحرير

نادي تراث الإمارات
السلسلة التراثية الثقافية
مركز زايد للدراسات والبحوث

torathehc www.torath.ae

77

ارتياد الآفاق

رحلة شاعر «الغسقية» والغروبية..

الإيطالي «غويدو غوتسانو»

في مدينة تورينو الإيطاليَّة وُلِدَ غويدو غوتْسانو، في 19 ديسمبر 1883م وتوفِّي فيها وله من العمر 32 عاماً متأثراً بإصابته بالسل. ارتبط اسمُه بالغُروبيَّة أو الغسقيَّة، والذي شاع كمذهب في الشِّعر الإيطالي أوائل القرن العشرين يخلط بين السُّخرية والكآبة. قام برحلةٍ استشفائية إلى الهند في عام 1912م، ما بين شهري فبراير وإبريل، كان من المقرر أن يقوم خلالها بزيارة مدينة بومباي وجزيرة سيلان، وكتب كتابه «رسائل من الهند» الذي نُشِر بعد سنةٍ من موته» .... محمد عبد العزيز السقا

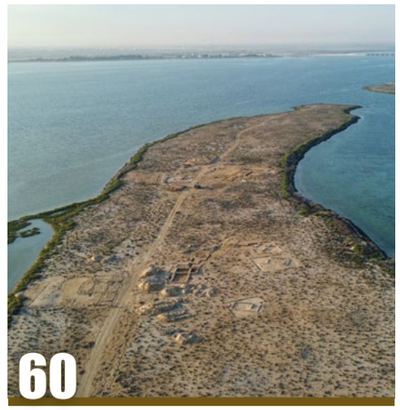

60

72

92

سرد الذاكرة

مجلس المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

في مدينة العين

«في مجلس زايد، رأيتُ لأول مرة كيف يلتحم القائد بشعبه، وكيف تزول الأسوار والحواجز، وكيف يشعر المواطن بالندية، وأن صوته مسموع ورأيه مهم. «هلله بالخير يا زايد..»، كان هذا أول ما سمعته من مواطن جاء من «ليوا» للسلام على سموه. «هلله بالخير، اقرب يا سفيان»... فوجئت أن سموه يعرف الجميع بأسمائهم. لا أستطيع إنكار الدهشة التي شعرت بها وأنا أصغي إلى مواطن عادي ينادي الشيخ زايد باسمه، ولا الانبهار الذي أصابني وأنا أسمع رد المرحوم عليه. تكرر المشهد مع مواطنين آخرين لتحفر صورة لم تتغير حتى اليوم».... خليل عيلبوني

86

96

تراث السيرة

المتنبِّي.. عظامٌ في تابوت

كان مصرع المتنبي وهو في طريق عودته إلى موطنه الكوفة، قريباً من مكان يسمّى دير العاقول، على يد قاطع طريق يدعى فاتك الأسدي وهو خال ضبّة بن محمد الأسدي. وتتقاطع الروايات أن المعركة جاءت ثأراً من قصيدة نسبت إلى أبي الطيّب وادّعى خصومه أنه نظمها في هجاء ضبّة، وظلّ الشاعر ينكر نسبتها إليه كلّما سئل عن ذلك، لكن الباحث المدقق لا يملك الوصول إلى يقين قاطع في الأمر، وإن كان رَكّب الشاعر مثقلاً بكنوز تغري أكبر عصابات السلب وقطاع الطرق في ذلك الزمان .... محمد أحمد السويدي

92

106

112

102

أدب ونقد

نقض السرديات الكبرى جمالياً في «كيميا» لوليد علاء الدين

رواية «كيميا» تؤسس لنقض السردية الكبرى: «مولانا جلال الدين الرومي»، في مقابل الاهتمام بـ«وضع وحقوق المرأة متمثلةً في كيميا»، وعلى أساس هذه الحالة المسكونة بعدم الوقوع تحت أسر المقدس الماضوي، ونبش ما فيه من جراح، دون الخشية مما قد تسفر عنه، انطلق الكاتب في روايته مستحضراً عدته من التقنيات الروائية، ليحول رؤيته الفلسفية للوقائع التاريخية، إلى نوعٍ من المغامرة القرائية، التي يبحر فيها القارئ عبر ثنايا الفضاء النصي المقدم في هذه الرواية ....حمزة قناوي

تراث الشهر

8 نادي تراث الإمارات يطلق النسخة الـ«31» من ملتقى السمالية الصيفي

70 شريعة الباب - عبد الفتاح صبري
72 هنا القاهرة - ضياء الدين الحفناوي
76 تغاريد الحمايم - إعداد: نايلة الأحبابي
82 الحَداثةُ الشعريةُ بينَ الرفضِ والقَبول - عبد الرّزاق الدّرباس
85 بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح
(التّطوّر الدّلالي للألفاظ في اللّهجة الإماراتيّة) - محمد فاتح زغل
86 القيم الأخلاقية في منهج السنع الإماراتي - الأمير كمال فرج
101 الحياة على الشفاه - قاسم خلف الرويس
106 فنون «الرقص» العلاجية - نورة صابر المزروعي
112 قراءة في كتاب «مشهد العلاف»
«روسينانت.. الحب السَّامِي».. طرح جديد للحوار بين حضارتيْن - خالد عمر بن ققه
116 التراث والذاكرة المجتمعية - شريف مصطفى محمد
118 البروفيسور داود ماهر محمد الشمري
يفكك ألغاز مناهج البحث العلمي في التراث الثقافي غير المادي - هشام أزكيض
121 رباعيات في ذكر الله - شعر: د. شهاب غانم
122 أود أن أعود إلى الأوهام - وليد علاء الدين
124 الشاعر حمد بن سهل الكتبي - مريم النقبي
130 حي بنتي من لفت - فاطمة حمد المزروعي

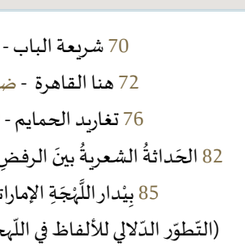

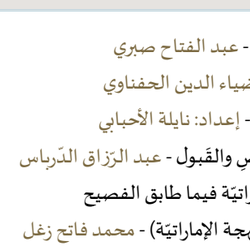

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأمريكية وكندا 5 دولارات.

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو نادي تراث الإمارات

109
سينما

«احتقار».. بين أوديسيوس فرنسي وبوسيدون أمريكي

بدأ جودار فيلمه بلعبته المفضلة في كسر الإيهام وتذكيرنا أننا نشاهد فيلماً، مستعرضاً بصوته أسماء المشاركين في صناعته، بينما نرى المصور يتابع بكاميرته الممثلة جورجيا مول . المترجمة في الفيلم . وهي تقرأ نصاً، يقتربان معاً حتى تملأ الكاميرا الكادر وتتحول لتواجهنا، لقد صرنا جزءاً من اللعبة، فإذا كنت ستصنع فيلماً عن السينما لابد من وجود جمهور... فيبي صبري

126
حوار خاص

جلال لقمان:
الحركة التشكيليّة الإماراتيّة تعيش عصرها الذهبي

تتخطى أعمال جلال الفنية الحدود من ناحيتي المعنى والشكل، حيث يدمج فيها البرامج الحاسوبية مع المعدن والخشب، وغيرها من المواد الشائعة في الفنون، ليُبدع تحفاً فنية تتجاوز في أبعادها حدود الإطار وتأسر المشاهد. نجح لقمان الحاصل على درجة الماجستير في الصناعات الثقافية والإبداعية، بتعزيز مساهمته في المشهد الثقافي الإماراتي، إذ لم يكتفِ بإنتاج الأعمال الفنية فحسب، بل تعدى ذلك ليقدم المشورة في تنمية مواهب الفنانين الإماراتيين الآخرين، من خلال إطلاق مبادرات تروّج للفنون في الدولة .... الفاضل أبو عاقلة

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:
مركز زايد للدراسات والبحوث - نادي تراث الإمارات، أبوظبي

نادي تراث الإمارات

رئيس التحرير
شمسة حمد العبد الظاهري

الإشراف العام
فاطمة مسعود المنصوري
موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ
غادة حجاج

سكرتير إداري وشؤون الكتّاب
سهى فرج خير
torath@ehcl.ae

التصوير:
- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:
الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي
هاتف: 024456456 - 024092336

نادي تراث الإمارات

يطلق النسخة الـ «31» من ملتقى السمالية الصيفي

قسم الإعلام

نظم نادي تراث الإمارات النسخة الحادية والثلاثين من ملتقى السمالية الصيفي، في الفترة ما بين 3 إلى 28 يوليو الماضي في جزيرة السمالية والمراكز الشبابية والنسائية التابعة للنادي بمشاركة الطلاب المنتسبين إلى النادي وإشراف مدربين تراثيين متخصصين، حيث شهد الأسبوع الأول انطلاق عمليات تسجيل الطلاب والطالبات في جميع المراكز النسائية والشبابية التابعة للنادي.

وشمل الملتقى أنشطة تراثية وثقافية وترفيهية ورياضية وتعليمية، قدّمها المدربون التراثيون التابعون للنادي من خلال برنامج متكامل تم تصميمه من أجل استفادة الطلاب من أوقات فراغهم في اكتساب المعرفة بتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم.

وضمت برامج الملتقى الموجهة للبنات والبنين عدداً واسعاً من الفعاليات، في مقدمتها ورش الواجهة البحرية التي تعرّف المشاركون من خلالها إلى التراث البحري الغني للدولة، وجولات السفينة التراثية حول الجزيرة للتعرف إلى المحيط البيئي لها، وأنشطة الهجن، والفروسية، والصقارة، التي جاءت بمنزلة بوابة يطل من خلالها الطلاب على الماضي، ليعرفوا كيف كانت حياة الآباء والأجداد، إضافة إلى الألعاب الشعبية، والسباحة، وزيارة ممشى القرم البيئي في الجزيرة، الذي يبلغ طوله نحو 900 متر، للتعرف عن قرب إلى بيئة أشجار القرم، والحرف التراثية النسائية كالتلي والسدو والخوص، والغزل، والخياطة، والأكلات الشعبية، بالإضافة إلى ورشة إعداد القهوة العربية وأنشطة الرسم والتلوين. كما جاء الاهتمام بالسنع ضمن نشاط الملتقى تحقيقاً لرسالة النادي في استدامة التراث بالحفاظ على القيم والعادات والتقاليد الإماراتية الأصيلة حية ومتداولة بين الأجيال. وشهدت فعاليات الملتقى العديد من الأنشطة التراثية والتعليمية، فقد استقبلت جزيرة السمالية طلبة المراكز الشبابية التابعة للنادي في أبوظبي والسمحة والوثبة، حيث قاموا بجولة في السفينة التراثية تعرفوا فيها على الجزيرة كمحمية طبيعية، ومارسوا ركوب الخيل والإبل، وتلقوا الورش البحرية التي أقيمت في الصالة الرياضية وتعرفوا من خلالها على تراث الغوص والصيد والبحر والبحارة. كما زار الطلاب القرية التراثية في أبوظبي، حيث تعرفوا على هذا الصرح التراثي المميز، بإشراف المدربين التراثيين الذين قدموا للطلاب ورشاً تراثية متنوعة.

واستقبل قصر الموبجعي في مدينة العين، طلبة مركز العين الشبابي في زيارة تعرفوا من خلالها على صفحات من تاريخ الإمارات ومعالمها التراثية. كما زاروا حديقة آثار الهيلي التي تُعَدُّ معلماً تاريخياً يضم التجمعات السكانية والمدافن والقلاع والبنية التحتية الزراعية القديمة، واطّلعوا على تاريخها الذي يعود إلى العصرين البرونزي والحديدي. واختتموا زياراتهم الخارجية بمشتل براري الكويتيات في مدينة العين، حيث تعرفوا على أنواع النباتات المختلفة التي يضمها المشتل، وتعلموا كيفية الاهتمام بها. من جهته نظّم مركز سويحان الشبابي للطلبة المشاركين في الملتقى ورشة تراثية عن شداد المطية، وأنواعه واستخداماته، كما أقيم داخل المركز عدد من النشاطات الترفيهية.

وفي المراكز النسائية التابعة لنادي تراث الإمارات، زارت طالبات مركزي أبوظبي والسمحة جزيرة السمالية، حيث قمن بجولة في السفينة التراثية تعرفن من خلالها على الجزيرة كمحمية طبيعية. وفي الصالة الرياضية أقيمت ورش عدة للحرف التراثية، منها: المغزل، والتلي، والسدو، والخوص، والأكلات الشعبية، والحناء والأعشاب، والألعاب الشعبية، والرسم والتلوين، وحضرت الطالبات ورشةً خاصةً عن البحر والبحارة وتعرفن على المسميات التراثية لأدوات الصيد والغوص.

فيما قدّم مركز العين النسائي في مقره باقة منوعة من الورش

التراثية والتعليمية والترفيهية، مثل التلي، والتلوين، وعمل البرقع، والأساور المزينة بالليرات، والألعاب الشعبية، وورشة حول تحضير القهوة العربية وطريقة تقديمها للضيوف، وتعرفت الطالبات على المعرض التراثي المقام داخل المركز أيضاً، وأقيمت ورشة خاصة عن السنع الإماراتية. وقدم مركز سويحان النسائي للطالبات المشاركات بالملتقى وِرَشاً للحرف اليدوية، مثل: التلي، والخوص، والألعاب، وورشة الطين، وتعرفت الطالبات على المعرض التراثي أيضاً، وقمن برحلة إلى مركز فنون القطارة في مدينة العين. ونظم مركز أبوظبي النسائي عدداً من الحرف التراثية والأنشطة المنوعة داخل المركز للطالبات المشاركات بالملتقى، كالتلي، والسدو، وصناعة الأساور، والألعاب الشعبية، والمراوح الهوائية من الأوراق، والرسم التراثي على الزجاج، وصناعة ميداليات من الخرز، والحروف بالورق على طريقة الموزاييك، وقراءة القصص، بالإضافة إلى النادي الاجتماعي، وقراءة القرآن الكريم.

فيما نظم مركز السمحة النسائي في مقره ورشَ الحرف اليدوية كالتلي، والغزل، والخياطة، والحناء، والرسم والتلوين، والألعاب الشعبية، والأكلات الشعبية، وقرص البراقع، بالإضافة إلى تعريف الطالبات بالمعرض التراثي.

وجاء ملتقى السمالية الصيفي لعام 2023 في إطار جهود نادي تراث الإمارات في نشر الموروث الشعبي وتعريف الأبناء بتراث الآباء والأجداد، وكيفية المحافظة على الهوية الوطنية.

نشاط تراثي وثقافي في «ليوا للرطب»

شارك نادي تراث الإمارات في فعاليات النسخة التاسعة عشرة

من «مهرجان ليوا للرطب» الذي أقيم تحت رعاية سمو الشيخ منصور بن زايد آل نهيان، نائب رئيس الدولة، نائب رئيس مجلس، وزير ديوان الرئاسة، في الفترة ما بين «17 - 30 يوليو 2023»، بتنظيم لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية في أبوظبي ونادي تراث الإمارات. وجاءت مشاركة النادي في المهرجان في إطار دعمه للفعاليات التي تسهم في نشر التراث الإماراتي والتعريف به، حيث حرص من خلال جناحه على إبراز العمق الحضاري للفنون اليدوية التقليدية المستمدة من البيئة المحلية، لاسيما الحرف التي تتخذ من النخلة مصدراً للمواد الخام مثل حرفة الخوص التي تمثل إحدى العلامات الدالّة على إبداع المرأة الإماراتية ومهارتها، وأهمية إسهامها في اقتصاد الأسرة، وكانت منتجاتها جزءاً من تفاصيل الحياة اليومية للإماراتيين. كما ضم الجناح معرضاً لإصدارات النادي بالتركيز على ما يختص بالنخيل والتمر مثل «أطلس أصناف نخيل التمر في دولة الإمارات»، و«نخيل التمر كعلم وثقافة وتراث».

وضمن البرنامج المصاحب لمشاركته في المهرجان نظم النادي يوم الـ 23 من يوليو أمسية شعرية استضاف فيها الشاعر صالح بن عزيز المنصوري، بمشاركة الشاعر محمد بن يعروف المنصوري، وألقى الشاعران في الأمسية عدداً من القصائد الوطنية.

كما نظم النادي محاضرة يوم الـ 22 من يوليو بعنوان «النخيل في الإمارات بين التراث والمعاصرة» تحدث فيها المهندس عماد سعد، المسؤول الإعلامي بجائزة خليفة الدولية لنخيل التمر والابتكار الزراعي، ومحمد عتيق المحيربي، الباحث في التراث الشعبي الإماراتي، وأدارها الإعلامي مسلم العامري.

وأشاد المتحدثان في المحاضرة بمهرجان ليوا للرطب وأدواره المهمة في تطوير قطاع النخيل في انعكاس للاهتمام الرسمي من

الدولة بهذا القطاع، كما تحدّثا عن بدايات المهرجان ومسيرة تطوره والقيمة الاقتصادية للنخيل وأبعاده التنموية ومكانته في الأمن الغذائي فضلاً عن ارتباط النخلة بالهوية والتراث في الإمارات.

ندوة عن تاريخ النفط في الدولة

نظم نادي تراث الإمارات ندوة افتراضية يوم الـ 6 من يوليو بمناسبة ذكرى تصدير أول شحنة نفط من أبوظبي في الرابع من يوليو عام 1962 عبر جزيرة داس إلى الأسواق العالمية. وجاءت الندوة بعنوان «قصة تاريخ النفط في الإمارات.. قراءة في التحولات التاريخية والتنموية»، وشارك فيها كل من سعادة طيبة الهاشمي، الرئيس التنفيذي لـ «أدنوك» البحرية، ومايكل كوينتن مورتن، الباحث والمؤرخ، وأدارها الدكتور حمدان راشد الدرعي.

وقالت طيبة الهاشمي: إن شركة «أدنوك» حرصت طوال الـ 60 عاماً على ترجمة رؤية الوالد المؤسس المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان «رحمه الله»، من خلال تسخير موارد الدولة من الطاقة لخدمة الوطن، بالتركيز على

ضرورة الموازنة بين التطور الاقتصادي والمسؤوليات البيئية، لذلك عملت «أدنوك» خلال هذه السنوات على تسخير موارد الطاقة بطريقة مسؤولة وآمنة، واليوم تفخر بأن لديها سجلاً حافلاً بالإنجازات في هذا المجال. ونوّهت إلى أهمية دور قطاع الطاقة الذي يُعد محورياً في بناء مستقبل مستدام، مشددة على أن «أدنوك» ملتزمة بتنفيذ مسؤولياتها تجاه أجيال المستقبل مهتدية بتوجيهات القيادة، إذ خصصت ما يقارب من 15 مليار دولار من أجل تعزيز الاستثمار في الحلول منخفضة الكربون والطاقات الجديدة بحلول عام 2023. وأوضحت أن «أدنوك» تفخر بإرثها العريق وبدورها الرائد وإسهاماتها المحورية في مسيرة ازدهار دولة الإمارات العربية المتحدة وتنميتها، مضيفة أن هذا يمثل إرثاً حافلاً بالإنجازات، ودافعاً لتحقيق المزيد من النجاحات في المستقبل. وتناولت الهاشمي جانب تمكين المرأة الإماراتية، مؤكدة أنها ظلت في قلب استراتيجية «أدنوك 2030»، مضيفة: «نفخر اليوم بأن لدينا أكثر من 850 مهندسة إماراتية في جميع مواقعنا أثبتن جدارتهن الحقيقية والتزامهن الثابت، لاسيما أثناء جائحة كورونا، وهذا العدد سيشهد زيادة».

من جهته قدم كوينتن مورتن سرداً تاريخياً لأهم المحطات في تاريخ النفط البحري في أبوظبي فيما بين الأعوام من 1927 حتى 1980، حيث عرض مجموعة من الصور التي توثق لهذه الفترة، ومنها الصور التي أرّخَت لوصول أول البعثات الاستكشافية إلى أبوظبي عام 1927، وصور للشيخ شخبوط، ووفد أبوظبي في باريس إبان جلسة التحكيم على امتياز التربة تحت المياه في عام 1951، وصور لعدد من سفن المسح الجيولوجي في مياه الخليج في خمسينيات القرن الماضي. كما عرض مورتن عدداً من الخرائط التي تبيّن مناطق الاستكشاف وقدّم معلومات جغرافية وطبيعية عنها، إلى جانب صور لأولى منصات استخراج النفط في الحقول

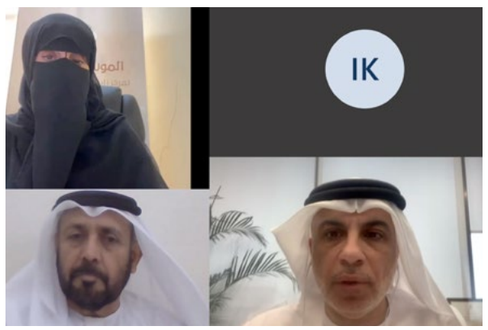

البحرية، وتوثيق للجهد الذي بذله العمال تحت الماء لإنشاء البنية التحتية للنفط. من جانبه أشار نادي تراث الإمارات إلى أن الندوة جاءت تحقيقاً لأهدافه في حفظ تاريخ الدولة ودراسته ونشره، وهي أهداف منبثقة من استراتيجية الدولة في الحفاظ على المكتسبات التاريخية التي تشكل رصيداً حضارياً مهماً يسهم في الحفاظ على الثوابت والأسس التي قامت عليها دولة الإمارات العربية المتحدة.

محاضرة عن السنع

نظم نادي تراث الإمارات في الـ 20 من يوليو محاضرة افتراضية ضمن برنامج سلسلة «قراءة في إصدارات إماراتية»، قدمها الدكتور سالم زايد الطنيجي، الباحث في التراث الشعبي الإماراتي، الذي تناول فيها كتابه «السنع والسمت والذرابة في دولة الإمارات العربية المتحدة» الصادر في عام 2018، تزامناً مع قرار وزارة التربية والتعليم بإطلاق «مبادرة السنع» ضمن المنهج الدراسي، التي تهدف إلى تعزيز القيم المجتمعية والسلوكية لدى الأجيال.

وتحدّث الطنيجي عن معنى أصل كلمة السنع في اللغة العربية، حيث تعني «طال وارتفع»، وأوضح أن من معانيها الأخلاق والمبادئ أيضاً، والاحترام، والجمال، واحترام الواجب، والكرم.

ونوّه المتحدث إلى أهمية العادات والتقاليد في الهوية الوطنية، لما تقدمه للناس من طباع وأخلاق، وأشار إلى أن لكل دولة عادات في المجالس، والأكل، والشرب، والمناسبات، وأن الكثير من المجتمعات تركز على عاداتها وتحافظ عليها وتنقلها من جيل إلى آخر. وتناول الطنيجي سنع الزيارات وأدب المجالس في الثقافة الإماراتية، حيث ترتبط هذه العادات بالعلاقات العائلية والزيارات الاجتماعية إلى الأصدقاء والجيران، كما تحدّث عن سنع صب القهوة وطريقة تقديمها، وتُعَدُّ من أهم التقاليد لدى

البدو، حيث توجد قواعد وشروط يجب اتباعها في كيفية إعداد القهوة، وطريقة تقديمها، مشيراً إلى أنهم كانوا يعتمدون في صب القهوة على الأولاد الذين يلتزمون بما يقوله الكبار، حيث كان الرجال يأخذون أولادهم معهم إلى المجلس ليتعلموا السنع. كما عرج المتحدث إلى السنع في الشعر، موضحاً أن هناك العديد من الأشعار التي تتحدث عن السنع وتصوره في الكثير من القصائد.

وأشاد الطنيجي بحرص دولة الإمارات العربية المتحدة على المحافظة على السنع من خلال تضمينها في المناهج الدراسية، والاهتمام بالبرامج المتخصصة بالسنع التي تبث عبر التلفاز، والفعاليات والأنشطة التي تقوم بها العديد من الدوائر والمؤسسات.

جاءت المحاضرة ضمن أهداف نادي تراث الإمارات الرامية إلى تعزيز التراث في نفوس الأجيال من خلال الفعاليات والأنشطة والإصدارات والبرامج مثل برنامج «قراءة في إصدارات إماراتية» الذي أطلقه «مركز زايد للدراسات والبحوث» منذ عامين بهدف تسليط الضوء على الإصدارات الإماراتية من أجل تعزيز الحراك الثقافي والتراثي وتفعيله في الدولة.

نتائج متميزة في دوري أبوظبي للسباحة

حقق فريق السباحة في نادي تراث الإمارات نتائج متقدمة في الجولة الثانية من دوري أبوظبي «سويم فور لايف» الذي نظمه نادي أبوظبي للرياضات المائية بالشراكة مع مجلس أبوظبي الرياضي واتحاد الإمارات للسباحة يوم 3 يوليو في مسبح مدينة محمد بن زايد في أبوظبي. ففي الفترة الصباحية للبطولة أحرز السبّاح أحمد محمد المرزوقي الميدالية الذهبية في سباق 100 متر حرة لمرحلة العمومي، والميدالية الفضية لسباق 100 متر فراشة لمرحلة العمومي. فيما حقق السبّاح إبراهيم عبد العزيز الصباغ فضية سباق 50 متراً صدر لمرحلة العمومي.

وفي سباق 200 متر فردي متنوع لمرحلة العمومي حصد السبّاح أحمد محمد المرزوقي الميدالية الذهبية، فيما نال السبّاح حمدان أحمد آل علي الميدالية البرونزية في السباق نفسه. وحصد فريق النادي المكوّن من السبّاحين أحمد محمد المرزوقي، وإبراهيم عبد العزيز الصباغ، وحمدان أحمد آل علي، ومحمد سليمان الحمادي، الميدالية الفضية في سباق 200 متر تتابع متنوع لمرحلة العمومي. وفي الفترة المسائية من البطولة نال السبّاح أحمد محمد المرزوقي الميدالية الذهبية في سباق 200 متر حرة لمرحلة العمومي، فيما ذهبت الميدالية الفضية إلى السبّاح محمد سليمان الحمادي. وفي سباق الـ 100 متر فردي متنوع لمرحلة العمومي، نال الميدالية الذهبية السبّاح أحمد محمد المرزوقي، فيما نال الميدالية البرونزية السبّاح محمد سليمان الحمادي. كما نال فريق النادي المكوّن من السبّاحين أحمد محمد المرزوقي، وإبراهيم عبد العزيز الصباغ، وزايد عبد الله الشوق، ومحمد سليمان الحمادي، الميدالية الذهبية في سباق 200 متر تتابع حرة لمرحلة العمومي.

«قافلة بني ياس المجتمعية»

شارك نادي تراث الإمارات في «قافلة بني ياس المجتمعية» التي نظمتها دائرة البلديات والنقل - بلدية مدينة أبوظبي بمركز التواجد البلدي - بني ياس. وشملت مشاركة النادي في القافلة تنظيم ورش في السنع الإماراتي «منهج الحياة المستدامة» تشمل آداب الحديث، وآداب المجالس، وآداب الزيارة. حيث تعرّف الأطفال المشاركون في الورش على سنع المجالس وقواعد الوجود وسلوكياته في المجالس، إضافة إلى آداب الحديث التي تعرف بـ «الذرابة في الرمسة» وغيرها من التقاليد التي تهدف إلى الحث على صلة الرحم وترابط المجتمع والتواصل بين الأجيال.

فعاليات ترويجية للصيد والفروسية

شارك نادي تراث الإمارات في الفعاليات الترويجية التي نظمها نادي صقّاري الإمارات في عدد من مراكز التسوق في إمارة أبوظبي التي شملت مول «بوابة الشرق» في أبوظبي أيام الجمعة والسبت والأحد «14 - 16 يوليو»، وفي «الخالدية مول» في أبوظبي ما بين الأيام «21 - 23 يوليو»، بغرض الترويج لمعرض أبوظبي الدولي للصيد والفروسية الذي سيقام ما بين الأيام «2 - 8 سبتمبر

2023»، وتمثلت مشاركة النادي في تنظيم ورش حية للحرف اليدوية شملت: التلي، والسدو، والغزل والخياطة، التي حظيت بمتابعة رواد المراكز التجارية، إضافة إلى ركن للتلوين والرسم تعرّف من خلاله الأطفال على عناصر التراث الإماراتي عبر كتيبات «لون تراثك» التي يصدرها النادي، كما اجتذبت منصة إصدارات النادي في التراث والثقافة محبي المعرفة من مختلف الأعمار.

حضور في موسم «طانطان»

شارك نادي تراث الإمارات ضمن جناح دولة الإمارات العربية المتحدة الذي تشرف عليه لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية في أبوظبي، في فعاليات الدورة السادسة عشرة من موسم «طانطان» الثقافي في المغرب، في الفترة ما بين الأيام من 7 حتى 12 يوليو. وشملت مشاركة النادي ورشاً للحرف التراثية، مثل: الفخار، وصناعة دلال القهوة العربية، وورشة بحرية عن الغوص وتجارة اللؤلؤ، إضافة إلى ركن لإصدارات النادي في التراث، والتاريخ، والشعر النبطي، والكتب المحققة، والدراسات والبحوث. وجاءت مشاركة النادي في موسم «طانطان» في إطار حرص نادي تراث الإمارات على تعزيز حضور التراث الإماراتي في مختلف المحافل والمناسبات الدولية ■

الشعر

قصيدة للشاعر علي بن رحمة بن سالم الشامسي

لـــولا الثقافـــة والشعـــر والقصيـــده
ما ناحـــت الورقـــا على نايف العـــود
ولا ادْخلت صـــوت الموسيقى الجديـــده
ولا صـوّت المطـــرب على نغمـة العـــود
ولا قيـــل في بعض الصحـف والجريـــدة
ولا ناح مغـــرم في هـــوى سيد الخـــود
الشعـــر له معنى وصـــوفٍ عديـــده
لي كان فيـه الشكـــر والحمـــد موجـود
لـــي قـال شاعـر قالـوا البـــيت عيـــده
والجـو خالـي من مواشـين وحْشـــود
فيـــه المجالـــس عامـرة بالنشيـــده
ودلال بن وجلســـه ومدخـــن وعـــود
فـي كـل زمـــان يصادف أيـام عيـــده
يشهـد له التاريـخ في الصحـف موجـــود
الشعـر حكمـة والمواهـــب جديـــده
مـا هوب كـلٍ يبـدع الشعـــرويجـــود
مـا يتبـــع الدرب إلا واحـــد يحيـــده
لي مـا يعـرف الدرب يغـوى فـــي لحـدود
ضيّـــع دليلـــه والمسافـــه بعيـده
واللـــه يعلـم في غيابـــه متى يعـــود
ما هـوب كـــل الشعر يسمـى قصيـــده
ولا هـــوب كل العطـر يسمـى دهن عـود
لا تقطـف العـنب إلا مـن عناقيـــده
ولا تطلب الفضـــل إلا من هـل الجـــود

القصيدة للشاعر علي بن رحمة بن سالم الشامسي، ولد عام 1930 في قرية الحمرية في الشارقة وتوفي عام 2006. ويعد من شعراء الإمارات الكبارومن ضمن المؤسسين لبرنامج «في أحضان البادية» الذي كان يبث من إذاعة صوت الساحل من الشارقة في نهايات الستينيات من القرن الماضي، كما شارك في تأسيس مجلس شعراء القبائل في تلفزيون دبي ثم أعد برنامج شعراء البادية في إذاعة دبي التي حلت محل صوت الساحل. يتميز شعر ابن رحمة بسهولة الألفاظ وجزالتها، وقد تطرق في قصائده إلى جميع أغراض الشعر النبطي، كما اشتُهر بالمساجلات الشعرية مع معاصريه من الشعراء وكذلك مجاراة الكثير منهم في قصائدهم. وقد قال هذه القصيدة في قول الشعر وحكمته.

ملف

اللؤلؤ في الإمارات... موروث واستدامة

16 صيد اللؤلؤ بين تاريخ الأجداد ومحاولات الاستدامة - خالد بن محمد القاسمي
22 تكاملية تكريم اللؤلؤ في أقدم مناطق الغوص عبر التاريخ - خالد صالح ملكاوي
26 ضمن سياسات الاستدامة «لؤلؤ أبوظبي» يحيي إرث الأجداد - الفاضل أبو عاقلة
28 الفردان: اللؤلو مردود اقتصادي وثقافي ومصدر حيوي للدخل المستدام - صلاح أبوزيد
32 اللؤلؤ في الإمارات من أصداف البحر إلى أصداف المتاحف والأدب والشعر - أحمد حسين حميدان
36 اللؤلؤ.. استدامة في الموروث الشعبي والثقافي - جمال مشاعل
38 اللؤلؤ في السرديّات الشفاهية الإماراتية - محمد فاتح زغل
41 إن اللؤلؤ عيون - لولوة المنصوري
42 الكتب تحفظ بريق اللؤلؤ وتقاليد استخراجه في دولة الإمارات - عبير علي
46 اللؤلؤ في الإمارات.. عصب الاقتصاد وقصص محفوفة بالمخاطر - فاطمة المزروعي
50 «صيد اللؤلؤ في الإمارات» موروث ثقافي أسطوري ممتد لآلاف السنين - منى حسن
54 في حكاية اللؤلؤ تاريخ وتراث دولة الإمارات - محمد نجيب قدورة
59 اللؤلؤ في أسماء النساء - موزة سيف المطوع
60 الغوص في الأعماق .. تنافسية للاستدامة - مريم سلطان المزروعي
64 اللؤلؤ وأهميته في الخليج العربي في العصرين الوسيط والحديث (نماذج مختارة) - أسماء يوسف الكندي
68 الغوص على اللؤلؤ في كتابات الرحّالة والمُؤرخِين - علي تهامي

صيد اللؤلؤ بين تاريخ الأجداد ومحاولات الاستدامة

خالد بن محمد القاسمي

كان اللؤلؤ لفترة طويلة، قبل ظهور البترول، عماد الاقتصاد في إمارات الخليج العربي، وحكمت الأنشطة المتعلقة به - بداية من صيده حتى بيعه - أحكام وعادات وأعراف تعارف عليها الناس، وبعد ركود تجارة اللؤلؤ، ودخول الإمارات في مرحلة جديدة من مراحلها، بذلت الدولة الكثير من الجهود من أجل الحفاظ على المهن والأنشطة المتعلقة باللؤلؤ واستدامتها، وذلك باعتبارها موروثاً تاريخياً وتراثياً لا يمكن فصله عن الهوية الإماراتية.

كانت البيئة البحرية هي البيئة ذات التأثير الأكبر في الظروف المعيشية والاقتصادية في إمارات الساحل. وذلك راجع لأن ساحل الإمارات يتميز بالأخوار[1] ذات الأثر الكبير في استقطاب الأفراد وعيشهم على الساحل والجزر الساحلية التي يربو عددها على المئتين. والجماعات التي كانت تقيم في هذه البيئة كانت تعيش على التجارة والصناعة وتمتهن مهن البحر وعالمه وخاصة مهنة الغوص، لذلك فإن تركيبها الطبقي كان يمثل صورة لمهن البحر التي كانوا يمتهنونها، حيث كان سكان الساحل ينقسمون طبقياً إلى التقسيم الفني والإداري لعالم الغوص من «طواش»، و«نوخذه»، و«غيص» و«سيب» و«رضيف» إلى غير تلك التعابير والمصطلحات التي تدل على نوع الوظيفة والمهنة التي كان يمتهنها الرجل من سكان الساحل[2]، وهي وظائف متعلقة بعالم البحر، يحصلون منه على قوتهم وما يجود به إليهم ليتكون لديهم رأس المال الذي يتم تداوله بين أصحاب المهن الأخرى، وهم أصحاب الدكاكين والحواجون (أي الباعة المتجولون)، وصغار الصناع، وأصحب المهن اليدوية الصغيرة وغيرهم من سائر طبقات المجتمع[3].

لمحات تاريخية حول صيد اللؤلؤ

وللمنطقة تاريخ طويل في اللؤلؤ يعود إلى سبعة آلاف عام منذ العصر الحجري الحديث، ومن المحتمل أن اللؤلؤ كان من الأصناف المتداولة في التجارة بين الأجزاء المختلفة في المنطقة. لذا نشأت صناعته في أقدم شبكات التجارة البحرية العالمية ذات الانتشار الواسع وتواصلت في الألف عام التالية بعد أن وجدت لها أسواقاً في مناطق النخبة في فارس في الحقبة الأخمينية، وعرفت لدى اليونانيين الفاتحين وأصبحت تصدر إلى روما والهند في بداية العهد المسيحي، وقد أكدت مراجع العصر الإسلامي، مثل: المسعودي، والبيروني، والإدريسي أن التقنيات الرئيسية المستخدمة في صناعة اللؤلؤ وصفها الكتاب اللاحقون بأنها هي نفسها التي كانت مستخدمة في الفترة ما بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين[4].

رواج تجارة اللؤلؤ

كانت تجارة اللؤلؤ تشكل الركيزة الأولى للاقتصاد والمصدر الأول

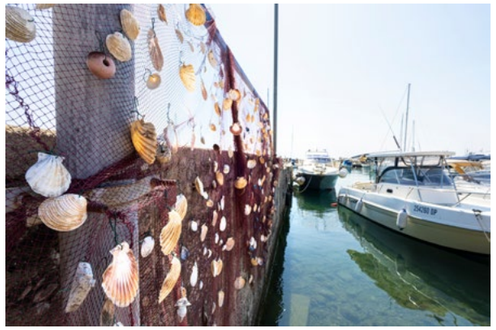

للدخل القومي للإمارات، وقد بدأت مع بداية القرن الثامن عشر؛ حيث كانت قبائل بني ياس تمتهن مهنة صناعة اللؤلؤ عندما كانت في موطنها الأصلي في ليوا، وقبل استقرارها في جزيرة أبوظبي ومدينة دبي، وبعد أن استقرت قبائل بني ياس في جزيرة أبوظبي في عام 1769م اتجهت بصورة أكبر إلى البحر بحثاً عن اللؤلؤ، وقد أسهمت إمارتا أبوظبي ودبي إسهاماً كبيراً في تجارة اللؤلؤ في مرحلة ما قبل البترول، في حين أن الإمارات الأخرى كان لها دور ثانوي[5].

ومع نشاط تجارة اللؤلؤ، زاد الطلب عليه، ما أدى إلى ارتفاع سعره، وبالتالي زاد عدد العاملين في هذه الحرفة، وزاد عدد سفن الأسطول الإماراتي، الذي يعد من أكبر الأساطيل الخليجية العاملة في مجال الغوص على اللؤلؤ، حيث كانت هذه المهنة تجذب أعداداً كبيرة من أبناء الإمارات الذين ينزحون في موسم الغوص من مناطقهم للانتظام في أسطول الغوص سعياً لرفع مستوى معيشتهم[6].

وفي إحصائية أشار إليها لوريمر عام 1907م، قال نجد أن عدد السفن العاملة في مغاصات اللؤلؤ في مناطق الخليج (الإمارات وقطر والبحرين والحسا والعراق) بلغ 3477 سفينة، نصيب الإمارات منها 1215 سفينة، أي بنسبة 34,9 % من عدد السفن العاملة، في حين بلغ عدد العاملين في صيد اللؤلؤ في كل مناطق الخليج 65212، كان عدد أبناء الإمارات منهم 22045 عاملاً، أي بنسبة 33,8 % وهي نسبة عالية جداً، تعكس مدى رواج تجارة اللؤلؤ خلال هذه الفترة[7].

كما يسرد لنا الشيخ «حمد بن محمد المشغوني»، أحد التجار الذين عاصروا الكثير من الأحداث في دولة الإمارات، عن عدد السفن التي كانت تمارس الغوص فيقول: «وبالنسبة للغوص فإنني أذكر أن الشارقة كان بها من ثلاثمئة إلى أربعمئة سفينة، ودبي كان بها من سبعمئة إلى ثمانمئة سفينة، وعجمان من مئتين إلى ثلاثمئة سفينة، وكذلك أم القيوين ورأس الخيمة»[8]. وهذا العدد الكبير يدل على الرواج الكبير الذي كانت تحظى به تجارة اللؤلؤ.

وقد أسهم النمو التاريخي لصناعة اللؤلؤ كثيراً في تحديد الشكل الحضري للإمارات العربية المتحدة وأغلب دول الخليج، وأدت صناعة اللؤلؤ - باعتبارها مصدراً رئيسياً في المنطقة قبل ظهور النفط - دوراً فعالاً في تنمية البنى السياسية والمالية للمنطقة،

وفي تأسيس المدن الكبيرة، وتحديد مواقعها ونموها وسبل بقائها[9].

وتعد الفترة التي تشمل الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين العصر الذهبي للؤلؤ؛ فقد شهدت مهنة الغوص على اللؤلؤ ازدهاراً كبيراً في صناعته، ما أثر تأثيراً كبيراً في مجتمع الساحل. وعلى الرغم من وجود مهن كثيرة كالتجارة والنقل البحري بالسفن التقليدية، فإنها كانت في مجملها تدور حول اللؤلؤ[10]. ففي عام 1835م كان مجمل سكان الإمارات العربية المتحدة القادرين على العمل يعملون في صيد اللؤلؤ باستثناء الأطفال والنساء والرجال العجزة غير القادرين على ممارسة تلك المهنة. وفي عام 1905م كان أهل أبوظبي يعيشون بالكامل على صيد اللؤلؤ والسمك، وكان الغوص الحرفة الرئيسية حتى للبدو وكان نحو 78% من رجال الإمارة يعملون في صيد اللؤلؤ إذا افترضنا تساوي نسبة الرجال والنساء في الإمارة[11].

وبتصفح الوثائق البريطانية ومجلدات لوريمر نلاحظ وجود محاولات كثيرة من قِبل شركات هندية وأوروبية، ومن قِبل أشخاص أيضاً لاقتحام هذا المجال والعمل بصيد اللؤلؤ بمعدات حديثة، أي استغلال وجود حرفة مربحة يجني الاستثمار منها عوائد مجزية. إلا أن الإدارة البريطانية وقفت في وجه تلك المحاولات، واعتبرت هذه المهنة مقتصرة على أبناء منطقة الخليج، ليس حباً فيهم بالطبع ولكن لأسباب سياسية واقتصادية عديدة منها رغبة الإنجليز في استمرار انغلاق المنطقة، واقتصارها عليهم، وعدم ترك الفرصة لشركات الدول الأخرى للعمل في منطقة تعتبر واقعة ضمن نطاق السيطرة البريطانية. والشركات الأجنبية بالطبع ستجلب حكوماتها، لذا منعت كل المحاولات لاستغلال هذه المهنة سواء محاولات الشركات أو الأفراد الأجانب[12]. وعن الحالة الاجتماعية في عصر اللؤلؤ يحدثنا أحمد بورحيمة فيقول: «كانت الحياة الاجتماعية في عصر اللؤلؤ بسيطة وجميلة وكانت العلاقات الاجتماعية تمتاز بالقوة والتماسك»[13].

ركود تجارة اللؤلؤ

تأثرت تجارة اللؤلؤ إثر قيام الحرب العالمية الأولى؛ لأن الطلب العالمي قل على الكماليات، فتوقفت سفن النقل البحري التابعة لشركة الهند البريطانية عن العمل بسبب شغلها بنقل المعدات الحربية. ولم يوقف هذا الوضع حركة التجارة فقط وإنما أوشك أن يعرّض المنطقة للمجاعة أيضاً، ما أعاد الانتعاش مرة أخرى إلى السفن الشراعية كناقل بديل من السفن البخارية، واستطاعت هذه السفن أن تنقذ المنطقة وتعيد التجارة إلى وضعها الطبيعي تقريباً، وبدأت التجارة بالتحسن الطفيف مع أواخر عام 1915م[14].

ومع ذلك لم تقم بريطانيا بأي إجراء لمد يد العون لأبناء الإمارات الذين فرضت وصايتها عليهم قهراً، بل على العكس من ذلك قامت حكومة الهند البريطانية، التي تأثرت من استمرار الحرب بمجموعة من الإجراءات عام 1918م منعت بموجبها دخول أي أموال للإمارات لتمويل عمليات استخراج اللؤلؤ، كما منعت تصدير اللؤلؤ من الهند إلى الخارج، وكانت تلك الإجراءات بداية المتاعب لتجارة اللؤلؤ[15].

وقد تلقت تجارة اللؤلؤ ضربة أخرى في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين؛ وذلك بسبب ظهور اللؤلؤ الصناعي، وانهيار سوق المال في نيويورك عام 1929م، ما أدى إلى حدوث ركود عام في أسواق اللؤلؤ؛ فكانت بداية النهاية لعصر اللؤلؤ الطبيعي. ونتيجة لهذا الوضع غادر الكثير من تجار الهند الساحل أثناء الركود الاقتصادي، وازداد الوضع سوءاً في أعقاب قيام الحرب العالمية الثانية، ما اضطر بعض الفقراء من شدة الفاقة إلى لبس أكياس الأرز والحنطة، حتى وضعت الحرب أوزارها[16].

وقد كتب المقيم البريطاني العام في تقريره عن الساحل المتصالح في عام 1926م «أن فشل موسم عام 1925 أدى إلى ندرة المال ما أدى إلى صعوبة الإمداد بالاحتياجات الضرورية»، ويستطرد مبيناً أثر ذلك على العاملين في الغوص فيذكر أن نصيب الغواص تناقص من ستمئة روبية كما كان من قبل إلى مئة روبية، ونصيب السيب من ثلاثمئة إلى سبعين روبية. وقد وصل الأمر في هذا العام إلى أن اتجهت بعض القوارب إلى السواحل الإيرانية في البحر الأحمر للصيد منها.

وفيما يتعلق بمراكز تجارة اللؤلؤ فقد انحصرت هذه المراكز في نهاية الأمر في كلٍّ من البحرين ودبي، وكان أغلب اللؤلؤ الذي يُصطاد على ساحل الإمارات يتجه إلى دبي، التي أصبحت المركز الأساسي للتجارة على الساحل المتصالح، حيث تتجه إليها سلع التصدير وتخرج منها السلع التي تستوردها لتُباع في شتى أنحاء الساحل[17].

وعن هذا الوضع يقول السيد «درويش بن أحمد بن درويش» أول مدير لبلدية الشارقة: «وقد يئست المحاولات والمساعي المضنية أن تعيد النشاط إلى سوق تجارة اللؤلؤ مثل ما كان عليه قبل الحرب العالمية الثانية وقبل انتشار اللؤلؤ الصناعي الياباني. لذلك فقد أصبح البحث عن مصدر رزق بديل هَم أكبر نسبة من مواطني إمارات الساحل القابعة في واقع شحيح المعطيات والموارد والإمكانيات والقدرات»[18].

وكان جُل اهتمام بريطانيا ينصب على مصالحها ومصالح رعاياها، أما مصالح أبناء المنطقة فلم تلقَ أي اهتمام من جانب بريطانيا، ونعطي مثالاً آخر عن الغواصين الذين كانوا يلاقون الأهوال بحثاً عن اللؤلؤ وفي نهاية الأمر تكون المحصلة ديون متراكمة، فما كان من بريطانيا إلا الاهتمام بحقوق الدائنين من رعاياها في حين أن المديونين والفقراء من أبناء المنطقة فلم يكن لهم أي نصيب من هذا الاهتمام[19]. وقد ظل الوضع على هذه الحال إلى أن تبدلت الظروف، حيث تم اكتشاف البترول في كل من إمارات: أبوظبي، ودبي، والشارقة، وجلاء المستعمر البريطاني، ثم قيام اتحاد دولة الإمارات، لتعيش الإمارات عهداً جديداً لا يعرف إلا والرخاء والتقدُّم والرُّقي.

الجهود الإماراتية لاستدامة الغوص لاستخراج اللؤلؤ

يتضح لنا من العرض السابق أن الغوص لاستخراج اللؤلؤ يمثل جزءاً مهماً من تاريخ المنطقة ومجتمع الإمارات، كما يُعد جزءاً من التراث والهوية الوطنية الإماراتية؛ لذلك اهتمت دولة الإمارات

باستدامة الغوص لاستخراج اللؤلؤوذلك من خلال اتخاذ العديد من الوسائل التي تضمن إنتاج اللؤلؤ بطرق مستدامة، والتعريف بهذه المهنة. ونعرض في هذا المقام بعض هذه الوسائل.

متحف اللؤلؤ في دبي

في مبنى بنك «الإمارات دبي الوطني» المطل على مرآة الخور، وعلى طريق بني ياس بالقرب من بلدية دبي، يشهد طابقه الخامس عشر تاريخ اللؤلؤ العريق؛ حيث تتناثر هناك أجمل اللآلئ في صناديق للعرض ومن الزجاج الآمن، وفي غرفة ثمينة المعنى والمحتوى تتحدث عن كنز حساس بوزنه الخام الذي يصل إلى 55 كيلوغراماً، ما يجعلها واحدة من أكبر المجموعات اللؤلؤية على كوكب الأرض. ويُعرض في هذا المتحف لآلئ طبيعية مستخرجة لم تأخذ طريقها إلى السوق والصاغة، ويشتمل على عدد لا يُحصى من اللآلئ بأحجامها المتنوعة، تلك المرغوبة منها والفائقة الجمال، لتصبح - كما قال الخبراء - أرقى مجموعة لا تباع ولا تشترى، قد تبرع بها الراحل «سلطان بن علي العويس» بعد أن استخرجها أفراد عائلته وسفنهم من مياه الخليج المالحة، وتصبح هنا في هذا المتحف وعند الأوصياء[20].

متحف الشارقة البحري

تمت إعادة افتتاح متحف الشارقة البحري في عام 2009م، بحلته الجديدة في منطقة الخان كخطة توسع للمتحف البحري الذي كانت تحتضنه سابقاً منطقة التراث والذي تم افتتاحه في أوائل عام 2003، للتركيز على الحياة البحرية التي كانت تشكل جزءاً رئيسياً من تراث المنطقة، ومن خلال المتحف يمكن التعرف على الموروث البحري الحافل للمدينة، الذي تم جمعه وتوثيقه من قبل أهالي الإمارات الذين شكّل البحر جزءاً رئيسياً من حياتهم اليومية. ويشتمل المتحف على السفن الخشبية التقليدية التي جابت البحار لأغراض الصيد والتجارة والغوص بحثاً عن اللؤلؤ، والتعرف على الأنواع المختلفة للسفن التي تتباين أشكالها وفقاً لطبيعة استخداماتها. كما يضم عدداً من اللآلئ المبهرة التي جمعها القدماء من أعماق الخليج، والتي ما زالت تتمتع بذاك البهاء الذي أشرقت به منذ لحظة إخراجها من صدفاتها قبل عقود بعيدة[21].

مزرعة السويدي

تعد «مزرعة السويدي» في رأس الخيمة أول مزرعة للؤلؤ المستزرع في المنطقة، وهي واحدة من مشاريع الريادة للأعمال الوطنية في إمارة رأس الخيمة، والوحيدة في الإمارات التي توفر اللؤلؤ من مصادر محلية لصانعي المجوهرات حول العالم، بالإضافة إلى دورها كمنتج سياحي يزوره السياح من دول العالم للاستمتاع بتجربة استخراج اللؤلؤ من المحار.

وتأسست مزرعة لآلئ السويدي عام 2005 على يد «عبد الله السويدي» بهدف الحفاظ على إرث أجداده وإحياء إحدى الحرف

متحف الشارقة البحري

مزرعة السويدي

التقليدية التاريخية التي تفخر بها الإمارات، وهي مزرعة اللؤلؤ الوحيدة في المنطقة التي تستخدم المحار المستزرع بشكل طبيعي والملقّح يدوياً بدلاً من المحار البحري.

وتعد الجولات التي تقدمها مزرعة لآلئ السويدي من أكثر التجارب السياحية والثقافية تميزاً في رأس الخيمة، فهي تستقطب الزوار من أنحاء الدولة وخارجها أيضاً، وبمناظرها الطبيعية الخلابة، تقع مزرعة اللؤلؤ المستزرع على سفوح سلسلة جبال الحجر في منطقة الرمس الشمالية، وتستفيد بحيرة الرمس من مياه الأمطار العذبة التي تنحدر من جبال الحجر، وتمد المياه البحرية بالأوكسجين بما يجعلها المكان الأمثل لنمو اللآلئ وازدهارها.

وتنتج المزرعة الممتدة على 4 آلاف متر مربع نحو 40 ألف محارة مستزرعة سنوياً بمعدل نجاح يصل إلى 60%، 10% منها من اللآلئ فائقة الجودة، ونظراً إلى حجمها المتميز وجودتها وسماكة عرق اللؤلؤ فيها، يعد جمع اللآلئ العربية المستزرعة مهمة شاقة وتتطلب إجراء عمليات مكثفة في بيئات شديدة الخصوصية وخاضعة للتحكم بالكامل.

وتقوم نسبة قدرها 1% من المحار الطبيعي فقط بإنتاج اللآلئ، في حين ينتجها 60% من المحار المستزرع الملقّح يدوياً وتتم عملية الزراعة عبر إدخال حبة مستديرة مصنوعة من صدفة عرق اللؤلؤ في أنسجة المحار، ما يتيح تكون طبقة من الصدف حول حبة اللؤلؤ وتشكلها مع مرور الوقت[22].

مشروع لؤلؤ أبوظبي

تعمل هيئة البيئة - أبوظبي ومنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو)، معاً، على تعزيز جهودهما المشتركة لإحياء التراث والتقاليد المرتبطة بمهنة الغوص لاستخراج اللؤلؤ، عن طريق استزراع المحار المحلي في مياه الخليج العربي بشكل مستدام، لإنتاج لؤلؤ ذي جودة عالية، وذلك من خلال مشروع «لؤلؤ أبوظبي». وقد تأسس مشروع «لؤلؤ أبوظبي» في عام 2007 لإحياء التراث بطريقة مستدامة، وهو يقع في مدينة المرفأ بمنطقة الظفرة، ويتم من خلاله إنتاج ما يقارب الـ80 ألف محارة سنوياً. وإنتاج ما يقارب 20 ألف حبة لؤلؤ عالي الجودة سنوياً، بطريقة مستدامة في مياه إمارة أبوظبي. ومن خلال هذا المشروع، تسعى الهيئة إلى توفير منصة تعليمية وتوعوية حول الاستزراع المستدام للمحار، عن طريق تنظيم زيارات لطلبة المدارس والجامعات، وللجهات والمؤسسات الحكومية والوفود الخارجية. وتأتي هذه الجهود، في إطار التعاون الأوسع القائم بين منظمة الفاو ودولة الإمارات، الذي يركز على دعم الاسترزاع المستدام للأحياء المائية، وبناء قطاع يسهم بحماية البيئة، ويحقق أهداف الأمن الغذائي، ويعمل على توفير فرص للعمل، ودعم سبل المعيشة على المدى البعيد[23].

وهكذا نجد أن الغوص لاستخراج اللؤلؤ يُمثل جزءاً مهماً من تاريخ دولة الإمارات وتراثها، حيث شكّلت تجارة اللؤلؤ - قبل اكتشاف النفط - الركيزة الأولى للاقتصاد والمصدر الأول للدخل القومي للإمارات، وقد وفرت هذه التجارة - على الرغم من المشاق والمخاطر المرتبطة بهذه المهنة - لسكان الإمارات الكثير والكثير من فرص العمل. ولم يكن الغوص مجرد مهنة كغيره من المهن، ولكنه كان منظومة متكاملة ومتجانسة يعلم كل فرد من أفرادها الدور المنوط به ويقوم به على أكمل وجه، حتى أصبحت مهنة الغوص جزءاً لا يتجزأ من التراث الوطني والثقافي لدولة الإمارات. وتقديراً لهذه المكانة الكبيرة، عملت الدولة - عبر العديد من الوسائل - على إنتاج اللؤلؤ بطرق مستدامة ■

*باحث في شؤون الخليج

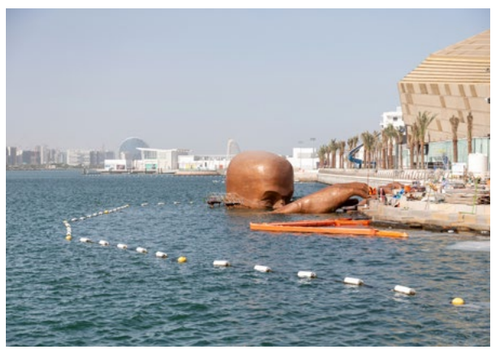

تكاملية تكريم اللؤلؤ في أقدم مناطق الغوص عبر التاريخ

خالد صالح ملكاوي

مثَّل صيد اللؤلؤ أبرز نشاط اقتصادي لأهل الإمارات لفترة طويلة من تاريخهم، ومازالت سيرته حية في الذاكرة والتقاليد، فقد شكَّلت مياه الخليج العربي بيئة مثالية للغوص لصيد اللؤلؤ، ومثَّلت تجارة اللؤلؤ عصب الحياة والتجارة الأكبر في الإمارات، فعمل في هذه التجارة الآلاف من سكان الدولة في جميع إماراتها، وظلت حرفة صيد اللؤلؤ، في ظل الاهتمام الرسمي والشعبي بالحفاظ على بريقها والعمل على استدامتها، الحرفة التي تحتفظ بمكانتها كجزء من هوية وإرث المجتمع والأجيال، وحظيت بالتكريم بصيغ متنوعة باعتبارها زينة، وحرفة، وصناعة، وبكونها جزءاً من تاريخ أهلها.

وفي الإمارات ومنطقة الخليج العربي، تشكل ذاكرة الغوص بحثاً عن اللؤلؤ ركناً أساسياً في سيرورة حياة أهل المنطقة، بصفة الغوص مهنة وتقليداً وتراثاً، مارسه الآباء والأجداد على مدى حقبة زمنية طويلة، كمصدر للرزق وباعث للحياة على ساحل الخليج العربي، في صورة عكست جوانب مهمة من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في دول المنطقة في الماضي، قبل ظهور الذهب الأسود. وقد وحَّد الغوص الفكر الاقتصادي الخليجي، ووحَّد لغة التعامل المالي، كما أوجد نظاماً اجتماعياً موحَّداً؛ فكانت تنطلق معه أساطيل صيد اللؤلؤ إلى مغاصاتٍ للمحار من شهر يونيو إلى شهر سبتمبر من كل موسم، وكان للإمارات 1200 مركب، وللبحرين 900 مركب، وللكويت 600 مركب، وكان المركب الواحد لا يتجاوز الـ15 متراً، يحمل ما بين 80 إلى 120 غواصاً لنحو أربعة أشهر.

نظام دقيق وعمل متخصص

تميزت رحلات الغوص لصيد اللؤلؤ بدقة بالغة وبتراتبية، وبمهام تقوم على التخصص، فتعتمد عملية الصيد على نظام محدد يقوم على العمل الجماعي، والتنظيم والإدارة الفاعلة، وتقسيم المهام خلال رحلة الغوص، ويتضمن فريق العمل عدداً من الرجال الذين يضطلعون بكثير من المهام المتكاملة التي تؤدي في نهاية المطاف إلى رحلة غوص ناجحة. ويتطلب فن صيد اللؤلؤ معرفة عميقة بمصائد اللؤلؤ ومواقعها، فضلاً عن مهارات في الملاحة البحرية.

فالغوّاصون هم رجال المهام الصعبة، حيث يقضون يومهم في الغوص لاستخراج المحار من قاع البحر في ظروف خطرة، أما «السيب» فهو المسؤول عن الحبال المستخدمة لإنزال الغواصين إلى المغاصات، ومن ثم سحبهم إلى السطح عند إرسالهم إشارة بجاهزيتهم بذلك، و«التبّابة»، وهم صبية تتراوح أعمارهم ما بين 10 و14 عاماً، وعادةً ما يكونون من أبناء أفراد الطاقم، يقومون بمساعدة «السيب» في سحب الغواص، كما يتدرب بعضهم على الغوص. ويشاركهم «الرضيفة» وهم الأولاد الصغار الذين يقومون بتقديم الشاي والطعام للغواصين ويساعدون في فلق محار اللؤلؤ، فيما يضطلع «النهام» بمسؤولية تسلية البحارة والترويح عنهم وبثّ الحماس فيهم خلال الأشهر الطويلة في البحر بإلقاء الأهازيج والأشعار بصوته العذب. ويتولى «النوخذة» قيادة السفينة، فيما يقود «السردال» أسطول الغوص «السنيار»، فهو أمير الغوص وأمهر النواخذة، وأكثرهم خبرة ودراية بشؤون الملاحة والفلك والبيرات.

في الإمارات..أقدم غوص

تمتلك الإمارات أقدم اللآلىء في العالم، ما يدل على أن صيد اللؤلؤ كان معروفاً في الإمارات منذ آلاف السنين، فقبل سنوات قريبة

عثر علماء الآثار في دائرة الثقافة والسياحة في أبوظبي على أقدم لؤلؤة في العالم في جزيرة مروح قبالة سواحل أبوظبي، تعود إلى ما يقارب من ثمانية آلاف عام. ويُعد هذا الاكتشاف دليلاً على وجود مهنة صيد اللؤلؤ والمحار في دولة الإمارات منذ عصور سلفت، وهو أقدم دليل مُكتَشَف على صيد اللؤلؤ في العالم.

وقبل اكتشاف «لؤلؤة أبوظبي»، كان قد تم اكتشاف أقدم لؤلؤة في دولة الإمارات في موقع يعود للعصر الحجري الحديث في أم القيوين، كما تم العثور على العديد من اللآلئ القديمة في مقبرة تعود إلى العصر نفسه بالقرب من جبل البحيص في إمارة الشارقة، إلا أن التأريخ الكربوني يظهر بأن «لؤلؤة أبوظبي» أقدم من هذين الاكتشافين. تعد لؤلؤة أبوظبي اكتشافاً مهماً، ودليلاً على عراقة وقدم الأنشطة البحرية في الإمارات، وأن اللؤلؤ شكل الدعامة الأساسية لاقتصاد الإمارات لآلاف السنين، إذ يرى بعض الخبراء احتمال أن يكون قد تم استخدام اللؤلؤ في عمليات التبادل التجاري مع بلاد الرافدين «العراق القديم» مقابل المنتجات الخزفية وغيرها من السلع. كما تُظهر الآثار التي تم اكتشافها في جبل البحيص في الشارقة أن اللؤلؤ كان يستخدم كحلي للزينة من قِبل السكان المحليين أيضاً.

تكامل رسمي وأهلي

وفي الإمارات التي يتميز شعبها بالتمسك القوي بأصالته وبالحفاظ على موروثه وإحيائه، إلى جانب مواكبته مقومات العصر والحداثة، تتشابك المبادرات الشعبية مع الجهود الرسمية في الحفاظ على مختلف مفردات التراث، إذ يبرز هذا التضافر الوطني الرسمي والشعبي جلياً في الحفاظ على موروث اللؤلؤ؛ فتتعدد المشاريع والمبادرات وتتنوع الثمار التي تبقي على صيد اللؤلؤ مكوّناً أصيلاً من تاريخ المجتمع وثقافته، وتقود إلى استدامة هذا الموروث مع الأجيال المتعاقبة وبمعايير العصر وتقنياته. تجسد المتاحف المعنية بصيد اللؤلؤ في الإمارات هذا الاهتمام، وتعكس هذا التراث الغني وتقدم للزوار فرصة لاستكشاف تاريخ هذه الصناعة وقيمتها الثقافية؛ فمن الميسور قراءة جزء من تاريخ الغوص عبر متحف الشارقة البحري، إذ يعرض المتحف لزائره تفاصيل الحياة البحرية التي شكلت جزءاً رئيسياً من تراث الشارقة، حيث كان للبحر تأثير واسع في تطور المدن الساحلية وازدهارها منذ آلاف القرون؛ فيعرض السفن الخشبية التقليدية التي جابت البحار بغية الغوص بحثاً عن اللؤلؤ، ولأغراض الصيد والتجارة، كما يمكن الاستمتاع بمشاهدة جملة كبيرة من اللآلئ المبهرة التي جمعها الأجداد من أعماق الخليج، التي ما زالت تتمتع بذاك البهاء الذي أشرقت به منذ لحظة إخراجها من صدفاتها قبل عقود بعيدة.

كما يتيح متحف اللؤلؤ في مبنى بنك «الإمارات دبي الوطني» على

خور دبي لزواره الارتحال مع عالم صيد اللؤلؤ وتاريخه وحيثياته التي شغلت مجتمعات المنطقة وتجار العالم ردحاً من الزمن، فيقدم المتحف للزوار أدوات الغوص، ويعرّفهم بالحكم على جودة اللؤلؤ، وطريقة اختيار التجار صفقاتهم في الماضي البعيد، وكيف كان يتم التصدير إلى المدن البعيدة، إضافة إلى التعريف بكيفية التفريق بين اللؤلؤ الطبيعي والصناعي. فضلاً عن أن المتحف يتيح للزائر مشاهدة أندر اللآلئ الطبيعية وأثمنها التي آثر المرحوم سلطان العويس، أحد رواد النهضة في الإمارات وأحد كبار تجار اللؤلؤ فيها، أن يجعل من ملايين اللآلىء متاحة في المتحف للمساعدة على المحافظة على تاريخ غواصي اللؤلؤ وتجّاره، ولكل من يريد أن يتعرف على الحياة السابقة، والاقتصاد السابق لدولة الإمارات قبيل اكتشاف النفط.

وفي مركز ثقافة اللؤلؤ في رأس الخيمة، الذي انطلقت نواته عام 2004م. تتم إعادة صياغة وبناء ذاكرة الغوص وإحياء ثقافة إنتاج اللؤلؤ، وعراقتها في الدولة ومنطقة الخليج العربي، وإعادة المكانة التاريخية للدولة، كمركز حيوي للغوص وتجارة اللؤلؤ التي ارتبطت بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للإمارات والمنطقة. والمركز ينضوي ضمن مشروع كبير يحتضن مزرعة كبيرة لاستزراع اللؤلؤ الذي بات يُصَدَّر إلى أسواق مختلفة في العالم، ويحتوي متحفاً للؤلؤ، هو المتحف الثاني من نوعه في العالم، ويتبنّى برنامجاً معرفياً ترفيهياً يضع الزائر في قلب أجواء الغوص

ويستحضر له روحه .

يجمع المتحف بين الأصالة والمعاصرة في سيرة صيد اللؤلؤ، بدءاً من تاريخ الصيد كمهنة شكّلت عصب الحياة للمجتمعات الخليجية وانتهاء باستزراع اللؤلؤ وفق التقنيات العصرية؛ فيحاكي جزءاً كبيراً من المتحف الأصالة والتاريخ لسيرة الغوص وتاريخه في الإمارات والمنطقة والعالم، بدءاً من الأدوات المستخدمة في رحلات الغوص بحثاً عن اللؤلؤ، مروراً بالجالبوت، أي السفينة المستخدمة في الغوص، عبر سفينة حقيقية تعرض داخل المتحف، وصولاً إلى ما يعرف في التراث الإماراتي والخليجي ببرزة الطواويش، و«البرزة» هي الجلسة أو المجلس، و«الطواويش» هم تجار اللؤلؤ. ويعرض المتحف في جزء منه للتقنيات الحديثة المستخدمة في عمليات استزراع اللؤلؤ في العالم اليوم، مع استعراض العلوم الحديثة المتصلة باللؤلؤ. إذ يعد المتحف مكملاً لمشروع استدامة اللؤلؤ يجمع بين جهود القطاعين الخاص والحكومي والتعاون الدولي، فهو ثمرة شراكة بين عائلة السويدي الإماراتية، من أبناء منطقة الرمس الساحلية في رأس الخيمة، التي أطلق أبناؤها ونفذوا فكرة المشروع في ساحل الرمس، وحكومة رأس الخيمة، بالتعاون مع خبراء يابانيين. وضمن ثمار الجهود الرسمية في العمل على استدامة اللؤلؤ ثمة مشروع لؤلؤ أبوظبي الذي بدأته هيئة البيئة في أبوظبي بالتعاون مع منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو) في عام 2007م. في مدينة المرفأ بمنطقة الظفرة، لإحياء تراث اللؤلؤ بطريقة مستدامة، إذ تعمل الجهتان معاً، على تعزيز جهودهما المشتركة لإحياء التراث والتقاليد المرتبطة بمهنة الغوص لاستخراج اللؤلؤ، عن طريق استزراع المحار المحلي في مياه الخليج العربي بشكل مستدام، لإنتاج لؤلؤ ذي جودة عالية، وتسعى الهيئة، من خلال هذا المشروع، إلى توفير منصة تعليمية وتوعوية حول الاستزراع المستدام للمحار، عبر تنظيم زيارات لطلبة المدارس والجامعات، وللجهات والمؤسسات الحكومية والوفود الخارجية.

سبل متنوعة للاستدامة

وثمة مؤسسات أنشأتها الدولة مبكراً من أجل خدمة موروث اللؤلؤ، وكذلك فعلت الجهات المحلية في الإمارات المختلفة، مثل الأندية والجمعيات المعنية بالغوص وباللؤلؤ، في إطار الجهود المتواصلة المبذولة من أجل تعزيز الهوية الوطنية والمحافظة على التراث الوطني لدولة الإمارات للأجيال القادمة.

متحف الشارقة البحري

وقد تكون جمعية الإمارات للغوص في دبي من أبرز هذه المؤسسات، إذ مضى على تأسيسها أكثر من ثلاثة عقود، وهي منظمة اتحادية تطوعية غير ربحية، معتمَدة من قِبل برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) باعتبارها منظمة بيئية دولية. تهدف إلى نشر ثقافة ونشاط الغوص بين الشباب وتشجيعهم على ممارسته، والمحافظة على التراث البحري وإحيائه وتوثيقه بما في ذلك موروث صيد اللؤلؤ. وضمن مسيرتها الطويلة كانت رسالة الجمعية واضحة في إحياء هذا التراث العظيم والاعتزاز به، وإطلاع الجيل الجديد من أبناء الإمارات على حقبة من الزمان كان أجدادهم فيها مثالاً يُحتذى به، في الكفاح والصمود والتحدي. ولأن إحياء تراث الأجداد مسؤولية مجتمعية؛ فقد حرصت الجمعية أو نظيراتها على تشجيع الجهود المخلصة كافة التي تنشر الوعي بهذا التراث بين أبناء الإمارات. وتحرص مختلف المؤسسات والهيئات المعنية بالثقافة والتراث على تخصيص أجنحة في مهرجاناتها الثقافية والتراثية لتعريف الأجيال الجديدة

متحف اللؤلؤ في دبي

بهذه المهنة التاريخية. بل وتنظّم في كثير منها دورات تدريبية وتثقيفية بأسرار هذه المهنة، فنجد مثل هذا الحضور في كثير من أنشطة وفعاليات هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، ونادي تراث الإمارات، ومعهد التراث في الشارقة، ومهرجان الشيخ زايد التراثي. فضلاً عن السباقات السنوية التي استمرت لعقود للحفاظ على هذا الإرث الثقافي، مثل سباق "القفال" للسفن الشراعية التراثية الذي انطلق منذ عام 1991م. كي يحكي تاريخ الإمارات وحياة أهلها التي ارتبطت بالبحر من خلال رحلات صيد اللؤلؤ والتجارة، وتطور السباق حتى غدا الحدث التراثي البحري الأول والسباق الأكبر، والذي يُجسّد موسم العودة وانتهاء موسم صيد اللؤلؤ، إذ تمثّل «الدشة» و«القفّال»، خلاصة رحلة الأجداد في البحر لاستخراج اللؤلؤ ، و«الدشة»، هي الدخول إلى البحر وبداية رحلة الغوص التي قد تستمر أسابيع أو أشهر، بينما «القفّال» هي رحلة العودة من الغوص بعد غياب طويل في مياه الخليج العربي ■

* باحث وإعلامي مقيم في الإمارات

جزيرة اللؤلؤ في أبوظبي

مزرعة لآلئ السويدي في رأس الخيمة

ضمن سياسات الاستدامة

«لؤلؤ أبوظبي» يحيي إرث الأجداد

الفاضل أبو عاقلة

اشتُهر الخليج العربي باحتوائه على أفضل أنواع اللؤلؤ في العالم، حيث أظهرت السجلات التاريخيَّة أنه على الرغم من أن سوق اللؤلؤ العربي أنتج كميات قليلة، فإن جودته كانت الأعلى بكثير مقارنةً بالأنواع الأخرى، بسبب بريقه اللافت للنظر والانتباه؛ كان هناك إقبال شديد على لؤلؤ الخليج العربي من قِبل كبار تجار الجواهر العالميين، حيث تم استخدامه في تصاميم اقتناها الملوك والنبلاء حول العالم. بدأت تجارة اللؤلؤ في منطقة الخليج بالتدهور بعد نجاح تجارب اللؤلؤ المستزرع، عن طريق عالم الأحياء البحرية البريطاني ويليام سافيل (1845 - 1908) في السواحل الأسترالية، تحديداً جزيرة ثيرسداي في أواخر القرن التاسع عشر؛ أما تحويل الاستزراع إلى مشروع تجاري فقد تم لاحقاً عن طريق تجار اللؤلؤ اليابانيين وأبرزهم: كوكيجي ميكيموتو (1858 - 1954)، ووتاتسوهي مايس، وتوكيشي في مطلع القرن الماضي، الذين نجحوا بعد محاولات عدة فاشلة في تصدير اللؤلؤ المستزرع في عام 1920، ما أدى بطبيعة الحال إلى تراجع تجارة اللؤلؤ الطبيعي خلال عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته، هذا إلى جانب اكتشاف النفط في سيتينيات القرن الماضي الذي زاد من انحسارها بشكل كامل. لم يكن الغوص مجرد تجارة أو وسيلة لكسب العيش، بل كان نظاماً اجتماعياً متكاملاً، ترك وراءه تراثاً ثرياً من العادات والتقاليد؛ يقول: أحمد إسماعيل الهاشمي، المدير التنفيذي لقطاع التنوع البيولوجي البري والبحري في هيئة البيئة - أبوظبي: «لؤلؤ أبوظبي يعتبر أحد مشاريع استزراع الأحياء المائية الرائدة في المنطقة. وتوصلت هيئة البيئة - أبوظبي إلى طريقة لإحياء تراث الغوص لاستخراج اللؤلؤ في أبوظبي من خلال الممارسات الحديثة والمستدامة. في الماضي، كان الغوص بحثاً عن اللؤلؤ مهنة محفوفة بالمخاطر، ولكنه وفر فرص عمل موسمية لتحقيق دخل اقتصادي لمجتمع دولة الإمارات. ونحن بهيئة البيئة نسعى بشكل دائم إلى الحفاظ على تراثنا الوطني، وكذلك حماية البيئة من خلال تطوير تقنيات استزراع الأحياء المائية المستدامة».

بداية الرحلة

في رحلتي من جزيرة أبوظبي إلى مدينة المرفأ، التي استغرقت نحو ساعتين، كان يشغل تفكيري ما سأراه عند وصولي، تشدني فكرة الربط الزمني وإعادة إحياء تراث غاب منذ مئة عام تقريباً، وحرص الدولة بالسبل المتاحة والمبتكرة كلها في المزاوجة بين الحداثة والأصالة، وهو ما يبدو جلياً في مشاريع تحيي التراث وتستدعي الثقافة المحلية في قوالب علمية مستدامة. وصلت إلى مركز «لؤلؤ

أبوظبي» الذي يقع ضمن حدود محمية مروح للمحيط الحيوي، كان في انتظارنا أحد الفنيين، أخذنا في جولة سريعة داخل المركز، بدايةً من المختبر حيث يصل اللؤلؤ إلى محطته الأخيرة، بعد ذلك دخلنا إلى المجلس وهو قاعة مجهزة جيداً بأجهزة العرض، والديكورات التراثية في إيحاء أن المشروع تراثي في الأساس. بدأ مرافقنا سرد حكاية المشروع؛ تأسس «لؤلؤ أبوظبي» في عام 2007 كدراسة تجريبية لتقييم جدوى إنتاج لؤلؤ بجودة عالية بطريقة مستدامة في منطقة الظفرة، باستخدام النوع المحلي من محار اللؤلؤ، وذلك ضمن سعي هيئة البيئة - أبوظبي في إيجاد وسيلة تُسهم في إحياء تراث اللؤلؤ في إمارة أبوظبي من خلال ممارسات أكثر استدامة. يركز المشروع على أربعة مسارات رئيسية حيث يهدف المسار الأول إلى تعزيز السياحة البيئية في الإمارة من خلال تسليط الضوء على تقاليد دولة الإمارات العربية المتحدة وتراثها، ويتضمن المسار الثاني تسويق منتجات مشروع «لؤلؤأبوظبي». أما المسار الثالث وهو أحد المسارات الرئيسية المهمة للمشروع فيتمثل في إجراء تجارب علمية وتطبيقية لتعزيز المعرفة في مجال استزراع الأحياء المائية للمحار، مما يؤدي إلى زيادة حجم الإنتاج وتحسين جودة اللؤلؤ. وأخيراً، يهدف المسار الرابع إلى رفع مستوى الوعي بين الأجيال الشابة حول الاستزراع المستدام للمحار؛ من خلال تنظيم زيارات لطلاب المدارس والجامعات والمشاركة في الفعاليات المحلية والدولية.

الاستزراع والحصاد

بعد الانتهاء من الشرح داخل المجلس، خرجنا إلى مرسى وهناك كان ينتظرنا زورق سريع، والملاحظ أن كل شيء صنع من المواد الطبيعية، حفاظاً على المحمية، مع الكثير من الضوابط والملاحظات لزوار المحمية تقرؤها على لوح لا تخطئه العين، انطلق الزورق بسرعة كبيرة يقوده مرافقنا من هيئة البيئة - أبوظبي يشق طريقه إلى موقع الاستزراع، وما هي إلا لحظات حتى غابت حافة البر عن أعيننا وأصبحنا وسط مساحة زرقاء غير منتهية، بعد 40 دقيقة تقريباً تغيّر لون البحر قليلاً وأصبح يميل إلى اللون الأخضر مع درجة نقاء يستطيع المرء منها رؤية ما تحت الماء بسهولة، وعلى هذه المساحة ظهرت حبال ممتدة على مساحة شاسعة، معلقة بطوافات لتحافظ على بقائها على السطح. يُعد محار اللؤلؤ من المفرخات الحرة وذلك لأنه يطلق البيض والحيوانات المنوية في المياه المفتوحة، حيث تحدث عملية الإخصاب. ومن بين ملايين البيض المخصب، ينجح القليل منه

في الاستقرار على أسطح مناسبة لينمو إلى حجم أكبر، أما البقية فتتغذى عليها الكائنات البحرية الأخرى أو لا يجد سطحاً مناسباً يستقر عليه. ومن هنا تبدأ رحلة استزراع اللؤلؤ المستدام. يشرح لنا مرافقنا أن هيئة البيئة - أبوظبي تضع جامعات صغار المحار في مياه الخليج، وهي عبارة عن حبال عائمة تستخدم لجمع بيض المحار المخصب، التي لولاها لن يجد سطحاً مناسباً يستقر عليه. تكثفت الأسئلة في رأسي، وزادت دهشتي عندما رأيت بعض الفنيين يقفون على ما يشبه القارب ويقومون بسحب الشباك واحدة تلو الأخرى، ثم بواسطة خراطيم المياه المضغوطة لإزالة العوالق والفضلات، ثم يعيدونها مرةً أخرى إلى مكانها، وتكون هذه العملية طوال بقائه في الماء لضمان نموه بشكل صحي وسليم. تُترك جامعات المحار في مياه الخليج لمدة عام، وبعد ذلك يتم جمع صغار المحار ونقلها إلى موقع الاستزراع لتستمر في النمو؛ يتم إنماء صغار المحار في أنواع مختلفة من الشباك لمدة عام آخر حتى تبلغ الحجم المناسب، وحسب مرافقنا ببلوغ المحار عامين يكون قد أصبح جاهزاً لعملية التلقيح؛ يتم إدخال نواة مصنعة من صدفة مياه عذبة في المحار الحي، وبعد ذلك يتم إعادة المحار الملقح إلى موقع الاستزراع ليواصل النمو بشكل طبيعي في المياه النقيَّة لمدة عامين لإنتاج لآلئ زاهية.

بعد عامين، يتم حصاد اللؤلؤ وتنظيفه بشكل بسيط باستخدام الملح الطبيعي ليصبح أكثر بريقاً. تتميز لآلئ المشروع بأنها تنتج بشكل طبيعي، وتأتي في أشكال وألوان وأحجام مختلفة حسب الظروف الطبيعية دون تدخل خارجي. لا تتعرض اللآلئ لأي نوع من المعالجة بعد الحصاد، كما يحدث في عمليات استزراع اللؤلؤ المشابهة حول العالم. يُنتج «لؤلؤ أبوظبي» ما بين 80,000 - 100,000 من المحار الملقح وما يقرب 20,000 حبة لؤلؤ عالية الجودة سنوياً. كل ما سبق يجعله مشروعاً رائداً في إمارة أبوظبي يربط الثقافة المحلية بالتعليم والسياحة المستدامة ■

* كاتب وصحفي سوادني

الفردان: اللؤلو مردود اقتصادي وثقافي ومصدر حيوي للدخل المستدام

حاوره: صلاح أبوزيد

تميزت دولة الإمارات العربية المتحدة بجزرها وسواحلها المطلَّة على الخليج العربي وبحر العرب بموقع فريد على الخريطة السياسية والثقافية والاقتصادية، باعتبارها مدناً وقرى وموانئ بحرية أثرت وتأثرت فيما حولها، وكانت معبراً وحلقة وصل بين الشرق والغرب؛ لأنها امتازت بالنقل البري والبحري وامتهن أهلها حرفة الغوص وتجارة اللؤلؤ وصيد السمك التي عرفها العالم منذ أكثر من سبعة آلاف عام؛ حيث أدى هذا المثلث دوراً مهماً وحاسماً في استدامة الطبيعة الاجتماعية والاقتصادية والبيئية في الإمارات. ومن خلال تلك الاكتشافات لهذه اللآلئ وما يلحق بها، فُتِح الباب على مصراعيه للتعرف على تلك الشعوب والحضارات التي عاشت في هذه المناطق، وعملت على الغوص والتجارة.. الأمر الذي يدفعنا للبحث في أسرار الماضي لننير الطريق لأجيال المستقبل، ولا سيما في الجانب البحري، والتعرف على البدايات الأولى لمهنة الغوص ومسيرته العالمية، وتأثيراته في حياة المجتمع الإماراتي والإقليمي، ودوره في صياغة المنظومة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

مورد طبيعي

وفي هذا الصدد قال السيد مصطفى الفردان، وهو باحث وتاجر إماراتي في تصريح خاص لمجلة «تراث»: «إن الغوص على اللؤلؤ كان اقتصاداً متكاملاً بحد ذاته، وأول نقطة يجب أن يعلمها القارئ العزيز هي أن الغوص على اللؤلؤ كان اقتصاداً وليس مهنةً، لقد كان النظام الاقتصادي في تلك الآونة يتكون: أولاً من المورد الطبيعي وهو اللؤلؤ، إضافة إلى أن اللؤلؤ الموجود في مغاصات الإمارات كان يُعد من أجود أنواع اللؤلؤ في العالم، وثانياً الكفاءات الوطنية من التجار الذين يشترون اللؤلؤ من السوق المحلي أو من النواخذة

(قادة السفن) وكانوا يصدرونه إلى الهند وفرنسا ودول أخرى في الأسواق العالمية، وثالثاً كان الغوص على اللؤلؤ يولد عناصر متعددة من المهن والقطاعات التي امتهنها أشخاص عدة ارتبطوا بذلك الاقتصاد، كطاقم سفينة الغوص من غواصين وسيوب وبحارة آخرين، وعائلاتهم، وصنّاع السفن الذين لهم نظامهم الاقتصادي المتكامل من بيع وشراء وأعمال يدوية وحرفية».

وأضاف: هناك صيادو الأسماك الذين يعتمدون على السفن في تجارتهم أيضاً، والمحامل السفّارة التي تعمل على التجارة في تصدير التمور واللؤلؤ، واستيراد المواد التي يحتاجها السكان مثل المواد الغذائية، والملبوسات، والبضائع الأخرى، كل هذه العوامل كان لها الأثر الكبير في استقرار المجتمع وتطوره من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

مواسم الغوص

وأشار الفردان إلى أن الغوص على اللؤلؤ بدأ قبل 7000 عام تقريباً، حيث خلَّد التاريخ اللؤلؤ كجوهر نفيس تعرف عليه الإنسان، وكذا كل حضارة وثقافة نشأت وازدهرت قرب سواحل البحار قدَّرت اللؤلؤ وعرفت مكانته لجماله وقدراته الساحرة أو فوق العادية، حيث عرف الإنسان اللؤلؤ منذ القدم، ما يعطينا فكرة عن قدم هذه المعرفة بين الإنسان وهذا المخلوق البديع.

وتابع: أما مواسم الغوص على اللؤلؤ للبحث والتنقيب فكانت في جميع فصول السنة، ويكون ذلك في جميع المسطحات المائية الموجودة، سواء كانت في الخليج العربي أو في أي مكان آخر في العالم، إلا أن هناك مواسم رئيسية في السنة تتسم بمواصفات مناخية تُلائم وتساعد الباحثين عن اللؤلؤ بالاستمرار في البحار العميقة لفترات أطول، وعليه يتم التجهيز والإعداد لهذه الفترة حتى تنجز على أحسن وجهٍ وأكمله. وينقسم الغوص على اللؤلؤ

في الإمارات إلى أنواع عدة من أهمها: الغوص الكبير، وغوص الردة، وغوص الرديدة، وغوص القحة.. وأما التجني فهو على طول السنة.

جهود حثيثة

وحول جهود الإمارات الحثيثة والمميزة في الاهتمام بهذا التاريخ والموروث العريق ودورها المهم في رعاية جمعيات الغوص وتوفير البطولات والرياضات البحرية المخصّصة للهواة والراغبين في الغوص بحثاً عن اللؤلؤ، أشار الفردان في حديثه لمجلة «تراث» إلى أنه في بداية السبعينيات وبعد قيام الاتحاد شهدت الإمارات طفرةً معمارية واقتصادية عمت المجالات جميعها، وكانت توجيهات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيب الله ثراه - واضحة في المحافظة على التراث وتوريثه إلى الأجيال القادمة؛ حيث اعتمد - رحمه الله - اللؤلؤ من ضمن برتوكول الهدايا للدولة؛ لما له من أهمية في التعبير عن أرقى أنواع الفخامة والتقدير والاحترام للضيوف.

منظر جوي لميناء دبي البحري

البُعد التاريخي والثقافي للإمارات

وأضاف: من جهة أخرى، تنم عن البُعد التاريخي والثقافي لدولة الإمارات العربية المتحدة وانعكس ذلك على تجارة اللؤلؤ في الخليج العربي والعالم، ونشطت تجارة اللؤلؤ مرة أخرى لتلبية السوق المحلية من أفخر أنواع اللؤلؤ، وبدأ استيراد اللؤلؤ من الأسواق العالمية، الأمر الذي أسهم في لعب تجار اللؤلؤ (الطواويش) مرة أخرى دوراً كبيراً في استرداد معظم اللآلئ لمعرفتهم بالأماكن التي بيعت فيها، والتجار الذين تعاملوا معهم في تلك الفترة، وانعكست الآية هذه المرة وبدأ الطلب على اللؤلؤ يزداد في دول الخليج العربي، وكان بإمكان معظم النساء في الخليج أن يرتدين اللؤلؤ الذي كان بعيد المنال عليهن قبل اكتشاف النفط.

اهتمام ودعم

وتابع الفردان: تجلى ذلك الاهتمام والدعم الكبير والسخي من الحكومة الرشيدة بوضوح في مجالات شتى للمحافظة على التراث، منها الإعلامية والثقافية، مثل المتاحف المتخصصة في التراث البحري والغوص على اللؤلؤ، وكذلك الرياضية المتمثلة في سباقات الهجن والخيل، والسباقات البحرية التي حافظت وبشكل كبير على هذا الإرث الجميل. وما سباق القفال للقوارب الشراعية الذي أسسه الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم - رحمه الله - إلا واحد من أهم السباقات التراثية التي أكملت يوبيلها اللؤلؤي، والتي خرَّجت مجموعة كبيرة من نواخذة البحر الذين ذاع صيتهم على مستوى الخليج ومنهم النوخذة والشاعر حميد بن ذيبان الذي قال:

وحمـــدان فَضْلــة دُون ذِكْر التَفاصِيـل
بَـــيْن ونهـــدي له تَحايـــا جِزيلـــه
كَان السّـــبَب في مَهرجَان المِجافِيـــل
قفَـــال والقفَـــال فَرحَـــة خَلِيلـــه

وكذلك سباق (دلما) التاريخي للقوارب الشراعية الذي يقوم على رعايته سمو الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان، ممثل الحاكم في منطقة الظفرة، الذي فاقت جوائزه 30،000،000 درهم، حيث يجسد هذا السباق الملحمة التاريخية لجزيرة (دلما) التي حظيت باهتمام المؤرخين الذين سطَّروا لنا أخبار تلك الفترة، والتي لا تزال تراكُماتها وإسقاطاتها في الذاكرة عند أهل الإمارات، بل ومعظم شعوب المنطقة.

دعم موروث صيد اللؤلؤ

وأكد الفردان جهود الإمارات في تأسيس الأندية التراثية التي تدعم موروث صيد اللؤلؤ ونقله للأجيال باعتباره جزءاً أصيلاً من قصة تاريخ الإمارات وتراثها في مشواره الطويل.. فنرى اليوم

اهتماماً كبيراً من الجهات الحكومية والخاصة في تعزيز وإبراز ذلك المخزون التاريخي والثقافي الذي أرسى قواعده - المغفور له بإذن الله - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - حيث تمّ إنشاء الكثير من الأندية والمراكز الثقافية والمتاحف وعلى مستوى راقٍ بالمعدات والتقنيات الحديثة والمبتكرة التي من خلالها يستطيع الباحث أن يجد كمّاً هائلاً من المعلومات والمعرفة عن هذا التاريخ الجميل لدولة الإمارات العربية المتحدة.

ومن جهة أخرى نرى اهتمام المؤسسات الخاصة في المحافظة على هذا الموروث، حيث تم إنشاء متحف اللؤلؤ في بنك دبي الإمارات الوطني، الذي توجد فيه كمية كبيرة وفريدة من اللآلئ الفاخرة والعقود الجميلة التي تم جمعها والتبرع بها إلى البنك من قِبل الطواش والتاجر المرحوم سلطان بن علي العويس، الذي حرص على أن تبقى هذه اللآلئ دون التفريط فيها، وكذلك الحال في معظم الشركات والمؤسسات الخاصة، وعلى مستوى الأفراد أيضاً.

7000 عام

وأوضح الفردان: بعد مرور 7000 عام على صناعة اللؤلؤ، نجدها لا تزال باقية ودائمة، وتنافس أفخر النفائس في عالم المجوهرات، وتتجدد بألوان مختلفة في كل عصر وزمان، وبدأ الاستثمار في هذه الصناعة بنظام مبتكر جديد يتماشى مع التطور والحداثة، ومن خلال الأعوام العشرة الأخيرة نرى تطوراً ملحوظاً في دراسة الطرق التي تعمل بها النظم الطبيعية، وكيفية تنوّعها، وإنتاجها لجعل البيئة متوازنة، وترتكز على التطوير الاقتصادي والاجتماعي، وكذلك حماية البيئة، وتهدف إلى القضاء على الجوع والفقر.

وبما أن الغوص على اللؤلؤ لا يزال باقياً في وجدان أهل الخليج، حيث استطاعوا الاستفادة من هذه الخبرات والتراكمات في خلق أيقونة اقتصادية جديدة ترفد اقتصاد هذه الدول والاستفادة من هذا الإرث العريق في استدامة العمل به وفي مجالات عدة، منها: رياضة الغوص، وتنظيم رحلات الغوص للسياح المتمثلة في السياحة البيئية، وكذلك تطوير البحث العلمي في إيجاد حلول اقتصادية للحد من التلوث في مياه البحر، والعمل على زيادة الثروة السمكية وزراعتها.

كسب الرزق والمحافظة على الإرث

وقال الفردان: «إن هناك الكثير من الذين يعملون في الغوص على اللؤلؤ من أجل كسب الرزق من جهة، والمحافظة على هذا الإرث من جهة أخرى؛ لذلك نرى الغوص على اللؤلؤ مستمراً في بعض الدول الخليجية، وهناك محصول وفير ونوعي من اللؤلؤ، حيث عثر الغواص البحريني سند عبد الله بن جفن في عام 2019م على لؤلؤة تزن 18 قيراطاً لا تقدر بثمن. وتتميز دولة الإمارات العربية المتحدة بأجمل مغامرات الغوص المثيرة في المنطقة، وسيعشق هواة الغوص في (مارتيني روك) الواقعة في إمارة الفجيرة، وهي واحدة من مناطق الغوص الأكثر شعبية في الدولة، هذه الرياضة حيث تسهم الحياة البحرية الفريدة والمناظر البحرية الخلابة التي تقطن تحت الماء في جعل رياضة الغوص إحدى المغامرات التي لا تنسى في الدولة».

تحول تدريجي

وأشار الفردان إلى أن التحول التدريجي من صناعة الغوص على اللؤلؤ إلى صناعة الغوص الترفيهي والسياحي له مردوده الاقتصادي والثقافي على المجتمع؛ لذلك هيأت الحكومة البنى التحتية، ووفرت كل الدراسات والمعلومات الكفيلة بخلق فرص عمل جديدة في هذا المجال، والاستفادة من تطوير هذه الثقافة، وجعلها مصدراً حيوياً من مصادر الدخل القومي المستدام في المستقبل ■

كاتب من مصر

اللؤلؤ في الإمارات

من أصداف البحر إلى أصداف المتاحف والأدب والشعر

أحمد حسين حميدان

في سيرة استخراج اللؤلؤ من البحر في الإمارات العربية المتحدة ثمة ملامح جديدة تضاف إلى هذه الدولة يتم التأكيد من خلالها على حضور لها قبل اكتشاف النفط، فمن خلال هذه السيرة والعديد من أبحاثها ودراساتها يتبين بالتوثيق أن العديد من بَحارتها قاموا منذ سبعة آلاف سنة بالغوص ببحرها الممتد على طول حدودها[1]، واستخراج اللآلئ المختلفة من قيعانه وذلك بعد سماعهم عنها من مصادر مختلفة يأتي في مقدمتها القرآن الكريم الذي جاء ذكر الله لها في سورة الرحمن:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23)﴾.

وقوله تعالى عنها في سورة الواقعة:

﴿وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)﴾[2].

وتعتبر هذه اللآلئ من الأحجار الكريمة التي تتشكل داخل بعض أنواع أصداف الرخويات والمحار، وله العديد من المسميات، مثل: الدانة والبدلة والفص وغيرها؛ وكان البحارة في الإمارات يشرعون من أجل ذلك في رحلات صعبة لمدة أربعة أشهر من السنة مواجهين المخاطر تحت أشعة الشمس الحارقة بحثاً عن المحار الذي يكمن اللؤلؤ بداخله، ويستخدمون في هذه الرحلات أدوات متعددة نذكر منها (الديين) وهو عبارة عن إناء مصنوع من خيوط مترابطة، ليعلقه الغواص حول رقبته خلال جمع المحار ليضعه بداخله، بالإضافة إلى حبل يربطه بساقه وبحجر في قاع البحر يطلق عليه اسم (الزبيل) إضافة إلى مشبك صلب يتم صنعه من العظام أو من صدفة سلحفاة ويضعه الغواص على أنفه لمنع دخول الماء إلى أنفه، ويتكوّن فريق الصيادين الذين نذروا نشاطهم وأنفسهم إلى استخراج اللؤلؤ من (قبطان السفينة) ويعتبر هو المسؤول عن رحلة الصيد والغوص بأكملها، ويكون في الغالب مالك للقارب أو موكل بإدارة عملية صيد اللؤلؤ من قِبل هذا المالك؛ ويضاف إليه، (الغواص) وهو الذي يقوم بأصعب عمل، حيث يغوص في أعماق البحر للبحث عن المحار؛ وبعده يأتي (السيب) الذي يكون عادة مسؤولاً عن الحبال التي تُستخدم لإنزال الغواصين في البحر لاستخراج اللؤلؤ الطبيعي وسحبه من قاع البحر إلى السطح؛ وبعده يأتي (الجلاس أو اليلاس) وهو مَنْ يقوم بفتح المحار؛ وينضم أخيراً إلى هذا الفريق ما يسمى (النهام) ويكون دوره القيام بالترفيه عن البحارة خلال أشهر الصيد سواء بالحكايات أو الأغاني أو قول الشعر .

ونستطيع القول إن صورة رحلة هؤلاء البحارة بعد التقدم العلمي الحديث قد تغيرت، وأصبحت عملية استخراج اللؤلؤ أسهل من السابق، وذلك بعدما تمّ اللجوء في عصرنا إلى ما سمي بزراعة اللؤلؤ، وتبدأ بتوفير بيئة لازمة وإدخال عناصر تساعد على استخراج اللؤلؤ بصورة أسرع، ويتم ذلك من خلال إدخال نواة مستديرة مع قطعة من النسيج إلى داخل أحشاء المحارة؛ وبعد هذا التطور تعتبر تجارة اللؤلؤ الأكثر رواجاً والمصدر المهم لدخل دولة الإمارات، وكشفت القطع الأثرية الإماراتية التي عُثر عليها في جزيرة السينية في أم القيوين أن في هذه الجزيرة تقع أقدم الأمكنة لمدينة صيد اللؤلؤ؛ ويعتبر زارع اللؤلؤ الإماراتي عبد الله السويدي صاحب أول مشروع لاستخراج اللؤلؤ في الشرق الأوسط وصاحب مزارع اللؤلؤ الأولى في الإمارات في إمارة رأس الخيمة، وتحديداً في منطقة الرمس، وتستند بشكل أساسي على تهيئة المحار بعد صيده من مياه البحر، واستخدام التقنيات العلمية في تخصيبه وإرجاعه إلى مياه البحر حتى بدء موسم الحصاد الذي يبدأ بأوقات محددة تبدأ في شهر أيار/ مايو حتى شهر إيلول / سبتمبر، والبداية الأخرى تكون في نيسان / إبريل وذلك بعد انتهاء فصل الشتاء، والطريف ذكره في هذا السياق أن أسعار اللؤلؤ الطبيعي في الإمارات تتغير مع اختلاف أنواعه وألوانه وذلك حسب لمعانه، فكلما ازداد لمعانه ارتفع سعره، وكذلك حسب لونه إذ إن اللون الأبيض يعتبر أكثر انتشاراً من ذاك الذي يميل إلى الاصفرار والذهبي والأزرق والبنفسجي. ويضاف إلى ذلك حجم حبة اللؤلؤ الذي كلما كانت حبته كبيرة غلا ثمنها وارتفع، وتعتبر حبة (الجيوان) التي تتميز بالاستدارة الكاملة هي الأجود بين حبات اللؤلؤ، وتليها حبة (إليكة) التي تكون أقل استدارة في المرتبة الثانية، ثم تأتي حبة (القولوه) التي تتميز بلونها الوردي بالمرتبة الثالثة، وأخيراً حبة (البدلة) التي تأتي بلونها الأزرق في المرتبة الرابعة. وحباً لهذه الدرر وتعظيماً لمكانتها

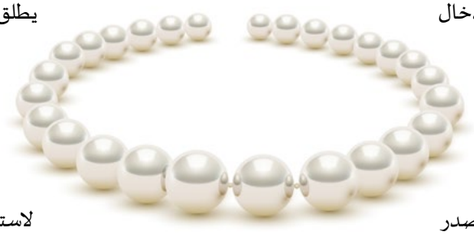

يطلق الإماراتيون أسماء هذه اللآلئ وأنواعها ومراحلها التكوينية على بناتهم وذلك بدئاً من (دانة) اسم أكبر اللآلئ ومروراً بموزة وحصة ولولوة وقماشة وإليكة والبدلة.. ويعتبر الغوص لاستخراج اللؤلؤ من البحر هو تراث محفوظ في دولة الإمارات العربية المتحدة حيث تضم المتاحف في الدولة العديد من القطع الأثرية الخاصة بالغطس لاستخراج اللؤلؤ الطبيعي. كما أن المتحف يحتوي على أهم وأكبر مجموعة من اللؤلؤ المستخرج في الإمارات وعموم الخليج العربي، والتي تبرع بها سليل الغواصين وصيادي اللؤلؤ في الإمارات العربية تكريماً منه لجميع غواصي اللؤلؤ في سائر الدولة الإماراتية، ويعتبر الشاعر الإماراتي سلطان بن علي العويس[3] من أبرز رجال الأعمال والتجار بحبات اللؤلؤ، وما يحسب له أنه قام بنقل هذه الدرر من بطن البحر إلى ربوع كثيرة خارج دولة الإمارات وداخل متاحفها وهو يعتبر إلى اليوم من أبرز المحسنين في تاريخ الإمارات، بعد أن تبرع بمئات الملايين من الدراهم لبناء أهم الدور، كالمستشفيات والمدارس والسدود في المناطق الشمالية في دولة الإمارات، وعلينا في سياق ذلك الإشارة والإشادة بالجائزة المحلية والعربية والعالمية التي أُطلقت باسمه وبفروعها الإبداعية المختلفة قبل رحيله في الرابع من يناير عام 2000 .. وإذا كانت الأساطير قالت عن حبات اللؤلؤ إنها ابنة المطر التي هبطت في المحار دمعة بيضاء، وإنها ابنة القمر التي ولدت أثناء اكتماله ليتسرب المحار إلى سطح البحر ويستولي على ندى ضوئه الفضي، فإن الأدب في الإمارات عنون الكتابات القصصية من أجلها (كلنا.. كلنا نحب البحر) وفي مطبوعة ثانية سماها (بحر لا يغيب أبداً)[4]، ومنذ فترة ليست بالطويلة قدمت

الكاتبة الإماراتية ميسون القاسمي روايتها الثانية (في فمي لؤلؤة) وقدمتها للقارئ وهي ملأى بتفاصيل الغوص والبحث عن اللؤلؤ المستحيل، واستغرقت منها ستمئة صفحة من القطع المتوسط ناهيك عن عديد المجموعات القصصية التي تركت مساحات واسعة من سردها لبحر هذا اللؤلؤ كالذي أوردته رائدة القصة الإماراتية شيخة الناخي في مجموعتها (الرحيل) والكاتب علي أبو الريش في مجموعته (ذات المخالب) وكذلك الكاتب إبراهيم مبارك في قصص مجموعته (خان)[5].. ولم يكن الغناء الشعبي والشعر في الإمارات بعيداً عن تناول ومقاربة هذا اللؤلؤ وبحره، فبالإضافة إلى أغاني الصيادين عن رحلتهم إلى دُرره الثمينة، يقدم الشاعر الإماراتي مانع سعيد العتيبة قصيدة طويلة اختار لها عنوان (المسيرة)[6] صوّر فيها بشكل تسجيلي مراحل رحلة الغوص والبحث عن اللؤلؤ من بدايتها التي تكون بتجهيز السفينة حتى انتهاء رحلة الغوص وعودة الغواصين مظفرين بوافر اللآلئ، بينما يمضي الشاعر سلطان خليفة إلى جهة أخرى يسأل من خلالها بحر هذه اللآلئ ومحاره إن كانا يعلمان ما بداخلهما من كنوز اللؤلؤ، ويمضي في قصيدته (شاطئ المحار) إليهما قائلاً:

أتيت أستفسر الشطآن عن صدف
حوى اللآلئ هل يدري خفاياه
هذي المحارة هل تدري بداخلها
كنزاً هو الكنز أغرانا بمرآه
ما أجمل اللؤلؤ المكنون إن نضدت
حباته فوق جيد عشت أهواه[7]

ويصف الشاعر الإماراتي خلفان بن مصبح رحلة الغوص في البحر بحثاً عن لآلئه وذلك من خلال مرافقته والده وعدد من أقربائه واصفاً روح المغامرة في رحلتهم البحرية هذه في أجواء عاصفة جاء في رسمه مشهدها عبر قصيدته (ركوب البحر):

(ليوم السبت من شوال قمنا
لأربع قد خلون وعشر تال
ركبنا اللجة الزرقاء نحدو
وفوضنا الأمور لذي الجلال
وسار الفلك يمخر في عباب
تقاذفه الجنوب مع الشمال
وهبت عند نصف الليل ريح
وهب الجمع يمسك بالحبال
وعصف الموج شتتنا فبتنا
كريش لا يقر على مجال)[8]

وإثر هذه الخطورة التي يتعرض لها الصيادون والتي تبلغ حد تهديد حياتهم، يتعاطف معهم الشاعر مبارك بن سيف ويسأل البحر ويلومه لماذا يُخفي حبات اللؤلؤ في أعماقه السحيقة ويهدد حياة الغائصين، مخاطباً إياه في قصيدته (سفن الغوص البائسة):

(ظالم أنت وجبار وقاسي
تزرع اللؤلؤ في الأعماق
كالصيد الدفين
وهي لا تعدو سراباً أو كمين
وترى الغواص منهوك القوى
يقتفي آثار درة
قد يُلاقيها إذا طال عناؤه
ويغني.. ويصفق
ويردد آهة النهام
في الليل الحزين..)[9]

ويتعاطف الشاعر محمد الفايز هو الآخر مع هؤلاء الغواصين،

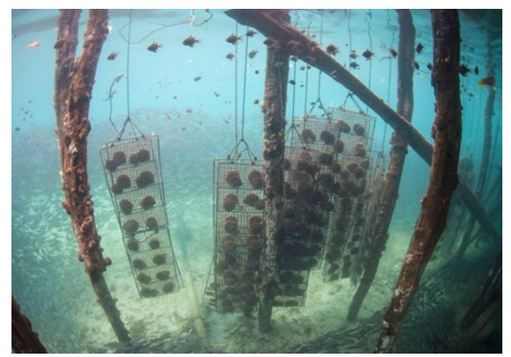

ويتقمص شخصيتهم من الداخل، ويتحدث بلسانهم ويجسد عوالمهم النفسية وما ينتابهم من هواجس وهم يعيشون في قلب المخاطر البحرية.. كل ذلك عبر عنه وقام بتدوينه فيما سماه (مذكرات بحار) وقال بالنيابة عن هذا البحار:

في الليل نسري إلى هاتيك البحار
أيام كنت أعيش في الأعماق.. أبحث عن محار
لقلادة.. لسوار حسناء ثربة
والربح والأسماك في القاع الرهيب
غرثى تطاردني بعالمها الرهيب
يا بحرُ.. يا قبراً بلا لحدٍ.. ويا دنيا عجيبة
أجتاز عالمها المخيف بروح بحار كئيبة
أبداً يغني للسواحل والعيال
يترقبون قدومه بعد المحال[10]

إن ما يمضي فيه الشاعر مبارك بن سيف، والشاعر محمد الفايز من تعاطف مع البحارين والغواصين ضد البحر ومخاطره، يتفق مع ما جاء في القصة الإماراتية القصيرة حيث قالت بطلة الكاتبة شيخة الناخي في مجموعتها (الرحيل): مَنْ يوقف هجوم البحر؟!.. وكذلك الحال يتفق الشاعر سالم بن علي العويس في قصيدته (الغوص واللؤلؤ) مع الكاتب علي أبو الريش فيما جسده هذا الأخير وجاء به في مجموعته (ذات المخالب) عن ظلم معلم الصيادين (النوخذة) للغواصين في رحلة البحث عن اللؤلؤ التي صمد فرسانها رغم كل ما فيها من تعب ومخاطر حتى باتت إلى اليوم الدرة التي انتقلت من أصداف البحر إلى أصداف اقتصاد الدولة المتحدة وأصداف متاحفها وأصداف الجوائز التي منحتها للنفائس الإبداعية المحلية والعربية أيضاً ■

* كاتب وأديب من سوريا

الهوامش والمراجع:

1. الغوص واللؤلؤ في الإمارات، جمعة خليفة أحمد، جمعية الإمارات للغوص، دبي، 2006م.
2. القرآن الكريم، سورة الرحمن: الآيات (19، 20، 21، 22، 23)، وسورة الواقعة: الآيات (22، 23).
3. الشاعر الإماراتي سلطان بن علي العويس، عمل بتجارة اللؤلؤ وأنفق العديد من ريعها في بناء المستشفيات والأمور الخدمية، وأسس جائزة ثقافية وأدبية باسمه منح فيها من ريع تجارة اللؤلؤ جوائز مادية للمتفوقين من أدباء الإمارات والدول العربية.
4. الإصدارات الأدبية التي جاءت على سيرة البحر واللؤلؤ رواية «في فمي لؤلؤة» لميسون القاسمي، وكلنا.. كلنا نحب البحر، وبحر لا يغيب أبداً، وهما إصداران لقصص مجموعة من أدباء وأديبات الإمارات.
5. مجموعة قصص «الرحيل» لشيخة الناخي، إصدار اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات، 1992م، ومجموعة قصص «ذات المخالب»، لعلي أبو الريش، دار شرقيات القاهرة 1984.ومجموعة قصص خان، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات 1999م.
6. المسيرة، شعر الدكتور مانع سعيد العتيبة، دار الفجر، ط 3، أبوظبي 1983م.
7. وحي الزهور، مجموعة الأزمنة الحديثة، سلطان خليفة، الإمارات العربية المتحدة 1979م، قصيدة شاطئ المحار، ص 20.
8. ديوان الجامح، شعر خلفان بن مصبح، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة 1995م.
9. سفن الغوص البائسة، مبارك بن سيف، مجلة الدوحة، قطر 1976م.
10. ديوان مذكرات بحار، شعر محمد الفايز، مؤسسة الرياض للطباعة العامة، الكويت، 1986م.

اللؤلؤ.. استدامة في الموروث الشعبي والثقافي

جمال مشاعل

امتد عصر اللؤلؤ لمئات وربما لآلاف السنين في مياه الخليج العربي، ولكنه انتهى نهاية دراماتيكية غير متوقعة، إذ بدأت تخبو صناعة اللؤلؤ تدريجياً منذ أوائل ثلاثينيات القرن الماضي حتى اختفت تماماً في الخمسينيات.

وبغضّ النظر عن معاناة العاملين والقائمين على مهنة الغوص إلا أن هذه الحقبة الطويلة التي اعتمد فيها أبناء الإمارات على الغوص وتجارة اللؤلؤ وصناعته لا يمكنها أن تُمحى من الذاكرة، ولذلك فإن عصر اللؤلؤ لا يزال ماثلاً في أذهان أبناء ذلك الجيل، إذ وثّقوه في كتاباتهم التاريخية والأدبية وما فيها من أشعاروحكايات.

بريق اللؤلؤ وعوالمه يضيء الشعر والذكريات

ولا تزال صدور أبناء ذلك الجيل تفيض حنيناً وهم يروون ذكرياتهم عن رحلات الغوص عن اللؤلؤ بما فيها من مآسٍ وبما يعترضها من مخاطر كثيرة وأفراح قليلة، وهاتيك الحياة كان الغوص عن اللؤلؤ سمتها الأساسية.

وفي كتب «ذاكرتهم تاريخنا» الصادرة من الأرشيف والمكتبة الوطنية يسطر الرواة ذكرياتهم في رحلات الغوص، ويتحدثون عن سوق اللؤلؤ وتجارته.

ويذكر أحد الرواة أن شاعراً من دبي وصف جمال إحدى السيدات فقال:

بـــو مبســـــم قمـــــاش الحدابـــي
يسنيـــــــك لو من دونـــه حيـــــاب

و«الحداب» مأخوذ من بيئة البحر؛ ففي مناطق صيد اللؤلؤ أماكن رملية تسمى الحداب وهي تشكيلة في تضاريس الأعماق تشبه الحدبة ويكون اللؤلؤ المستخرج منها صافياً، ومن الطبيعي أن يكون للؤلؤ وأسمائه وأدواته ومغاصاته حضور في الشعر، لأن الأشعار ترتبط بالبيئة، واللؤلؤ كان يسود معظم جوانب الحياة وفي مقدمتها الجانب الاقتصادي الذي يعتمد عليه.

وفي شعر «الونّة» المضمخ بالحزن يقول أحد الشعراء لابن نايع:

يالنـــايع ترى المـــايوع من كثر الونـــــين
بو ثنايـــا يلالـــن مثل حـــــب الشريـــن
لونهـــن لـــو نبـــات قـــدْ عليهـــن نـــوى

ومعناه أن الوجع الذي بك والأنين الذي يصدر منك سببه الشخص الذي فارقته، فهو يشبه أسنانها باللؤلؤ الشرين، والنبات هو الفحال في التمر الذي لم يستوِ بعد ولكن الناس تأكله وإن كان لونه غريباً.

والأشعار التي ذُكر فيها اللؤلؤ وأنواعه وأشكاله، وسبحت مخيلات الشعراء في عوالمه لا يمكن حصرها؛ إذ انعكست قيمة اللؤلؤ وجماله على اللغة العربية وثقافة الإمارات واستخدمت كلمة «اللؤلؤ» في الأمثال الشعبية، ومن الأمثال التي لا تُنسى «حصباه فيها دقة»، والحصباه اللؤلؤة الكبيرة ودقة أي ضربة أو خدش أو تشوه ناتج عن وجود نتوءات على سطح اللؤلؤة. فالدقة أو النتوءات تشوه اللؤلؤة الكبيرة، وتجعل ثمنها ضئيلاً، فلو لم يكن فيها هذا العيب لكانت اللؤلؤة ذات قيمة عالية، ويضرب هذا المثل للإنسان المحبوب من الجميع، وله قبول طيب في المجتمع، ومع هذا كله فإن فيه خصلة ذميمة تطغى على تلك الصفات الحميدة.

ولما كان الرواة يمثّلون نماذج من أبناء المجتمع، فإنهم حين يتحدثون عن الماضي فإنهم يمتدحون البحر الذي منحهم اللؤلؤ والسمك والأمل، وقد ارتبطت حياة بعضهم بالبحر حتى تقلّبوا في وظائف ومهام عديدة في فريق الغوص عن اللؤلؤ، وهم يؤكدون أهمية الغوص واللؤلؤ في إرساء قواعد الحياة وعماد اقتصادها.

وفي كتاب (ذكريات الإمارات) الصادر عن الأرشيف والمكتبة الوطنية، يقول الراوي فرج بن بطي المحيربي الذي ارتبطت حياته بالبحر: لقد ورد ذكر الغوص في القرآن الكريم؛ حيث قال تعالى في سورة «ص»: «كل بنّاء وغوّاص»؛ إذ أمر الله الجن أن يغوصوا لسيدنا سليمان بن داوود عليهما السلام ويحضروا له «اللؤلؤ المكنون» أي المخزون في الصدف، وفي سورة الرحمن ذكر الله اللؤلؤ فقال عز وجل: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان* فبأي آلاء ربكما تكذبان».

ويؤكد المحيربي أن للغوص تاريخاً عريقاً في منطقة الخليج العربي، إذ استمرت مهنة الغوص وتجارة اللؤلؤ منذ القدم إلى الحرب العالمية الثانية، ثم انهارت بعد أن قامت اليابان بزراعة اللؤلؤ، وأقبل الجميع على شراء اللؤلؤ الصناعي الأرخص ثمناً؛ فتأثرت أسواق الخليج لذلك كثيراً، وقبل هذه المرحلة كان الطلب على اللؤلؤ في تزايد مستمر.

لؤلؤ الخليج .. موروث لا يندثر

كانت دول الخليج تبيع اللؤلؤ وتصدره إلى دول كبرى كبريطانيا وفرنسا والهند وإيطاليا وسائر البلدان الأوروبية حيث تتحلّى به النساء.

وفي الجزء الأول من سلسلة (ذاكرتهم تاريخنا)، يقول خميس بن راشد الرميثي: في المرحلة التي تلت عملي كقبطان أصبحت شغوفاً بجمع معلومات عن اللؤلؤ، ومارست تجارته فأصبحت طواشاً متمرساً، ملماً بمسمياته وأوزانه، وأشكاله ومقاييس جماله، ثم تثمينه على هذا الأساس، وما زلت متعلقاً باللؤلؤ، ولذا أشارك في المعارض والفعاليات التراثية المختلفة لتعريف الباحثين والجيل القادم بالماضي وما اكتسبناه من خبرات الآباء والأجداد. وتناقل هذه المعارف والفعاليات التراثية المختلفة التي أشار إليها الرميثي من جيل إلى آخر هي من أشكال استدامة الموروث اللؤلؤي. وحرصاً على استدامة الموروث في مجال اللؤلؤ فقد تأسست جمعية الإمارات للغوص حيث كان السيد فرج المحيربي يبحر في مياه الخليج العربي بشكل دوري ومتواصل، وقد صارت للجمعية أنشطة تعريفية، تستقبل الباحثين من جميع أقطار العالم، وتؤكد الجمعية أن قاع البحر عامراً ومتوازناً ما يُطمئِنُ إلى استدامة الحياة البحرية.

اللؤلؤ.. واستدامته في أسماء الإنسان والمكان

ومن أشكال استدامة هذا الموروث في دولة الإمارات العربية المتحدة- تسمية الكثير من الأماكن بأسماء تشير إلى اللؤلؤ أيضاً، وذلك نظراً لأهميته ومنزلته في الماضي، وذلك مثل جزيرة اللؤلؤ في مدينة أبوظبي، ومارينا اللؤلؤ في مدينة دبي، وهي مشروع سكني فاخر، وجزيرة اللؤلؤة في مدينة رأس الخيمة وتتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة، وجزيرة اللؤلؤة الخضراء في إمارة أم القيوين، وتشتهر بمناظرها الطبيعية أيضاً، ومدينة اللؤلؤ في الشارقة وهي منطقة تاريخية فيها مجموعة من المباني التراثية.

وفي الوقت نفسه حملت الكثير من النساء أسماء اللؤلؤ كناية عن جمالهن، مثل: لولوة، دانة، شرينة، حصة، موزة، قماشة، وغيرها، وذلك تفاؤلاً بجمال تلك اللآلئ وقيمتها وفق مراحل عمرها ومقاساتها وبريقها.

أشكال أخرى لاستدامة موروث اللؤلؤ

ولا تدخر دولة الإمارات العربية المتحدة جهداً في سبيل تعزيز استدامة صناعة اللؤلؤ، من حيث إنشاء مزارع اللؤلؤ الطبيعي لتشجيع تكاثره، وتشجيع صناعة المجوهرات التقليدية من اللؤلؤ الطبيعي، وعلى صعيد آخر فإن هناك المعارض والفعاليات لعرض المجوهرات والصناعات اللؤلؤية الفريدة، والرياضات التراثية والرحلات البحرية الخاصة بالغوص، والأندية التراثية تدعم هذا التراث، وتعمل العديد من المؤسسات في الإمارات على تعزيز منزلة اللؤلؤ واستدامته، وإحياء تراثه وتطويره.

فاللؤلؤ وما يتطلبه من الغوص للحصول عليه، والصناعة التي توظف جماله وسحره، والتجارة التي تعود بالربح الوفير على العاملين في حقله، جعله يحظى بمكانة مهمة في تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة، وفي ثقافتها المعاصرة، حيث كان أساس الحركة الاقتصادية، ولذا فإنه لا يزال يحتفظ ببريقه الذي يشع في موروث الإمارات، وما يلاقيه اللؤلؤ من اهتمام جعله جزءاً حيوياً من التراث الثقافي والاجتماعي للبلاد، إذ يحمل قيماً تاريخية تمهد له الطريق إلى مكانه في الهوية الوطنية ■

* كاتب وصحفي مقيم في الإمارات

اللؤلؤ في السرديّات الشفاهية الإماراتية

محمد فاتح زغل

الإمارات هذا الوطن هو أرض عطاء، ودولة حكيمة، وناس طيبون بالفطرة، وثقافة أصيلة بالطبيعة، وحياة تسعى دوماً إلى الأخذ بأسباب الحداثة؛ لكنها الحداثة غير منبتّة الصلة بالماضي الذي صنعه وعاشه الأجداد، ثم اندرج في رحابه الآباء بكلّ معاناتهم، وجلّ تشوقاتهم وآمالهم لينسجوا حكاياتهم الرحبة التي كانوا بها ينظرون إلى الواقع، ويجسدون علاقاتهم به.

هذه الملاحقة الثقافية للموروث تضع بين أيدينا بعضاً من كنوز السرد الشّفاهي العميق فيما يخص اللؤلؤ ورحلةالغوص ومتاعبه والأحلام التي كانت تراود الغواصين في الحصول على رزقهم ورزق عيالهم، هذه السرود هي التي كانت تصوغ الوجدان الجمعي لأهل هذا الوطن في زمانهم القديم، من أجل أن يعود إليه الأبناء والأحفاد بثقة ليعرفوا كيف كان الأجداد يعيشون على هذه الأرض، وكيف كانت معاناتهم وتفكيرهم الذي تجسده حكاياتهم ومروياتهم. وسواء أكانت هذه الحكايات خرافية، أم تدور حول أبطال شعبيين، أم التي يمكن إدراجها فيما يسمى «التاريخ الشّفاهي» وتؤدي أدواراً مهمة وعضوية كالسرد عن اللؤلؤ حيث قال محمد السويدي: «اللآلئ مذكورة في أشعارنا وكتبنا وحتى في أسماء بناتنا».

سرود كثيرة سجلتها الذاكرة الشفوية عن الغوص والسعي وراء اللؤلؤ، وقد أصدرت دائرة الثقافة والسياحة في أبوظبي في خمسة مجلدات مجموعة من حكايا السرد الشفاهي في الإمارات من إعداد أحمد راشد ثاني ومن كتابه «زمان يضرب زمان - مفردات الحكاية في الإمارات» نتوقف هنا عند حكاية بعنوان: «عروس البحر وكنز اللؤلؤ». تقول الحكاية: (أنّ راشداً نوخذة مرّ بضائقة، فقرّر الذّهاب في رحلة غوص إلى البحر العود المرعب مع «أبو سعود»، وهو نوخذة مفتون بالبحث عن كنز اللؤلؤ الذي «حكى عن أسراره أهلنا الكبار .. وعرفنا أخباره عندما كنا صغاراً». ورغم صدمة زوجته حصّة وأبنائه الصّغار (ماجد وعبّود وحمدة) بهذا الخبر المفاجئ فإن راشداً سافر في رحلة الغوص تلك فهو شجاع يركب الأهوال ودائماً مع المصائب في صراع ونزال، ضمت الرحلة ثلاثة غواصين (من بينهم راشد) والنوخذة أبو سعود. ولقد تعرضوا لعاصفة في الطريق مما اضطرّهم إلى إصلاح السفينة.

ثم واصلوا رحلتهم حتى دخلوا البحر الكبير ولكنهم ظلّوا سبعة أيام يغوصون دون أن يصلوا إلى شيء ما أثار غضب النوخذة «أبو سعود»، فشعر الغواصون الثلاثة بالخجل من توبيخ النوخذة، وقفزوا جميعاً إلى حضن البحر، وبعد قليل وعندما صعد راشد إلى سطح البحر لاستنشاق شيء من الهواء فوجئ بزملائه يهرعون نحو السفينة وهم يصيحون من الرعب:

• لقد رأينا شيطان السمك!

وما إن سمع راشد ما يردده أصحابه حتى تبعهم إلى سطح السفينة ليعرف الخبر .

• قال أحدهم وهو يرتجف هلعاً:

• لن نعود إلى البحر ثانية.. إن هذا المكان مملوء بالعفاريت والجان.. لقد رأينا وشاهدنا بأعيننا الشيطان بشحمه ولحمه.. له وجه امرأة قبيحة وجسم سمكة .. لن أعود إلى الغوص ثانية ولو أعطيتموني خزائن الأرض.

عندما سمع راشد ذلك أخذ سكيناً حاداً وغاص إلى المكان الذي كان يشير إليه أصحابه، وهناك في بطن اليمّ المظلم ... شاهدها سمكة شحيمة ضخمة لها وجه إنسان، تجلس على صخرة عاتية، وعند ذيلها محارة ضخمة.. وبدأ الصراع - هو يحاول ضربها بسكينه وهي تبتعد لتلطمه بذيلها الطويل .. ودام الصراع فترة ليست بالقصيرة وفجأة انقض عليها راشد وأغمد خنجره لنصله في بطنها فماتت. عند ذلك صعد إلى سطح البحر ليستنشق الهواء فشاهده كل مَنْ بالسفينة وكبروا فطلب إعطاءه حبلاً فقذفوا إليه بالحبل، فغاص ثانية وربط المحارة بالحبل من جوانبها وبدأ الجميع في جذب الحبل بعد أن أعطاهم الإشارة، وما إن جذبوا المحارة إلى سطح السفينة، وتعاونوا في جذب راشد حتى أمر النوخذة بحارته بكسر الصدفة ... ويا لدهشة الجميع فقد تناثرت من داخلها مئات الحبات من اللؤلؤ الكبير النادر). (حكايات من الإمارات من ص 64 إلى ص 72) ومن السرديات الشفاهية حول اللؤلؤ قول محمد السويدي: «لقد أصبح من المعتاد بالنسبة إلى العائلات الأكثر ثراءً أن تمنح عائلة النوخذة قرضاً مقدماً ببعض الروبية والأرز في بداية كل موسم لصيد اللؤلؤ». ويستخدم النوخذة الأموال في تجهيز قواربهم وتنفيذ أعمال الصيانة وشراء الإمدادات لطاقمهم. في المقابل، كانوا يعرضون على ممولهم اللآلئ التي عثروا عليها عند عودتهم. هذه هي الطريقة التي بدأ بها نظامنا المصرفي، إلى جانب المقايضة». ومن السرديات الشفاهية يقول موسى القبيسي، الذي كان غواصاً للؤلؤ في الأربعينيات: «كلما كان لدينا تجمع عائلي، كنت ألعب بالمندوس وهو صندوق خشبي تستخدمه العرائس، حيث يحتفظ جدي باللآلئ داخله». وكنت أراه جالساً في البيت محاطاً بأدواته وهو مشغول بفتح المحار.

ومن السرديات الشفاهية عن اللؤلؤ تحدّث فرج بن بطي المحيربي، الذي ارتبط بالبحر منذ كان صبياً صغيراً وعمل في سفينةٍ للغوص، إلى أن أصبح قبطاناً، وقد كلّفه المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - برئاسة «جمعية الإمارات للغوص»، عقب أن أمر بإنشائها للحفاظ على الموروث البحري للدولة، ويؤمن فرج بن بطي المحيربي «بأن المحار إذا كان في صحة جيدة، فإن البحر في حالة جيدة، وينعكس هذا الأمر علينا جميعاً». وعن بدايته في الغوص يقول المحيربي في شهادته التي تم توثيقها في كتاب «ذكريات الإمارات» الصادر عن «الأرشيف الوطني»: «بدأت مزاولة الغوص وأنا في السابعة من عمري، وعملت (فلّيّح)، فكانوا يضعوننا في مجموعات تضم كل مجموعة من 10 إلى 16 شخصاً، وكانت مهمتنا أن نفتح المحار ونخرج اللؤلؤ. وفي المرحلة التالية عملنا (سيوب) نخرج الغواصين من أعماق البحر برفعهم إلى سطح الماء. وبعد مرحلة السّيب، نصبح غواصين، وهذه المرحلة، بلا أدنى شك، من أشد درجات الخطر

حيث الغوص في قاع البحروأعماقه»، مشيراً إلى أن يوم الغواص والعاملين على ظهر السفينة يبدأ في السابعة صباحاً حتى الساعة السابعة مساءً، وبينما يكون الغواص في قاع البحر يكون (السيب) واقفاً على السفينة، وبيده حبلين لرفع الغواصين من قاع البحر. ويحبس الغواص أنفاسه وهو في قاع البحر، وعندما يخرج يكاد وجهه ينفجر من ضغط الماء، فتخرج من فمه عبارة «ياالله يا رب العالمين، يا بخت الضيف بعشاه، يا بخت الدّيان بوفاه»، يقولون ذلك لأنه لم يكن لهم ما يشغل فكرهم ويجلب لهم الهم سوى الدّين، فهم لا يحبون أن يكون عليهم دَين أو ما يعكر صفو الحياة الكريمة، ويعرضهم للذل والمهانة. تبذل دولة الإمارات العربية المتحدة جهوداً متواصلة لصون موروثها الثقافي والتاريخي، باعتباره جزءاً أصيلاً من الهوية الوطنية، ويأتي في قلب هذا الإرث الغني توثيق كل ما تضمنته الذاكرة الشعبية من سرود وحكايا عن اللؤلؤ ومهنة الغوص، التي مارسها الأجداد على مدار عقود طويلة، حتى باتت جزءاً مهماً من التاريخ الإماراتي، كونها شكّلت مصدر الرزق وشريان الحياة الاقتصادي قبل اكتشاف النفط. وقد صدرت العديد من الكتب التي توثق لهذه المهنة الشاقة فقد أصدر نادي تراث الإمارات ومركز زايد للدراسات والبحوث العديد من الكتب منها كتاب «ملامح من تاريخ اللؤلؤ»، وكتاب «جوانب من التراث البحري» لعلي إبراهيم الدرورة، وكتاب «البحر في تراث دولة الإمارات» لشمسة حمد العبد الظاهري، وكتاب «الغوص» لهيئة أبوظبي للثقافة والسياحة، ومجموعة كتب «حصاة الصبر» لأحمد راشد ثاني، وفيها الحكايات الشعبية المسرودة من التراث الشفاهي الإماراتي، وكتاب «أبوظبي واللؤلؤ قصة لها تاريخ» عن مركز الحصن للدراسات والبحوث في أبوظبي للدكتورة فاطمة سهيل محمد المهيري، وكتاب «أسفار في علم البحار» تأليف النوخذة علي عبد الميرزا الصادر عن معهد الشارقة للتراث، كما أصدر المركز الوطني للوثائق والبحوث كتاباً باللغتين العربية والإنجليزية، بعنوان «ذكريات الإمارات من خلال السرد الشفاهي» عن ثلاثة عقود بدأت من الخمسينيات من القرن الماضي، وهناك العديد من الإصدارات لا يتسع لها المقام. وترصد هذه الكتب عبر السرد الشفاهي مرحلة مفصلية في تاريخ الإمارات مصوراً واقع الحال الذي كانت عليه البلاد قبل حكم المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وقبل قيام الاتحاد موثّقة بالصور الفريدة والنادرة ■

* باحث وأكاديمي بالتراث

إن اللؤلؤ عيون

لولوة المنصوري

عُزلة أخرى (فردية) في المُنتَأى القاعي، يختلي فيها الغواص للحظات في مياه الهيرات، خلوة صراعية يُقطع فيها النَفَس قسراً، يَغيب الزمن رغم حضور الحدث العنيف، حضور قوي للعيون، عين الغواص وعين اللؤلؤة، (إن اللؤلؤ عيون) كما يقول المصور الفوتوغرافي البحريني عبد الله الخان. والقلب إشارة الرّوح، الجزء الدّال على المحار.

ويبدأ الصراع / العقدة مع بدء انقطاع النّفس، وحده الغواص من يدرك سرّ التنفس وطقس احتباسه في الرئة، ذلك الممر الهوائي المستتر في الجسد، لا يمكن للماء أن يتهادن طويلاً مع شراع الرئة المفتوحة، لابد من إغلاق الممروعزل الرئة، وهنا تكون رئة الغواص هي الأخرى في حالة عزل جبريّ مؤلم عن أهم مُكوّن وجوديّ جوهري.. الهواء.

كل تلك العُزلات تحدث لأجل التقاط كائن منعزل آخر (المحار)، مجرّة منعزلة عميقة في هباء البحر، عزلة منشطرة أيضاً، (جماعية) في حقل مرجاني، و(فردية) ملتصقة بالرمال. كائن في جوفه كينونة أخرى منعزلة، جسم مُهيّج صلب كحبة رمل أو حيوان طفيليّ، لمعان وحيد يستدير بين الصدفة والعباءة، ملتصقاً بالجدار الداخلي لرحم المحارة، رونق خفيّ في كامل بهاء العُزلة. إنها (اللؤلؤة) .. أأقول شيئاً من قبيل المجاز التقريبي؟ لعلها بقايا كواكب متحجرة منذ أزمنة الانفجار، تستدير في البحار بهناءة داخل مجرّة محاربة، والدوران رمز أزليّ / تشكُّليّ / تنسُّكيّ ذاهب في اللانهايات.

وبالانتقال في هذه السلسلة إلى (عزلة اللؤلؤة).. تلمع الروح داخل الروح، بمسار أفعواني موازٍ لـ (روح المحار.. روح الغواص.. روح السفينة، روح البحر العميق، روح الكواكب... ولن أغلق القوس هنا... .

ألم أقل أنها سلالة من الفواصل اللا نهائية في العُزلات؟

إنها حياة مهددة على السطح وذُعرٌ آخر في الأعماق.. كلٌ في وحدته، في عزلته النفسية الخاصة عبر رحلة الآلام: الغواص، البحر، الهير، المحار، اللؤلؤة، الزمن، والنساء المنتظرات على الساحل.. وحدة في جوف وحدة عظمى. حتى ذلك النّهام، يشدو بين الحلم واليقظة في جوف عزلة عميقة داخل حنجرته، يغوص في أعماق صوته، تأمل موسيقي يهيّجه الفقد والخوف من المجهول مهما تنوعت نبرة النّهمة وإيقاع الحماسة، يظل الحزن سيّد البحارة والمراكب والغناء.

إن اللؤلؤ عيوننا المفتوحة في الماء، اللؤلؤ قمرُ البحر، بناتُ البحر، أو لعله البحرُ نفسه، بحرٌ من التمنيات والحكايات والقصص والأخطاروهموم الرجال، إن اللؤلؤ كوكب صغير يخفي في جنباته الموت.. ويخفي الحياة، سيّد الأحجار الكريمة وعميد الحسن والجمال والأساطير والبحار المسحورة، إن اللؤلؤ الدرب الأول لطريق الحرير، وزهرة الخلود في بحث جلجامش عن الأبد، هو الخليج العربي المُطلق منذ أزمنة التصدّع القاري والتكوين، هو سيرتنا الأولى التي أمطرتْ لؤلؤاً.. سيرة العزلة اللؤلؤية الروحانية... صلاتنا في الماء ■

* روائية وباحثة من الإمارات

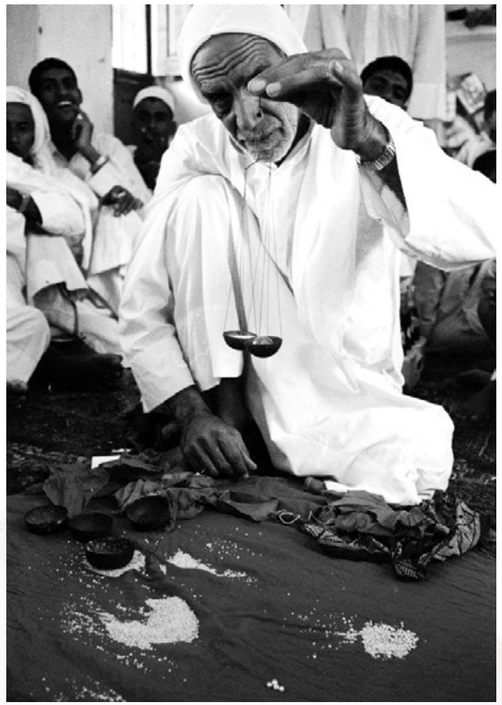

الكتب تحفظ بريق اللؤلؤ وتقاليد استخراجه في دولة الإمارات

عبير علي

يتجاوز اللؤلؤ استدارته وجماله الساحر، كواحد من الأحجار الكريمة المستخدمة في صناعة المجوهرات، ليكشف عن تاريخ وتراث وحكايات إماراتية ممزوجة بالحنين وإيقاع أناشيد «النهامين» الذين كانوا يشدون أثناء رحلات الصيد التي قد تصل إلى أشهر عدة، بحثاً عن اللؤلؤ في قاع الخليج، حيث كان استخراج اللؤلؤ واحداً من الحرف التي مارسها الإماراتيون وكانت تجارة اللؤلؤ مصدراً رئيسياً للدخل في الدولة، قبل أن يبدأ اليابانيون بزراعة اللؤلؤ ويضاربون بأسعاره الأسواق العالمية. وهكذا بقي اللؤلؤ ذاكرة حاضرة في المجتمع الإماراتي تتناقله الروايات الشفاهية كما يتجلى في المجتمع بطرق مختلفة حيث سمّى الناس بناتهم على أسماء اللآلئ المستخرجة مثل «لولوة، وحصة وحصباء، وموزة» وغيرها من أسماء تدل على أنواع اللآلئ وعلى شكل استدارتها وصفائها.

كما حفظت العديد من الكتب الصادرة في الدولة بريق اللؤلؤ، واستعرضت بين دفتيها تقاليد استخراجه من الغوص إلى المخاطر التي واجهت الباحثين عنه وهم على سطح السفن أو في قاع الخليج، إلى أنواعه وبيعه في الأسواق، وكل تفصيل يخص اللؤلؤ الذي ما زال مضيئاً في تاريخ الإمارات وحاضرها.

جزيرة اللؤلؤ

اختار المؤلف خالد بن عيد بن محمد بن جاسم المريخي لكتابه عنوان «جزيرة دلما والغوص على اللؤلؤ في الوثائق البريطانية» وفيه واصل تقديم تجربته كباحث مهتم بالدراسات التوثيقية والاقتصادية الإماراتية. وبيّن من خلال 310 صفحات أن ظهور اسم جزيرة دلما في المراسلات البريطانية كان في عام 1816. وذلك عندما زارها الكابتن البحري البريطاني جيمس آشلي مود، بواسطة السفينة البحرية «فيفوريت» وشملت رحلته البحرية سبع جزر أخرى، إلى جانب جزيرة دلما وتقع تلك الجزر قبالة سواحل أبوظبي، ومنذ ذلك الحين دخلت دلما دائرة اهتمام بريطانيا مع بقية الجزر والسواحل العربية.

ويشير المريخي إلى أن جزيرة دلما قد استمدت بريقها من اللؤلؤ المستخرج من أعماق شواطئها والمغاصات القريبة منها، إذ كان يقصدها تجار من كل صوب خلال المواسم، فتقام الأسواق، وتُعقد الصفقات على ساحل الجزيرة، الذي كان يزدحم مقارنة ببقية أوقات العام، بسبب قدوم السفن ونواخذتها والطواويش وصيادي اللؤلؤ والغواصين من إمارة أبوظبي وغيرها من الإمارات المتصالحة، وكذلك تجار اللؤلؤ الذين كانوا يأتون إليها من مناطق بعيدة وخاصة من الهند بحثاً عن اللؤلؤ، الذي كان يعتبر من أهم مصادر الدخل وسلعة رئيسية في تجارة منطقة الخليج العربي.

وإلى جانب سرده ملامح عن جزيرة دلما وسكانها، خصص المؤلف مساحة كبيرة عن اللؤلؤ، وحكاياته، وارتباط الجزيرة به،

باعتبار أن شواطئ دلما قد احتضنت أجود المحار وأندر اللآلئ، فشريط المياه الضحلة الذي يحيط بالجزيرة، الذي يتميز بدفئه وملوحته العالية وفرّ بيئة مناسبة لنمو نوع معين من المحار البحري الفريد، الذي يعرف في عالم التجارة باسم «أم اللؤلؤ» وهو محار يتطلب فترة نمو طويلة قد تصل إلى أربعة أعوام، وتتميز أصدافه بقيمتها التجارية العالية، باعتبار أنها المادة الخام الرئيسية التي تدخل في صناعة مقابض السيوف والخناجر، والأزرار وأمشاط الشعر وتطعيم الأعمال الفنية، وقد أهّلت هذه العوامل كلها دلما لتتبوأ مكانتها بجدارة على قمة مصايد اللؤلؤ للسواحل الجنوبية للخليج العربي والاتجار فيه على حد سواء.

ويتناول خالد المريخي في هذا الكتاب الزمن الذهبي الذي تألقت فيه جزيرة دلما، عندما كانت تتحول إلى خلية نحل، يتوافد إليها التجار وتمتلئ مغاصاتها بالغواصين والنواخذة، من أجل الفوز

باللؤلؤ، ويعدد السفن التي كانت تحط على سواحل دلما أيضاً، وأسماء الطواويش والنواخذة، وأشهر محامل دلما أيام الغوص، وكذلك محكمة اللؤلؤ، التي كانت تنظر في القضايا والمنازعات التي لا يتم التوصل إلى حل لها في المساجد.

بينما يتحدث جمعة خليفة أحمد بن ثالث الحميري في كتاب «الغوص واللؤلؤ في دولة الإمارات العربية المتحدة» عبر 142 صفحة عن التراث التقليدي لصيد اللؤلؤ في منطقة الخليج، ويرصد أهم الملامح التي مرت بها صناعة اللؤلؤ، ويسلط الضوء على مرحلة مهمة من تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة والمنطقة بشكل عام. واعتمد الحميري في كتابه على عدد من المقابلات واللقاءات المدعومة بمجموعة من الصور النادرة مع قدامى الغواصين وصيادي اللؤلؤ من مواطني دولة الإمارات، الذين تحدثوا حول تجاربهم في الغوص واستخراج اللؤلؤ من مياه الخليج.

إحياء التراث

استعرض مصطفى عزت هبرة في الجزء الثاني من «موسوعة الغوص واللؤلؤ» أساليب الغوص والحصول على اللؤلؤ في مجتمع الإمارات والخليج العربي قبل النفط، وعن حالات ومراحل ودوائر وأسواق هذه التجارة. وأبرز رجالاتها في الإمارات والخليج العربي، وأظهر مراحل تطور صيد اللؤلؤ في الإمارات والعقبات التي كانت تصادف العاملين في هذا المجال. وتحدث عن أنواع وأصناف وخصائص اللؤلؤ المستنبت الأبيض، والأسود، والملون. وعن أنواع وأصناف وخصائص اللؤلؤ المصنع مخبرياً أي الصناعي المقلد وعن أسباب اندثار ممالك الغوص واللؤلؤ. كما تطرق إلى الجهود المبذولة لإحياء تراث الغوص في الإمارات عبر «رحلات الغوص الحديثة». وتناول الهبرة في كتابه تقاليد صيد اللؤلؤ، مستحضراً الأغاني والنهمات والألغاز والأمثال الشعبية في زمن الغوص، كما أظهر التطور التاريخي لأدوات رياضة الغوص الحديثة ومعداتها، وفوائد هذه الرياضة في دولة الإمارات ومراكزها. ولم يغفل المؤلف عن الكثير من التفاصيل، من دور سفينة الطواش في عملية تموين السفن، ونقل رسائل البحارة إلى ذويهم، إلى طرق بيع اللؤلؤ على متن السفينة، وتحدّث عن أدوات الطواش أيضاً، وعن أهم الطواشين وأشرهم، وأبرز تجار اللؤلؤ الإماراتيين. وتناول عقبات تجارة اللؤلؤ في الإمارات. وسرد مصاعب الغوص لصيد اللؤلؤ ومخاطره في مرحلة ما قبل النفط، بدءاً من مصاعب الحياة على متن سفينة الغوص، مروراً بأمراض رحلة الغوص وكيفية معالجتها. إلى جانب المخاطر المجهولة التي تقبع في أعماق الخليج والتي كانت تودي بحياة الغواص في بعض الأحيان، مثل مخاطر أسماك القرش، وثعبان البحر، وغيرها من المخلوقات البحرية، إلى جانب خطر حبال الغواص، وخطأ السيب، والأمراض المعدية، ومخاطر الصراعات التي كانت تحدث داخلياً بسبب عائدات اللؤلؤ، وصراعات الغزاة الأجانب الطامعين بتلك الثروة.

كما بيّن هبرة فوائد الغوص لصيد اللؤلؤ ومنافعه، اقتصادياً، وقانونياً، واجتماعياً، وفكرياً، وثقافياً، وسياسياً، وتحدث عن خصائص مجتمع الخليج العربي ومزاياه في زمن الغوص لصيد اللؤلؤ. وناقش بطريقة علمية كيفية تكوّن اللؤلؤ داخل المحار

في حالتي اللؤلؤ الطبيعي، واللؤلؤ المستنبت، ثم يقارن بين حبات اللؤلؤ الناجمة عن الحالتين. ولم يغفل عن تخصيص صفحات في الكتاب للأغاني والنهمات الشعبية. ويذكر الكاتب في صفحات كتابه أسباب اندثار مملكة الغوص لصيد اللؤلؤ وانهيارها، والتي يعرض فيها لأسباب عدة، منها: اكتشاف البترول، واكتشاف اللؤلؤ الصناعي المستنبت.

وطن اللؤلؤ

«لآلئ العمر» هو عنوان لكتاب من تأليف حسن إبراهيم الفردان، الذي ذكر في مقدمته «بالنسبة لتجارة اللؤلؤ وأسرارها ورجالها وأدواتها، فقد كنا نتعرف عليها في هذه المجالس وفي خارجها وحين كنا نصحب آباءنا إلى البحر، كنا نرى هناك ملحمة آبائنا وأجدادنا مع الطبيعة»، وتحدّث الفردان في كتابه عن قصص واقعية في تجاربه مع صيد اللؤلؤ وتجارته، وعرّف بعدد من المشتغلين في هذه الحرفة التي وصفها بالجميلة، والذين كانوا يتخذون من منطقة «الراس» في بر دبي مكاناً لصناعتهم، إلى جانب عوائل أخرى في إمارات الدولة وتحدّث بالتفصيل عن رحلات الصيد، ومغاصات اللؤلؤ «الهيرات» التي كانت تقصدها السفن الإماراتية. كما وضع في كتابه العديد من الصور لنواخذة وسفن، وخصص الصفحات الأخيرة لصور كثيرة تبيّن أنواع اللؤلؤ منها لآلئ «تمبول» ولآلئ «سُنجي» و«مشبوحة» و«باروك السوداء» وغيرها من اللآلئ. أما خالد الصايغ فقد ألف كتاباً بعنوان «لؤلؤ وطواويش الخليج» وتناول الصايغ تاريخ جزيرة دلما، وأكد أنه ليس هناك بلد في العالم لديه جزيرة خاصة باللؤلؤ سوى الإمارات، وذكر في كتابه أن «الإمارات وطن اللؤلؤ» في الخليج والعالم ■

*كاتبة سورية

اللؤلؤ في الإمارات.. عصب الاقتصاد وقصص محفوفة بالمخاطر

فاطمة المزروعي

اعتبرت مهنة الغوص وصيد اللؤلؤ إحدى أقدم المهن التي اعتمد عليها سكان منطقة الخليج العربي، وهذا ما يؤكده التاريخ لنا، وما ورد في وثائق الرحالة والمعتمدين السياسيين الأجانب الذين توافدوا على المنطقة، لقد اعتمد سكان المنطقة اعتماداً كلياً، في ظل توافر أماكن صيد كبيرة في مياه الخليج قبل اكتشاف النفط، لقد بقي اللؤلؤ حتى ثلاثينيات القرن الماضي مصدراً للدخل الرئيسي لشعوب المنطقة، فصدّروه إلى بلاد الرافدين والهند وفارس وأوروبا لأن جودته وقيمته العالية جعلته ثميناً، لقد لعبت مغاصات اللؤلؤ الموجودة في مياه الخليج دوراً كبيراً في حياة سكانه الاقتصادية، لأن مهنتهم كانت الغوص على اللؤلؤ واستخراجه وتسويقه وبيعه.

ولكن موضوع تجارة اللؤلؤ في المنطقة أخذ بُعداً تجارياً مختلفاً وخاصة بعد وصول البرتغاليين للخليج العربي عبر مضيق هرمز واحتلالهم مناطق منه، كما أصبح منظماً في مراحل متأخرة من القرن الـ 19، إن اكتشاف رأس الرجاء الصالح عام 1498م المؤدي إلى المحيط الهندي، وانهيار الطريق البرية إضافة إلى وصول السفن الحديثة أيام الحماية البريطانية للخليج العربي عبر خليج عُمان، كل هذا سمح بوصول ما تنتجه دول الخليج من اللآلئ من جنوب آسيا وشرق أفريقيا ليصل إلى أوروبا.

وهكذا أخذت تجارة اللؤلؤ مع الوقت تأخذ بُعداً اقتصادياً عالمياً، انطلق منها ليكون حاضراً في الاتفاقيات والمعاهدات والقوانين الخاصة بالتجارة البحرية المتعلقة بالحركة داخل منطقة الخليج العربي وخارجها والتي لعبت دوراً حيوياً لا يستهان به على الصُعُد كلها. وتطل دولة الإمارات العربية المتحدة على ساحلين مهمين يربطانها بالعالم هما ساحل الخليج العربي وساحل بحر عُمان، وكلا الساحلين يؤديان إلى الطرق البحرية التي تربط الإمارات بالهند من جهة، ومن جهة أخرى بالعالم كله تقريباً، ومن أبرز المناطق التي تعاملت معها الإمارات الهند، وزنجبار، وممباسا، والصومال، وعدن، وجزيرة سوقطرة وغيرها، لقد وصف الرحالة البرتغالي (دورات باربوسا) جلفار في كتابه (The Book of Duarte Barbosa) بقوله هي (مكان كبير جداً فيها العديد من الناس والأعيان والملاحين الذين كانوا يعملون في صيد اللآلئ الصغيرة والعديد من اللآلئ الكبيرة التي كان تجار هرمز يقصدونها لشرائها. ويسمي أهل الإمارات وباقي دول الخليج مغاصات اللؤلؤ وأماكن صيدها (هيرات) ومفردها (هير) وقد تم تحديد مواقع (الهيرات) قديماً قرب جزر دلما وداس وصير بني ياس وصير بونعير والسعديات وزركوه وأم الشيف وغناضة، إضافة إلى جزيرة أبو موسى والمزاحمي وحصيان وأبو البخوش وأبو البزم وجزيرة زغاب أو زعاب (الجزيرة الحمراء) والمناطق المجاورة لساحل رؤوس الجبال في إمارة رأس الخيمة.

لقد ذكر الدكتور فالح حنظل في كتابه (معجم الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي) بعض أسماء المغاصات في أبوظبي ومنها (إرداع) (أبو الجراوة) وسميت كذلك لأن الغواصين يزعمون أنهم يسمعون نباح جراء الكلاب فيها،وأبو الخصافة، وأم الصناجل، وهي تقع بالقرب من جزيرة دلما وهناك مغاصات الياسات أو ياس المحاربة وأم الطهوف أيضاً. وهناك أيضا هير (أبو الحنين) وهو من أشهر مغاصات اللؤلؤ التي كانت تقصدها سفن الغوص الإماراتية، فلؤلؤ ذلك الهير عالي الجودة مثل (الجيّون) و(الحصابي) ولعل أبرز ما اشتهر به هير أبو الحنين هو اسمه الذي كان يثير خوف بعض الغواصين والذي جاء من صوت يسمى الحنين أو الحثة، كان الغواص يسمعه بوضوح في قاع الهير وكان بعضهم يقولون إنه صوت الجن الموجود هناك لهذا كان معظم

الناس يتجنبون (أبو الحنين). وقد اكتشف هير (أم الشيف) أحد غواصي آل بو فلاسا الذين كانوا يرتادونه ويغوصون فيه كل عام حتى قرروا زرع نخلة في دبي سموها أم الشيف تكريماً لذلك الهير الذي كان يمدهم بالعطاء الجزيل من اللؤلؤ. ومن أهم أماكن الغوص على اللؤلؤ (أم السلسول) التي تقع إلى الغرب من خط الطول 52 شرقاً بين خطي العرض الشمالي 24و 25 وهي قريبة من ساحل أبوظبي وخور العديد، وهناك أسماء لهيرات أخرى .

إن الاستقرار الذي شهدته إمارة أبوظبي في عهد الشيخ زايد الأول قد أنعش الحياة الاقتصادية وخاصة تجارة اللؤلؤ الذي كانت له سوق رائجة ورابحة في عواصم أوروبا والهند، وتم توجيه اهتمام خاص بجزيرة دلما، إحدى جزر الإمارة التي كان يذهب إليها (الطواويش) أي تجار اللؤلؤ وتجتمع فيها سفن الغوص فتغدو سوقاً من أكبر أسواق اللؤلؤ في الخليج، ونتيجة لذلك أصبح لأبوظبي من مراكب الغوص وسفن صيد الأسماك أكثر مما تملكه أي إمارة أخرى، لقد كانت جزيرة دلما تقع في الشمال الغربي وكانت مركز الغوص أيام ازدهار اللؤلؤ، وهي جزيرة بيضاوية الشكل تظهر في جوانبها الشرقية والشمالية تلال صخرية، أرضها خصبة بسبب المياه الجوفية الموجودة فيها، وقد سُئل أحد ربابنة السفن لماذا ترسو بسفينتك عند الجزيرة فيرد بالقول: إنني أحتاج إلى (دلو) ماء فأخذت العبارة تتكرر كلما توقفت السفن عندها ومع مرور الوقت تطورت كلمة (دلو) فأصبحت دلما. كما أشار بالبي جاسبارو إلى منطقة باسم (دالي) أي دلما وقال إنها كانت من ضمن مواقع صيد اللؤلؤ عام 1590م.

لقد كانت دلما تعتبر المركز الأساسي البحري لصيد اللؤلؤ فقد ذكرت الوثائق والمصادر أنها كانت تقوم فيها بانتظام أسواق لبائعي اللؤلؤ الذين جاؤوا من الهند في ذلك الموسم، كما أكدت الآثار التي تم العثور عليها في دلما أنها أهلت بالسكان منذ الألف الرابع أو الخامس قبل الميلاد، وأكد الوكيل المعتمد البريطاني في الشارقة عام 1906م ذلك أيضاً، فكتب (تكون جزيرة دلما مأهولة بالسكان بصورة مكثفة أثناء مواسم جمع اللؤلؤ، بينما ذكر لوريمر أنه كانت هناك 15 أسرة من بطن القبيسات من بني ياس كانت تسكن في منطقة سكنية صغيرة تقع على الطرف الجنوبي المستدق للجزيرة أي في السهول الساحلية باتجاه الطرف الغربي منها، وفي عام 1936 كتب المعتمد البريطاني في أبوظبي: "يقيم في جزيرة دلما بعض الناس من القبيسات والمزاريع والمحاربة والمريخات. ومع تطور الحياة لعبت الجزيرة دوراً مهماً كمركز تجاري ومحطة انطلاق للتجار العابرين والمقيمين على أرضها

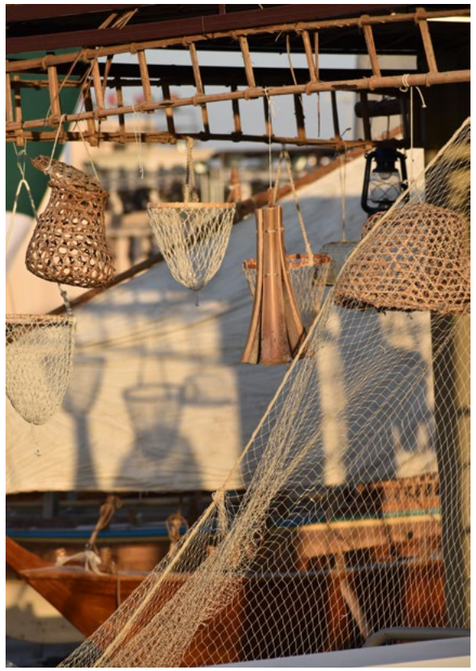

وكان سوق اللؤلؤ الذي يقام فيها يجتمع فيه بائعو اللؤلؤ الذين جاؤوا من أقاصي المعمورة مثل الهند.

لقد اضطر أهل الخليج حتى ثلاثينيات القرن العشرين للعمل في مهنة الغوص الشاقة جداً لتوفير لقمة العيش، لقد كان العاملون يجتهدون خلال ثلاثة مواسم غوص تبدأ على التوالي برحلة الغوص الصغير التي تستغرق نحو شهر واحد تليها الرحلة الرئيسية أو الغوص الكبير وتستغرق أربعة أشهر ثم رحلة الردة ومدتها عشرون يوماً وهي آخر رحلة في موسم الصيد، أما بالنسبة إلى رحلة الغوص الكبير فيبدأ حين تصبح مياه الخليج دافئة أي بين شهري مايو وسبتمبر إذ يحدد النوخذة قبل شهر موعد بداية الرحلة التي تمتد لفترة أربعة أشهر يمكن أن تعود بعض السفن إلى الميناء مرة أو مرتين للتزود بالمياه.

يبدأ الاستعداد للرحلة على الشاطئ، فيقوم النوخذة ومعه الجزوة بتجهيز المركب الذي سوف يبحر فيه، ودهانه بزيت وشحم الحوت، والتزود بالحبال والمجاديف وكل ما يلزم من الماء والزاد وأدوات الغوص مثل الفطام، والشمّشول، والخبط والديين واليّدا والزّبل والمفّلقة، وحين تنتهي مرحلة الإعداد التي

تتميزبتعاون البحارة فيما بينهم بأن يتفق الرجال الراغبون بالسفر مع النوخذة الذين يعطيهم بعض المال لشراء ما يحتاجونه وما تحتاجه عائلاتهم إلى حين موعد عودتهم من الرحلة الطويلة وتنطلق كقافلة تدعى (السنيار) ويقودها رجل يسمى (سردال) وهو قائد سفن الغوص أو السنيار.

قبل انطلاق الرحلة ترفع راية تسمى (النوف) للدلالة على الرحيل، ويقف الرجال والنساء مع الأطفال ليودعوا بعضهم، أثناء ذلك يتقدم النوخذة بتوزيع المال على المودعين لبث روح التفاؤل والفرح قبل (الركبة) أي البدء برحلة الغوص ويقول السيد حسن الفردان: "كان أكبر أسطول في أبوظبي لخلف بن أحمد العتيبة وابنه أحمد بن خلف العتيبة، وفي دبي كان محمد بن أحمد بن دلموك، وهناك إبراهيم بن علي الصايغ، والحاج جاسم بن عبيد البقالي أيضاً. كان البحارة يتجهون بالسفن نحو الهيرات أينما كانت في مياه الخليج سواء قريبة أم بعيدة، إذ عرف البحارة بكثرة أسفارهم مواقع الهيرات وما يقابلها من مواقع النجوم الموجودة على (الديرة) والديرة هي البوصلة مقسمة على أربع جهات أساسية يطلق عليها في القسم الشرقي اسم (مطلع)، ونجم آخر في القسم الغربي اسمه (مغيب)، كما يطلق على النجم الموجود في جهة الشمال (الياه)، و(القطب) في جهة الجنوب، بينما تتوزع الديرة على أسماء النجوم الأخرى التي يتم الاهتداء بها للوصول إلى الهيرات ومن المعروف أن الشيخ مانع بن راشد آل مكتوم رسم خريطة بحرية يسميها الناس (ناليّة) ثبت عليها مواقع الهيرات الخليجية إضافة إلى (خيط ومشط) يساعدان السردال أثناء القيادة حيث يوضع المشط على نقطة الانطلاق والخيط على الهير المقصود ليظهر اسم النجم فيكون المسير أسهل وأدق، ويؤكد السيد حسن الفردان متاعب الغواصين في كلامه (يواجه الغواصون متاعب جمة، فينامون على (الفلقة) أي المحار لاعتقادهم أن حرارة أجسامهم تساعد على نضوج اللؤلؤ الموجود داخله ليستيقظوا قبل صلاة الفجر فيصلوا ثم يبدأ فلق المحار حتى شروق الشمس ليعاودوا الغوص من جديد لكن رغم صعوبة الحياة إلا أنهم احتملوها كي يعيشوا وعائلاتهم حيث لا عمل لهم سوى الغوص). ومن أبرز الطواويش في الإمارات الذين اشتغلوا بتجارة اللؤلؤ في أبوظبي خلف بن عبد الله العتيبة وولده أحمد كان من أكبر طواويش المنطقة، وبزر اسم محمد بن جاسم المريخي، وفهد الدوسري الذي كان يملك جالبوت (الحمر)، والشيخ المرحوم حامد بن بطي، وبطي بن خلفون من قبيلة القبيسات من أصحاب السفن أو الخشب، وكانت دبي تحفل بالعديد من الطواويش المهمين وعلى رأسهم الشيخة حصة بنت المر والدة المرحوم صاحب السمو الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، فقد كانت من أكبر الممولين في مدينة دبي وغيرها، وكان عدد السفن التي تذهب في رحلات الغوص نحو 2000 سفينة من الإمارات وحدها، ومنهم من قال 2300 سفينة بينما قدّر عدد البحارة والعاملين على السفينة بأكثر من 20 ألف بحار، لقد لعبت أبوظبي ودبي دوراً مهماً وكبيراً في تجارة اللؤلؤ فالسفن المبحرة من الإمارات الشمالية كانت ترسو في دبي لتزويدها بالمؤونة والمعدات، لقد وحد عالم الغوص واللؤلؤ الفكر الاقتصادي الخليجي ووحد لغة التعامل المالي وأوجد نظاماً اجتماعياً موحداً . وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت تجارة اللؤلؤ في أوجها، وذلك مع تنظيم عمليات التسويق والتجارة وفرض حكومات الإمارات ودول الخليج الضرائب على سفن الغوص لتحسين مستوى دخل الحكومات، وفي عام 1912 بدأت اليابان مشروع زراعة اللؤلؤ وهذا أثر بشكل كبير على اللؤلؤ الطبيعي، كما أدى اتساع حجم تجارة الأحجار الكريمة إضافة إلى بدء عمليات التنقيب عن النفط في مياه الخليج عام 1930، ولا ننسى الأزمات الاقتصادية التي ظهرت منذ بداية الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كل هذا أدى إلى نقلة كبيرة أدت بسكان الخليج إلى تغيير أنشطتهم فهجروا مهنة الغوص وتوقفت رحلات الغوص رسمياً في عام 1963م. ورغم التغييرات التي طرأت على أسواق بيع اللؤلؤ ودخول اللؤلؤ الصناعي إلى الأسواق فإن هناك بعض المشاريع التي تقوم دولة الإمارات العربية المتحدة على تشجيعها، فهيئة البيئة - أبوظبي ومنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو)، تعملان معاً، على تعزيز جهودهما المشتركة لإحياء التراث والتقاليد المرتبطة بمهنة الغوص لاستخراج اللؤلؤ، عن طريق استزراع المحار المحلي في مياه الخليج العربي بشكل مستدام، لإنتاج لؤلؤ ذي جودة عالية، وذلك من خلال مشروع «لؤلؤ أبوظبي» وقد تأسس هذا المشروع عام 2007، وكان هدفه استزراع ما يقرب من 80 ألف محارة، وإنتاج ما يقارب 20 ألف حبة لؤلؤ عالي الجودة سنوياً، يسعى المشروع إلى إتاحة منصة تعليمية وتوعوية حول الاستزراع المستدام للمحار، والتعريف بأهمية مثل هذه المشاريع التي تسعى للاعتناء بالبيئة وتشجيع زياراتٍ لطلبة المدارس والجامعات. مثل هذه المشاريع التي يمكن لها الحفاظ على المحار واللؤلؤ المحلي، والمشاركة بمشاريع مشتركة مع المؤسسات التعليمية، وإدخال العنصر الفني لإعداد تصاميم مجوهرات باستخدام اللؤلؤ المستزرع، كما أطلقت هيئة البيئة في عام 2019، سياسة الاستزراع المستدام للأحياء المائية لإمارة أبوظبي، التي تهدف إلى تعزيز النمو في قطاع استزراع الأحياء المائية، ورفع قدرته التنافسية للحد من الضغوط على المصايد السمكية المحلية، وتعتبر منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو)، واحدة من الشركاء الرئيسيين المعنيين بتحقيق هذه الرؤية، التي تدعم وتطور البحوث المتعلقة باستزراع الأحياء المائي، كما تسعى هيئة أبوظبي للأغذية على تسليط الضوء على تقنيات استزراع اللؤلؤ لما يحقق من الفوائد البيئية والاجتماعية والاقتصادية. وتتضمن الشراكة تبادل المعلومات، وتوفير الدعم الفني، وتنظيم ورش العمل الفنية في مجال الاستزراع. علاوة على ذلك، تعمل الهيئة والفاو بشكل وثيق، لإبراز الجهود التي تبذلها الهيئة في مجال استزراع اللؤلؤ، كمثال للاستزراع المستدام للأحياء المائية على مستوى العالم. وقال أحمد إسماعيل الهاشمي، المدير التنفيذي لقطاع التنوع البيولوجي البري والبحري في هيئة البيئة - أبوظبي: «تسهم هذه الشراكة الشاملة مع منظمة الأغذية والزراعة، في تعزيز مشروع «لؤلؤ أبوظبي»، الذي يعتبر أحد مشاريع استزراع الأحياء المائية الرائدة في المنطقة. وتوصلت هيئة البيئة - أبوظبي، إلى طريقة لإحياء تراث الغوص لاستخراج اللؤلؤ في أبوظبي، من خلال الممارسات الحديثة والمستدامة. في الماضي، كان الغوص بحثاً عن اللؤلؤ مهنة محفوفة بالمخاطر، ولكنه وفر فرص عمل موسمية لتحقيق دخل اقتصادي لمجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة. كما أنه لم يكن مجرد تجارة أو وسيلة للعيش فحسب، بل كان كذلك نظاماً اجتماعياً متكاملاً غذى تراثاً غنياً من التقاليد والموروث الثقافي. ونحن في هيئة البيئة، نسعى بشكل دائم إلى الحفاظ على تراثنا الوطني، وكذلك حماية البيئة، من خلال تطوير تقنيات استزراع الأحياء المائية المستدامة في دولة الإمارات العربية المتحدة، ومن خلال هذا التعاون، يمكننا فعل ذلك بنجاح». وقال ليونيل دابادي مسؤول أول مصايد الأسماك وتربية الأحياء المائية في مكتب منظمة الأغذية والزراعة الكائن في إمارة أبوظبي: «يوفر مشروع محار اللؤلؤ الذي صممته ونفذته هيئة البيئة - أبوظبي، مصدر دخل لرواد الأعمال الإماراتيين الشباب، كما أنه يسهم في الحفاظ على التنوع البيولوجي، وحماية النظام البيئي في الإمارة، بما يتماشى مع أهداف التحول الأزرق، التي تروج لها منظمة الأغذية والزراعة. نتطلع من خلال شراكتنا مع هيئة البيئة - أبوظبي، إلى تطوير تربية الأحياء المائية المستدامة، والمساهمة في تحقيق هدف الإمارات في أن تصبح مركزاً عالمياً رائداً في مجال الأمن الغذائي القائم على الابتكار بحلول عام 2051». ويركز مشروع «لؤلؤ أبوظبي» على 4 مسارات رئيسية، حيث يهدف المسار الأول إلى تعزيز السياحة البيئية في الإمارة، من خلال تسليط الضوء على تقاليد دولة الإمارات العربية المتحدة وتراثها، ويتضمن المسار الثاني، تسويق منتجات مشروع «لؤلؤ أبوظبي». كما يتمثل أحد المسارات الرئيسية المهمة للمشروع، في إجراء تجارب علمية وتطبيقية، لتعزيز المعرفة في مجال استزراع الأحياء المائية للمحار، ما يؤدي إلى زيادة حجم الإنتاج، وتحسين جودة اللؤلؤ. وأخيراً، يهدف المسار الرابع لرفع مستوى الوعي بين الأجيال الشابة حول الاستزراع المستدام للمحار، من خلال تنظيم زيارات لطلاب المدارس والجامعات، والمشاركة في الفعاليات المحلية والدولية ■

* كاتبة من الإمارات

«صيد اللؤلؤ في الإمارات»

موروث ثقافي أسطوري ممتد لآلاف السنين

منى حسن

يُقال في الأمثال «إننا نعرف عن سطح القمر أكثر مما نعرف عن قاع البحار». وقد ظل اللؤلؤ أحد الأسرار والهبات الربانية العظيمة للبشر. فعلى عكس الأحجار الكريمة الأخرى، مثل الماس أو الياقوت التي تتشكل كمعادن تحت سطح الأرض، تخرج اللؤلؤة للوجود كرمز غامض محمي بصدفة مغلقة، نسج الإنسان عبر السنين الأساطير حول كينونتها، فهناك اعتقاد قديم يقول إن اللؤلؤ يتشكل عندما تسقط قطرات المطر المملوءة بضوء القمر في البحر ويبتلعها المحار. كما يقال إنها مادة يفرزها المحار في حال دفاعه عن نفسه، وحكايات أخرى كثيرة تناقلها البحارة وتجار اللؤلؤ لقرون عدة في مختلف أنحاء العالم. ولفترة طويلة ظلت تجارة اللؤلؤ هي المرتكز الأساسي للاقتصاد في دولة الإمارات العربية المتحدة، عُرفت اصطلاحاً بعصر اللؤلؤ، كان خلالها للبحارة أحلامهم الكامنة في أعماق البحر، تترقب فرسانها الذين يتكبدون عناء الإبحار وتقلبات الجو، وغدر الأزرق، إضافة إلى الغوص ومشقته ليكشفوا عن جمالها الرَّباني، غير القابل للتقليد. وتواصل هذا الشغف المتوارث جيلاً بعد جيل بمهنة الغوص لقرون عدة، ظل الغوص بحثاً عن اللؤلؤ يوفر خلالها عملاً موسمياً، إن لم يكن بدوام كامل للعديد من السكان المحليين.

تاريخ مهنة صيد اللؤلؤ ونشأتها في الإمارات والعالم:

نشأت تجارة اللؤلؤ في بلاد ما بين النهرين، وازدهرت في المحيط الهندي على طول الخليج العربي وبحر الصين الجنوبي وبحر اليابان، حيث بقيت لآلاف السنين قبل أن تؤدي زيادة الطلب من الممالك الأوروبية إلى الغطس عبر نصف الكرة الغربي. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر، حسب بعض المؤرخين مع صعود التجارة العالمية، انتشرت مهنة اللؤلؤ في الخليج، وأغرق لؤلؤ الخليج الأسواق الأوروبية والصينية، واستدلوا على ذلك بالطرق البحرية التي جسدت طرق التجارة بين أراضي الهند والخليج وتركيا، ثم بلغت تجارة اللؤلؤ ذروتها في عام 1912، والذي سمي «عام الوفرة». في وقت سافر فيه اللؤلؤ الإماراتي إلى روما والبندقية وسريلانكا حتى الهند. وكان اللؤلؤ القادم من الخليج، وتحديداً من منطقة الإمارات العربية المتحدة من أكثر الأنواع المرغوبة والمطلوبة. رغم ذلك لا يجزم المؤرخون بتاريخ معين لبداية مهنة صيد اللؤلؤ وتجارته في منطقة الخليج العربي، لكنهم رجحوا بناء على البحث والتقصي أنها بدأت على الأرجح مع العصور القديمة الأولى من حضارة دلمون في منطقة البحرين، التي ترجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، وذلك حسب الآثار التي تم العثور عليها محلياً. و تشير السجلات التاريخية أنه بحلول أواخر القرن التاسع عشر، أن نحو ستين ألف شخص، وكانوا يمثلون تقريباً معظم سكان الخليج العربي، شاركوا في صيد اللؤلؤ، وتاجروا به، ومثّل اللؤلؤ حينها نحو 95 % من الدخل المحلي، وارتفعت قيمة اللؤلؤة بشكل كبير، بحلول عام 1905، حيث شكلت تجارة اللؤلؤ مصدر رزق رئيسياً لسكان المنطقة، إلى أن اكتسحه عصر النفط الذي لُقِّب بالذهب الأسود، كناية عن قيمته الاقتصادية الكبيرة التي أقصت تجارة اللؤلؤ إلى المقاعد الخلفية في اقتصاد الإمارات العربية المتحدة، ومنطقة الخليج عموماً. كذلك أثَّر دخول اللؤلؤ الصناعي إلى الساحة على قيمة تجارة اللؤلؤ، بينما ظلت محافظة على أهميتها كقيمة ثقافية وتراثية وتاريخية عظيمة نمت حولها جذور عادات وتقاليد خاصة أسهمت بصورة رئيسية في تشكيل

وجدان وتاريخ المجتمع الإماراتي، وهويته الثقافية والاجتماعية، وارتبطت بها مناسباته، ورُويت تحت ظلالها الحكايات والأساطير، وكان لتجارها مكانتهم، ومجالسهم الخاصة المشهورة المعروفة والمشهورة في منازل بعض العائلات الكبيرة في المجتمع الساحلي، والتي تعرف بمجالس «الطواويش»، ومفردها «طويش»، وتُطلق على تاجر اللؤلؤ، وهو الشخص الذي يقوم بجمع اللؤلؤ من أعماق البحر، ما أكسب تجارة اللؤلؤ قيمة معنوية واجتماعية وثقافية كبيرة كتقليد أصيل يُعبِّر عن هوية جماعية للإمارات ودول الخليج العربي كلها. وقد ارتبط أهل الإمارات بالبحر ارتباطاً حميماً، حيث شكّل لهم مصدر رزقهم الرئيسي، وشكلت أجواؤه وطقوسه بالنسبة لهم حياة كاملة في مرحلة ما قبل اكتشاف النفط كما أسلفنا، حيث كان ما يقارب من 85 % من إجمالي سكان إمارة أبوظبي مثلاً يعملون في مهنة الغوص، أو في تجارة اللؤلؤ، وفي مرحلة ما قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية كانت مهنة الغوص لصيد اللؤلؤ وتجارته تسهم بنحو 95 % من إجمالي الدخل القومي في إمارة أبوظبي، وكان الدخل السنوي من صيد اللؤلؤ وتجارته يقدر بأكثر من عشرين مليون روبية، وهو مبلغ كبير في ذلك الحين. وقدرت سفن الغوص، على مستوى الإمارات في ذلك الوقت بنحو ألفي سفينة، بينما قدّر عدد البحارة الذين كانوا يعملون على متنها بنحو عشرين ألف رجل.

مهنة الغوص في التراث الإماراتي:

امتزجت مهنة الغوص لاستخراج اللؤلؤ في الإمارات بالتقاليد المحلية، ودخلت في الطقوس والاحتفالات المبهجة في بداية الموسم، حيث تبدأ التحضيرات في اليوم الأول لتحرك السفن نحو بدء رحلة صيد محار اللؤلؤ، والذي يسمى «الشلة» أو «الركبة»، حيث يقف أهالي البحارة وجيرانهم لتوديعهم قبل انطلاق الرحلة، وفي نهاية الموسم حين يعلن «السردال» أمير أسطول السفن بدء رحلة العودة التي تسمى «القفال» أيضاً، والمشتقة من الفعل

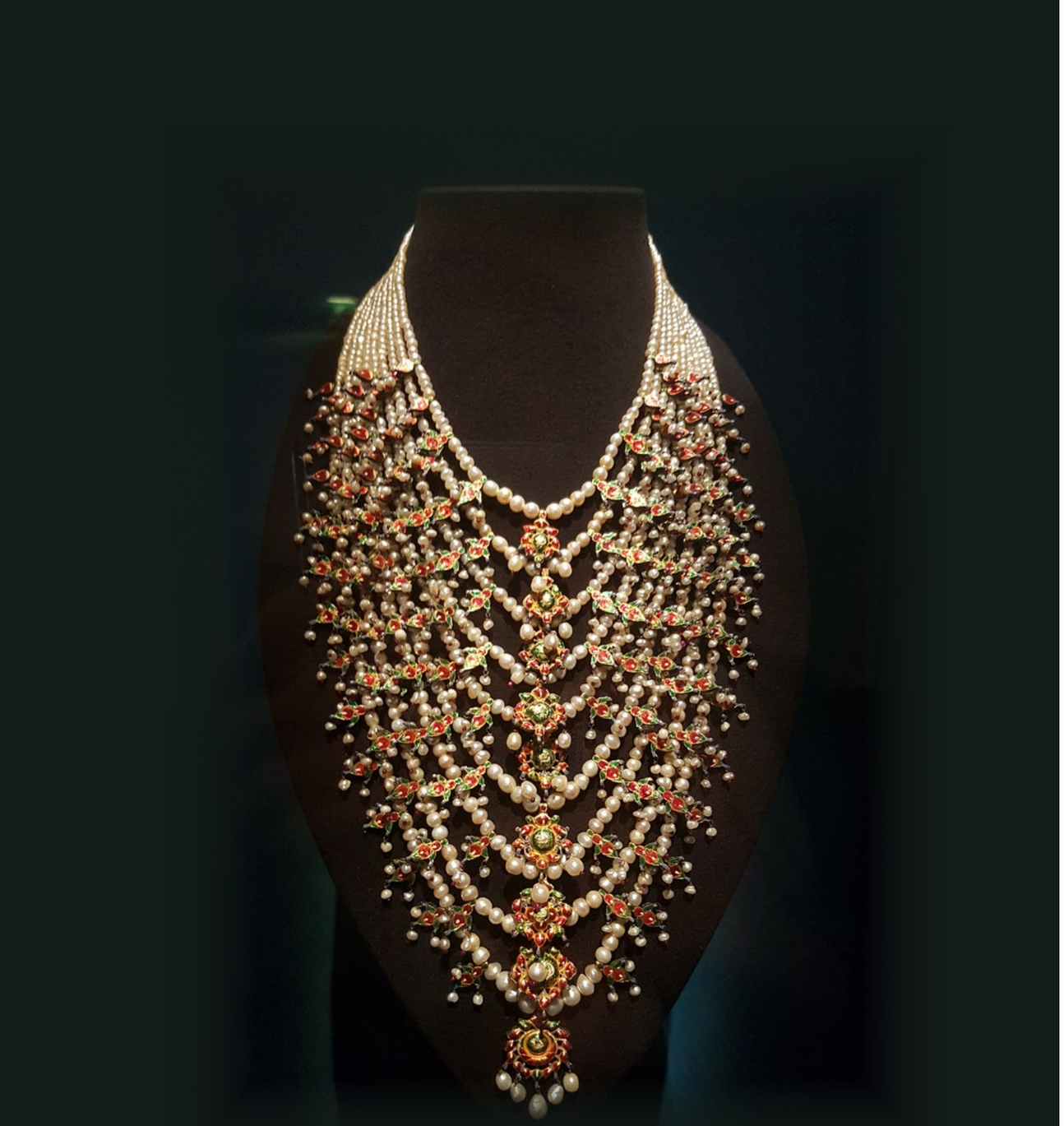

«قفل، بمعنى عاد، وكان العرب يسمون المواكب التي تسافر للتجارة بالقافلة، تفاؤلاً بأنها ستعود»، يعلن «السردال» بداية رحلة العودة بطلقة مدفع تبدأ إثرها رحلة عودة البحارة إلى ديارهم.. واستعداد الأهالي لاستقبالهم، وعادة ما تزين العائلات في الإمارات منازلها بأعلام من القماش تسمى البيرق، ترقباً وتفاؤلاً بعودة البحارة من رحلاتهم بحثاً عن اللؤلؤ، وتظل البيارق معلقة حتى تظهر أشرعة السفن الشراعية في الأفق مبشرة بسلامة عودة طواقمها. كما أن بيوت الإماراتيين لا تخلو من إشارات إلى هذا التراث، سواء في النقوش والزخارف، أو مجسمات السفن والملابس التراثية التي يتم ارتداؤها في مهرجانات الغوص التي تقام بصورة دورية، وتحتفي بماض مضيء وداعٍ للفخر.

ولكل فرد في طاقم السفينة لقب يصف مهمته الخاصة به، ويعملون في تناغم ونظام وتعاون يسهم في نجاح الرحلات وتعلم النظام والصبر، نذكر منهم: «النوخذة»، وهو قائد السفينة، ويكون هو نفسه صاحبها غالباً، وهو المسؤول عن إدارة رحلة الصيد وحساب الأرباح وتوزيعها أيضاً، و«السردال» الذي تم ذكره آنفا، وهو قائد أسطول السفن والقوارب مجتمعة، ويكون صاحب خبرة طويلة في البحر، يرشدهم عبرها إلى أفضل مواقع الهيرات «مغاصات اللؤلؤ». ونذكر أصحاب المهمة الرئيسية الشاقة وهم: الغوّاصون الذين يغوصون لصيد المحار من قاع البحر، وهناك «السيب» وهو اسم يطلق على الشخص أو الأشخاص المسؤولين عن الحبال المستخدمة لإنزال الغواصين، أو سحبهم إلى السطح، و«التبّاب» أيضاً وهم صبية تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والرابعة عشرة، مهمتهم مساعدة «السيب» في سحب الغواص، كما يتدرب بعضهم على الغوص. ويشارك «الرضيف» أو الأولاد الصغار بتقديم الشاي والطعام للطاقم، وفي فلق أصداف اللؤلؤ، وهناك «النهام»، الذي يصحب البحارة بصوت عذب يسليهم أثناء رحلاتهم الطويلة بالأشعار والأهازيج وأغاني البحارة المحتشدة بالشوق الحنين للديار والأهل.

جهود استدامة موروث مهنة الغوص في الإمارات:

ربما لا يعرف الكثيرون مدى قوة الارتباط القديم بين تاريخ الإمارات العربية المتحدة وصيد اللؤلؤ وتجارته، فعلى الرغم من أن الغوص بحثاً عن اللؤلؤ لم يعد ضرورة لكسب العيش حالياً، فإن قادة الإمارات حرصوا على الحفاظ على استدامة هذه المهنة كإرث وتقليد عريق وتاريخ براق لا يزال يثير فضول السياح من خلال توثيق كيف كان الأسلاف يمارسون مهنة الغوص بحثاً عن اللؤلؤ، وكيف يستخرجون المحار من قيعان البحار، حيث تبذل دولة الإمارات العربية المتحدة جهوداً جبارة في التعريف بمهنة صيد اللؤلؤ التقليدية باعتبارها جزءاً أصيلاً من الهوية الوطنية، وذلك عبر إقامة المهرجانات، ورحلات الغوص، وإنشاء المتاحف، وعلى سبيل المثال تتيح جزيرة اللؤلؤ في أبوظبي فرصة مثالية للسياح للاستماع إلى تفاصيل رحلات الغوص، كما يعرض متحف اللؤلؤ في دبي مجموعات من أندر وأثمن اللآلئ الطبيعية وأدوات الغوص، ويعرض متحف الشارقة البحري السفن الخشبية التقليدية التي كانت تستخدم لأغراض الغوص.

والجدير بالذكر أن بعض أسر تجار اللؤلؤ ما زالوا يحافظون على هذا التقليد على قيد الحياة، من باب الحفاظ على التراث، مثل أسرة السويدي برأس الخيمة، حيث يمكن لزوّار مزرعة لآلئ السويدي في رأس الخيمة التعرف على الأهمية التاريخية لصيد اللؤلؤ في الإمارات.

ختاماً:

ارتبط الموروث الثقافي الأسطوري للؤلؤ، الممتد إلى الآلاف السنين، والذي يرمز عند البحارة وأهل الساحل في الإمارات إلى الحكمة والمعرفة، والخلود والخصوبة، والنقاء والديمومة، لفترة طويلة بالوعي الروحي، وظهر في قصص تعود إلى ما قبل خمسة آلاف عام. وقد ذكر الله تعالى اللؤلؤ في محكم تنزيله في سورة "الرحمن" كآية من آيات عظمته سبحانه، وخص لؤلؤ منطقة البحرين التي كانت ترمز للؤلؤ الخليج العربي حينها، وهو الأجود والأكثر طلباً في سوق تجارة اللؤلؤ، يقول تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

كما خلده الشعراء في قصائد فصيحة وشعبية، تصاحبها الأغاني التراثية، لا يتسع المجال لذكرها، والتي يتم إحياؤها والحفاظ عليها عبر مشاريع استدامة التراث، التي تنتصر لقيمة الموروث الثقافي وقيمته الكبيرة في الحفاظ على هوية المجتمع وعاداته وتقاليده الأصيلة، التي تتجاوز كونها مهنة لكسب العيش، إلى مدرسة أخلاقية واجتماعية يعرف كل فرد فيها مهمته وما خرج لأجله، وتحوطها الدقة والتخطيط والأهداف النبيلة ■

*كاتبة من السودان

أهم المصادر:

• رحلة الغوص واللؤلؤ، جمعة الحميري، 2011.

صيد اللؤلؤ... صفحات من بريق الذاكرة الوطنية، وام، 2023.

• A Cultural and Mythological History of Pearling in the Arabian Gulf, BY CHANTAL BROCCA, 2023

في حكاية اللؤلؤ تاريخ وتراث دولة الإمارات

محمد نجيب قدورة

اللؤلؤ روح الحياة

هو الله (فالق الحب والنوى)[1] لتنبض روح الحياة من جديد، كنت أتأمل هذه الجملة في القرآن الكريم، فتأخذني الدهشة على جناح السرعة إلى روح الورد والنعناع والليمون، لأرى أسراب النحل تحط على الأغصان سعيدة بارتشاف الرحيق، ولا ندري نحن إلا أن العسل يقطر من الشهد مفرحاً قلوبنا بالشفاء العاجل... لكن، ليس هذا وحده الذي كان محور تأملي، ذلك أن الفلق تجلّى في فلق المحار لنحدّق في المشهد فنكتشف كتلة رخوية تحتضن وليدتها، يصرخ التباب: وجدتها، أجل هذه هي، إنها هي الدانة، اللؤلؤة، الجمانة، زهره الخلود، الدرّة، الجيون، الناعمة، البدلة، تابع التباب وقد انفرجت أساريره: مرحباً بروح الحياة الجديدة... فيك آية من آيات الله في الخلق والتكوين... بل أنت عنوان الإخلاص والسعادة الثمرة الحلية الأجمل... مرحباً بالزاهية الغالية. أجل أنت اللؤلؤة رمز الصفاء والنقاء... منك استوحينا درّة الكلام ودرّة التاج والدرر السنية في حكاياتنا العربية والأساطير السومرية، ذكرت في القرآن بقوله تعالى «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان»[2] كنت في الدنيا ثروة، وفي الآخرة هدية الرحمن للمؤمنين في الجنة، حيث «يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير»[3]، وما بين المنثور والمنضود والمكنون كنت أيتها اللؤلؤة زينة في قلائد وأقراط وتيجان وأساور، فسبحان الله الخالق الفالق الرازق!.

اللؤلؤ ذلك الجوهر الكريم

مهما حصل من تبدّل الطقوس اللؤلؤية من تنافس بين المزارع والمغاصات، فستبقى اللآلئ رمزاً حيوياً لكرم الله في ماء الحياة... تصارعت الدول أم تكالبت ذلك لا يهم، وآية سرّ الخلق هي هي، لأننا نحن البشر نقدّر الجمال فنسترخص من أجله الأموال والأرواح،

ما دامت غايتنا استدامة السعادة والحلم بالخروج من شقاء الكآبة، فعندما نسمع أو نرى (لؤلؤة أبوظبي) تكسبنا اللؤلؤة شهرة بأننا مميزون منذ أقدم العصور، وعندما يسمي المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - ديوان شعره (لؤلؤ الشعب) نستوعب معنى زايد الخير، وتبقى دانة الشيخة فاطمة بشكلها المنمنم المزخرف مفخرة لدولة الإمارات، ومثل ذلك عندما نغرّد منشدين (دبي دانة الدنيا) كسعادتنا بوعي الإنسانية لقيمة اللؤلؤ وتسمية (لؤلؤة تاهيتي) و(دانة هوب) في المتحف البريطاني، و(دانة العرب)، فنحن لن ننسى ما لدينا من تسميات لدانات الحكايات (كدانة ابن طريف) التي سمعت عنها، فعرفت أنها من دانات البحرين التي ظهرت بعد فلق المحار من قِبل الفالق حسين الكويتي، فظهرت بحجمها الهائل، فأخبر النوخذة أحمد بن عبد الله الذاودي لتكون الدانة بشارة من السفينة المسمى (بشارة) ورغم سنوات الكساد، فقد ظلت عنواناً لمعدن اللؤلؤ النادر، لتكتب عنها جريدة البحرين بتاريخ 12 سبتمبر عام 1940 أنها من اللآلئ الكبار وتدخل البازارات الدولية، لتظل قضية تاريخية ثمنها 400,000 ألف روبية هندية[4] في ذلك الزمن.

وفي الإمارات كم سمعت عن حكايات نواخذة وغوّاصين عانوا ظروفاً صعبة، لكنهم عادوا بالقماشات والدانات والجيونات التي غيّرت مجرى حياتهم، والتي ذكر لي أهل الجزيرة الحمراء أن آل العويس كانوا يأتون من الشارقة ودبي في عصر الطواويش لانتخاب الدانات الكبيرات لكن بلا تسجيل من الغواص الذي كان صاحب الفضل في حصادها من بين أعشاب البحر.

اللؤلؤ في مرايا الوجوه ودفاتر الذاكرة

وهنا حدثتني نفسي: أراك تغفل الحديث عن رحلات الغوص ومهنة الصناعة البحرية ومتطلباتها، قلت: جيد أن نتطرق إلى المعاني والقيمة في الزينة والتنعم والأمثال والأقوال المأثورة كتهيئة حافزة تجعل من مقولتنا دعوة مبررة لاستدامة التمسك

بالموروث من منطلق أن المشوار الذي سلكه أجدادنا لم يتوقف، فحكاية اللؤلؤ تاريخ هوية نراها في مرايا وجوهنا ونقرؤها في دفاتر ذاكرتنا... عفواً سيأتيك العنوان بعد هذه الكلمة الضرورية في هذا المقام كمفاتيح لما بعد.

1 - هي عبارات حكمية كأمثلة من الشعر الشعبي وردت على لسان المغفور له - وطيّب الله ثراه - الشيخ زايد في ردّه على الشاعر عبد الله بن شيبان حاثاً إياه على الصبر:

انظـــــر الغـــــواص شيعانـــــي
فـــــي حصـــــور الـــــدرّ ووزونـــــه
فـــــي لجيـــج البحـــــر روايعانـــــي
يقضـــــي الأيّـــــام والسّونـــــه
حبـــــة الجيـــــون لهـــــا شانـــــي
بـــــن علـــــي اصـــــبرولك عونـــــه

هو كذلك المعلم لأجيال الإمارات (زايدنا) يتطلع إلى العالم بعين الوعي وإلى الإنسان بعين الحب وإلى الحياة بعين التفاؤل وإلى المصاعب بعين الإرادة[5] ومن أقواله رحمه الله:

يـــــكّ والجيـــــون بهـــــا صائـــــك
والمباســـــــــــم ورد والوانـــــــي
يـــــا نجـــــيّ الدرّ لـــــي صافـــــي
لـــــي جـــــني مـــــن لجـــــة بحـــــوره

فالدر بمعانيه يقابل الورود والمباسم ومعنى الصفاء والثراء والجمال. وهذا مجرد نموذج مفرد من الشعر الشعبي وهو كثير

2 - ومن الأمثال: (قيس قبل ما تغيص) (كم دانه من اخربه)....

3 - ومن الرموز: يرمز اللؤلؤ لجميل الكلام ولمعاني الحكمة فيقال: درّ الكلام، درّ الثغر وربما لله درك.

4 - ومن الأسماء (لولوة - دانة - قماشة - جمانة) ليست الأسماء للبشر بل تشمل المضافات إليها كالدرر السنية - كلؤلؤة الخليج، ودانة الدنيا، وجمانة البر، وشجرة الدرّ، ولؤلؤه الشعب. ملاحظة: ذكر الرقم 1 مرات عدة ثم جاء تسلسل الأرقام هنا

5 - وفي الشعر العربي الفصيح:

يقول البحتري:

فمن لؤلؤ تبديـــه عنـــد ابتسامهـــا
ومـــن لؤلؤ عنـــد الحديث تساقطـــه

6 - وفي الألغاز (طاسه طرنطاسه، في البحر غطاسه، من جوّه لولو ومن برّه نحاسه) (الرمان) - (شي حي بيولد ميت) (اللؤلؤ) فحبّة اللؤلؤ أصلاً عبارة عن تشكل من عمليه كيميائية تفرز مادتها الكائنات الرخوية وهي داخل الصدفة محاولة منها لمنع دخول حبات الرمل إليها لكن إحداها تدخل فتبدأ حياة ميت الرمل إلى حياة داخل المحارة ثم تكون اللؤلؤة والدانة بإذن الله آية خلق تنتهي حلية وزينة وربما واهبة للطاقة الإيجابية... أليس هذا لغزاً في الوجود يستدعي التأمل.

الغوص على اللؤلؤ ملحمة الخليج

لا الريح ولا الأعماق ولا أسماك القرش كانت حائلاً دون ركوب البحر على سفن مخصصة للغوص في الخليج أو في عالم ما وراء البحار، فالماء لم تكن له حدود كما هي الآن... كانت العلاقات المادية والثقافية قائمة في الموثوقية التجارية والصناعية، أجل كانت الصناعة البحرية في خدمة عملية الغوص وكانت التربية السلوكية مكرسة ليكون الرجال أسود بحر، فعملية الغوص تشكل في وقتها السجل الذي لم تدونه الكتب بقدر ما استوعبته الذاكرة المفكرة والأيدي الماهرة... حرص أهل الخليج على أن يركب البحر بأهله كما أوصى عالمهم الشهير (أحمد بن ماجد)

وكذلك ظلوا يفعلون وهم يدافعون عن وجودهم الحضاري وحقوق إنسانيتهم في أوطانهم ... كان البحر ملحمة الثروة ورحلة البحث عن الحرية علاوة عن غرسها للقيم وخلقها للفنون من تنهيم وأغان ورقصات مغموسة كلها بالأشواق والحنين والتفاؤل والإرادة.

أجل كان أهل الخليج يفهمون في سمرهم معنى زهرة الخلود التي وردت في أسطورة جلجامش السومرية، كما كانوا هم صنّاع الرحلة السندبادية متجاوزين فيها الأخطار والعقبات... واضعين حلولاً لسنوات الجمر والزقنبوت باذلين أرواحهم للحصول على المعدن النفيس...

أجل لم تحل الخرافات السائدة بينهم في العمل البحري، فأهل البحر هم العارفون الحقيقيون لمعنى تيسير الأرزاق، فكانوا مع اللؤلؤ أنبل الطواويش في الأسواق... يزودون السفن بالمأكل والمشرب، يؤمنون حياة ما تبقى من أسرهم في البر.. نحن لا ننكر أن العملية البحرية فدائية، فأنت في البحر ضيف القاع ناظراً بعينيك إلى شمس النهار الحارقة ونجوم الليل الموجهة، وإلى النواخذة وهو يصدر التعليمات للسيب والغوّاص والتباب والمجدفين... كان يراقب الريح والأشرعة والأمواج همه أن يصل إلى (الهيرات) المعروفة المعتادة في الموسم الكبير، أو موسم الردّة... البحارة أيضاً كانوا يحلمون بالعودة إلى الأهل فقد تطول رحلة الغوص... يرجع الجميع سالمين غانمين... الأهالي ينتظرون وممول الرحلة ينتظر... كانت الموانئ حيوية كما هي مطارات اليوم .

أجل هذه المدن البحرية وقراها من أبوظبي إلى دبي إلى الشارقة إلى عجمان إلى أم القيوين إلى رأس الخيمة إلى الفجيرة... ما بين بحر الخليج وبحر العرب كانت الأشرعة تخفق وهي تتنفس الصعداء، وكان الجميع يحبون البحر. حتى وهم يعدّون العائدين وكأن الذي مات في الرحلة شهيد لتدوم المحبة بين الأهالي وكائنات البحر وأعشابه ولآلئ أحلامهم.

لؤلؤة الروعة في استدامة المنجزات الإماراتية

صار من تحصيل الحاصل أن تستمر المسيرة التاريخية باستدامة الحلم، فلا يكون هناك فصل بين محطات الزمن الجميل، لأننا في زمان الوصل حيث تستعاد الأيام في الخليج في المعادل الموضوعي للتراث والعصر، فما كان من المجد القديم هو الأصل في قابلية الدفع إلى الأمام بأسلوب حياة جديد... ففي نادي الإمارات للتراث عادة من تعوّد الإحياء والتنوير، وهذا ما كان في الحديث عن أيام البحر وطواويش الخليج بفضل تشجيع المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد، وهو يضع مصلحة شعبه نصب عينيه وفي قلبه، حيث رأى أن في تراث الأسلاف الكثير من التراث الذي نفخر به ونحافظ عليه ونطوّره ليبقى ذخرنا... من هنا كانت حكايات

صيد اللؤلؤ وحكايات البحر التي تجذب روّاد مهرجان زايد التراثي كون البحث عن اللؤلؤ هو ذاكرة الموروث التاريخي لمهنة الأجداد، فرغم تراجع مهنة الغوص أو اختفائها بسبب المنافسة من اللؤلؤ الصناعي الياباني وظهور النفط، رغم كل ذلك، فقد أنشأت دولة الإمارات متحف اللؤلؤ الطبيعي على ضفة خور دبي لمؤسسة سلطان بن علي العويس - رحمه الله - لكيلا ينسى المواطنون تاريخ غواصي اللؤلؤ وتُجّاره، وليظل نداء البحر لصيقاً بحياتنا الحاضرة.

ومن الجدير بالذكر والأهمية أن نادي تراث الإمارات يشارك كل عام في فعاليات مهرجان التراث البحري الذي تنظمه دائرة الثقافة والسياحة بأبوظبي من (17) الى (26) فبراير على كورنيش أبوظبي في (بيت البحر) ويتضمن المهرجان سباقات قوارب التجديف ومحاضرات ومعرض كتب... كما يقام سباق دلما لقوالب التجديف التراثية.

في هذا استرجاع الذاكرة التراثية التي من ضمنها حكايات الغوص الطموح عن اللؤلؤ.

هذا وإن كنت أنسى فلا أنسى أن رحلات الغوص كان يشجع عليها المرحوم الشيخ زايد كدرس لأبناء الجيل الحالي، وذلك ما شجع عملية تأجير قوارب ويخوت دون أن تمحى من ذاكرة الأهالي حكايات ملّاك سفن الغوص، ولا أدوات الغوص ولا المواسم ولا أشهر الغواصين والسيوب والنهامين.

وكل هذه المعارف والأخبار مدونات في كتب وموسوعات تختص بالغوص على اللؤلؤ ونواخذته وطواويشه مما يجب على مواطني دولة الإمارات الاطلاع عليه، ليتعلموا كيف استطاع الأجداد تذليل الصعاب للحصول على المعدن النفيس رمز الخير في هذا البحر الصديق الحميم، واهب المحار، المنور باللؤلؤ المكنون كآية من آيات الله الخالدات الحاملات رمزية استدامة معاني الخير، فإذا ذكر الخليج ذكرت دانة العرب بفخر واعتزاز ■

أديب وباحث من سوريا

الهوامش:

1. (إن الله فالق الحب والنوى) سوره الأنعام الآية (95).
2. سوره الرحمن في الآية (22).
3. سوره الحج الآية (23) وسوره فاطر الآية (33).
4. كان الراوي الباحث عبد الجليل السعد قد روى الحكاية وتأكدت مما نشر عنها في الوثائق البحرانية ومواقع الإنترنت.
5. عن ديوان أشعار الشيخ زايد (الأرشيف) مشاركات.

اللؤلؤ في أسماء النساء

موزة سيف المطوع

درٌّ نفيس كامن في أعماق البحار من أسرار الطبيعة، ثروة الماضي ورفاهية الحاضر، ذكره الله في كتابه الكريم ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فنال أعلى مراتب الرقي والجمال من بين سائر الجواهر والأحجار الكريمة، تجاوز مرحلة الزينة والتجمل فألهب قريحة الشعراء والأدباء ودرج صيته في الأمثال والأهازيج وبين أوراق الكتب وعناوينها، حتى في أسماء النساء.

عرف العالم أن اللؤلؤ يستوطن في مياه العرب، فأقبلوا عليه متهافتين كلٌّ منهم يطمع أن ينال اللآلئ لتؤهلهم ليصيروا من كبار الأثرياء، فاهتم العرب بهذه الجوهرة وعكفوا على معرفة أماكن وجودها وتمركزها، فحددوا المغاصات ودرسوا حبات اللؤلؤ المتنوعة بالشكل واللون والحجم، وفي أي أنواع المحار تسكن، ودوّنوا ما درسوه وتعلموه في كتب حفظت لنا دراساتهم.

تتمركز أصداف اللآلئ في الهيرات «المغاصات» ولكل هير دلالة واضحة يعرفها الغواصون، وتتميز بقاعها الصخري الذي تنمو عليه أعشاب وطحالب وشعاب مرجانية ومحار بأنواعه المختلفة، وتكون المغاصات عميقة ذات تيارات مائية معروفة، فاللؤلؤة تتكون نتيجة دخول كائن غريب إلى جوف الصدفة، ليدافع الكائن الرخوي الساكن فيها من خلال إفراز مادة تكسو الجسم الغريب ليتكون اللؤلؤ الأملسَ المستدير الناعم، وتتفاوت اللآلئ في أحجامها واستدارتها.

كما أن ألوانها متعددة وأغلاها التي تكون ذات اللون الأبيض النقي والعاجي والفضي والأسود، ولأن اللؤلؤة جوهرة أصلها حيواني فيكون التعامل معها مختلفاً، فعندما يجد الغواصون البلابل «نوع المحار الذي يحوي على اللآلئ»، يستخرجون اللؤلؤ المكنون ويبدؤون بتنظيفه بالماء العذب والملح لإزالة كل ما علق فيه من شوائب ويتجنبون أن يقربه أي نوع من الدهان أو ماء الليمون ووهج النار والعرق والاحتكاك بالأشياء الخشنة حتى لا يفسد، وتباع الأصداف الكبيرة أيضاً لتدخل في صناعة الحلي والزخرفة وتزيين الصناديق وقطع السلاح والطاولات والأثاث واللوحات. ونالت النساء نصيباً من اللؤلؤ في أسمائهن فاشتُهرت أسماء وذاع صيتها مثل:

جمانة: جمعها جُمان وهي أكبر حبات اللؤلؤ.

درة: لؤلؤة كبيرة الحجم ومكتملة الاستدارة، شديدة الصفاء أكبر من الدانة.

دانة: لؤلؤة ذات حجم كبير وقيمة باهظة، فريدة من نوعها لونها يميل إلى الاحمرار.

قماشة: المفرد من قماش وهي متوسطة الحجم مدورة كأنها حبة خرز.

شرين: نوع جيد من اللؤلؤ إلا أنه صغير جداً.

حصة: اسم لنوع من أنواع اللؤلؤ المستدير وبياضه مميز وهذا النوع أصغر من القماشة والدانة.

ناعمة: وهي من اللآلئ الجميلة كاملة الاستدارة صغيرة الحجم.

موزة: لؤلؤة تتميز بصفاء لونها وبها قليل من الاعوجاج ما زاد من قيمتها وتهافت عليها الفنيون، فما أجمل أن يزين العقد لؤلؤاً يزيده جمالاً التواءات خفيفة، وفي بعض المناطق يطلق اسم موزة على اللؤلؤة السوداء، ويكتسب اللؤلؤ اللون الأسود عندما يطول مكوثه في المحارة وهو غالي الثمن. والجدير بالذكر أن أقدم لؤلؤة في العالم وجدت في أبوظبي، وترجع إلى العصر الحجري الحديث قبل (8000) سنة، وثاني أقدم لؤلؤة وجدت في أم القيوين ويبلغ عمرها (7500) سنة. و (80 %) من إنتاج اللؤلؤ كان مصدره الخليج العربي قبل أن يظهر اللؤلؤ الصناعي ■

* صحافية وكاتبة إماراتية

الغوص في الأعماق .. تنافسية للاستدامة

مريم سلطان المزروعي

تعتبر مهنة الغوص عن اللؤلؤ من أهم المهن الخليجية لتي اعتاش عليها أغلبية السكان في ساحل الخليج العربي، وتعد المصدر الأول لهم على الرغم من صعوبتها وتكلفتها التي تؤدي إلى أن تكون الروح بديلاً لها، فقد مارسها الأجداد وتفننوا بها وأبدعوا فيها، للحصول على لؤلؤة ثمينة، وسعوا بكل قواهم للبحث والتنقيب عنها، حتى استطاعوا أن يستخرجوها من أعماق البحارويقتنوها بمواسمها المعروفة في كل بحار المنطقة، فكل موسم له نظامه وأعرافه، ولا يعرف المؤرخون تاريخاً محدداً لبداية هذه المهنة في منطقة الخليج العربي، لكنهم استنتجوا أنها بدأت مع العصور القديمة الأولى من حضارة دلمون البحرين، التي ترجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، ترجع إلى أسطورة البطل السومري جلجامش في رحلته للبحث عن الخلود، وذلك عندما وضع البطل فطاماً على أنفه وحجراً يتدلى في قدميه، ليصل بسرعة فائقة إلى قاع البحر، بحثاً عن زهرة الخلد، الروايات كثيرة تكتب من أفواه الرواة، تبيّن مدى صعوبة الحياة التي كانت موجودة في زمن لم تتوافر فيها وسائل التوثيق والتسجيل، ويُذكر في إحدى الروايات: "أن موسم الغوص الكبير، الذي يُحدد من قِبل الحاكم، له وقت محدد إعلاناً ببدايته ونهايته، وعادة ما تكون بداية موسم الغوص في شهر مايو ويستمر حتى أواخر شهر سبتمبر من كل عام، ونهاية موسم الغوص الكبير «القفال»، يعتبر عيداً للأهالي لرؤيتهم أحبائهم وعودتهم من رحلة الغوص سالمين، والغاصة (الغواصون) هم الفرسان في هذه المهنة الشاقة، فهم من يعول النوخذة في البحث عن اللؤلؤ؛ حيث إن الغواص له ثلاثة أسهم من حاصل الربح، وهو لا يعمل ولا يخدم على ظهر السفينة، قد يساعد السيوب (السيب: البحّار الذي يجلس عند حافة السفينة وهو مَنْ يمسك بطرف الحبل المتصل مع الغواص الذي يعمل في قاع البحر بعد أن يحرك الحبل وفق إشارات متعارف عليها).

يذكر السيد محمد بن سلطان: "لقد كانت تجارة اللؤلؤ رائجة قبل ظهور النفط وتعتبر واحدة من أحد أهم الأقطاب في تاريخ الغوص جذباً، فقد كان تجار اللؤلؤ بعد جمعهم اللآلىء والدانات من الأسواق المحلية، وبعد شراء الطواويش (الطواش أي الشخص الذي

يمتحن تجارة بيع اللؤلؤ وشرائه في الماضي)، ينتشرون في عرض البحر بحثاً عن أصحاب السفن، تبدأ رحلة بيع هذه الدرة الثمينة التي كان ولا يزال يسيل لها اللعاب لجمالها ورونقها اللافت للأنظار، حيث تسافر إلى الأسواق العالمية لبيعها بأغلى الأثمان حتى تتزين بها النساء في البلدان الأوروبية وبريطانيا والهند وأفريقيا، ويتسابقن على شرائها بأغلى الأثمان ما جعل قيمة هذه المهنة ترتفع مكانتها وتزداد أهميتها في ذلك الزمان، وإذا جئنا إلى مهنة الغوص؛ نلاحظ بأنها من أكثر المهن خطورة، وقد استخدمت بها أدوات بسيطة مصنوعة من بيئتهم الطبيعية، ومنها على سبيل الحصر؛ «الفطام» وهو مشبك مصنوع من عظام السلاحف ويوضع على أنف الغواص، و«الحجر» وهو الثقل من الحجر أو الرصاص هرمي الشكل، و«الديين» أشبه بالكيس أو بالسلة متشابكة مصنوعة من الحبال أو الخيوط التي يعلقها الغواص على رقبته، أما «اليدا» فهي عبارة عن حبل طويل مربوط بالحجر ويسحب السيب الغواص بعد هزه عدد من المرات، و«الخبط» وهي قفازات يستخدمها الغواص لحماية أصابع يديه من الصخور الحادة والأشواك البحرية، و"المفلقة" سكينة معكوفة الرأس، تستعمل لفلق المحار واستخراج اللؤلؤ من داخله، يقول المرحوم خليفة تركي الرشيد، وهو يغوص في هيرات أبو ظلام والعياي:

في أبو ظـــلام والعيـاي وأنا مسرسح مـــع المـاي
والعاف يلـــوي امعـاف وأرجف مثل سعف انخيله
حنا عشرة في برد البـوم وأنا الخامـــس بين القـوم
وامحيسن صفي مهموم لـــي هـــد ثرثركل ابويله

وقد التقينا بالباحث جمعة بن خليفة أحمد بن ثالث - مدير جمعية الإمارات للغوص يقول: «مهنة الغوص على اللؤلؤ مهنة أهل الإمارات، وكانت بالنسبة لهم مصدر الرزق الأول، ومهنة الأجداد والآباء، فجميع إمارات الدولة تطل على الخليج ما عدا إمارة الفجيرة، حيث إن ما يقرب من 85% من إجمالي سكان إمارة أبوظبي مثلاً يعملون في مهنة الغوص، أو يمكن القول في تجارة اللؤلؤ والذي يسهم في 95% من إجمالي الدخل القومي للإمارة، وهذه المهنة لم تكن مقتصرة على الحضر بل دخل بها عدد كبير من البدو، الذين كانوا يلجؤون إلى النوخذة الذي هو الملجأ الأول لهم، مدة الغوص كانت أربعة أشهر وعشرة أيام، وهي فترة ليست سهلة، وإذا تمعنا في مهنة الغوص وإلى تصنيف بعض المهام على ظهر السفينة فهي كالتالي: «النوخذة» وهو ربان السفينة وهو المتصرف في شؤونها، وهي كلمة فارسية، و«النوخذة الجعدي» وهي كلمة المقصود بها النوخذة المستأجر لسفينة ما، وهو مساعد الربان في قيادة سفينة الغوص، ويتقاسم أرباح اللؤلؤ من رحلة الغوص مع البحّارة، وهو من يبيع اللؤلؤ على الطواشين الذين يأتون إلى ظهر السفينة وهو من يجلب حصيلة اللؤلؤ بعد الانتهاء من موسم الغوص وتسليمها لصاحب السفينة الموجود في البلاد، و«المجدمي»: هو رئيس البحّارة ويتقدم عليهم جميعهم لخبرته ومهارته؛ فهو مسؤول عن عمل البحّارة على ظهر السفينة، وهو الخبير العارف بشؤون المغاصات والهيرات البحرية، والغواص (الغيص) وهو المستأجر من قِبل النوخذة الذي يغوص إلى قاع البحر لجمع المحار وله ثلاثة أسهم من إجمالي محصول السفينة من اللؤلؤ، والجلاس أو الجلاليس وتقلب الجيم ياء (اليلاليس) وهو من يفلق المحار، وفلق المحار هذه لها قصة أيضاً فهم يتجمعون منذ شروق الشمس كل يوم، حيث يُكلف مجموعة من البحارة بإخراج المحار من الخن، اثنان منهم ينزلان إلى جوف الخن، واثنان يتناولان المحار منهما، ويقومان بإلقائه على سطح السفينة في الجهتين اليمنى واليسرى؛ وينقسم بحارة السفينة إلى مجموعات كل مجموعة توكل إليها فلق كمية من المحار؛ ويأمرهم النوخذة قائلاً: (اطلبوا الله، أي ادعوا الله). والسفينة لا تخلو من النهام الذي يشدو بالنهمات والأهازيج من الشعر التي تخفف التعب والإرهاق حتى يستأنس جميع الموجودين على ظهر السفينة بهذه الكلمات والألحان، ويتم الإعلان عن انتهاء موسم الغوص بأن ترفع (بنديرة: رفع العلم على السارية أو رفع الشراع)، أو أن (يثور مدفع «تطلق قذيفة»: طلقة من سلاح ناري)، وتبدأ السفن بالاقتراب من الشاطىء قليلاً قليلاً باقي آخر أربعة أيام من نهاية الموسم، إلى أن يعطي فلان إشارة

انتهى موسم الغوص. اللؤلؤ المستخرج من المحار عادة يكون كامل الاستدارة، ألوانه متعددة فمنه الأبيض، والأحمر، والبني، والسماوي، والأغلى الأبيض الكامل الاستدارة والصفاء والنقاء، والتسميات مختلفة من حيث الجودة والجمال والحجم واللون: الجيون ذات اللون الأبيض المشرب بحمرة خفيفة وهي الأجمل، والدانة، واليكة، والناعمة، والقولوة، والبدلة، وشرينة، والبوكة، والسحتيت ذوات الأحجام الصغيرة جداً، ومن أشهر طواشي اللؤلؤ في أبوظبي خلف بن عبد الله العتيبة، وفي دبي محمد بن حمد بن دلموك، وفي الشارقة عائلة النابودة والنومان وراشد الجروان، وفي عجمان ناصر بن عبيد بن لوتاه، وفي أم القيوين شيوخ الإمارة من أهل المعلا، وفي رأس الخيمة ابن المفتول وابن درويش وجاسم بن دلم. تأسست جمعية الإمارات للغوص عام 1995م بأمر من المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، برئاسة المرحوم فرج بن بطي المحيربي، بعد أن شعر بأن مهنة الغوص بدأت بالاضمحلال، فالهدف منها تنظيم رياضة الغوص في دولة الإمارات العربية المتحدة، وتأسيس قاعدة معلومات للغواصين الأعضاء، ومراقبة البيئة البحرية وحمايتها والمحافظة عليها، فمنذ إنشاء الجمعية ونحن نسعى بكل ما لدينا لتحقيق نجاحات على أرض الواقع، بدأنا بالتركيز على الجهات الحكومية والمؤسسات واستقطاب الأطفال لتعليمهم على الغوص واستخراج اللؤلؤ وجمعه، وفلق المحار، «كنا نذهب في رحلات سنوية إلى المغاصات والهيرات نراقب الأسماك والحيوانات ونعمل على إخطار الجهات المسؤولة إذا حدثت أي مشكلة ما». لقد تكاتفت الجهود على مستويات مختلفة للمحافظة على التراث البحري من قِبل جهات متعددة منها: هيئة البيئة والمحميات الطبيعية، ومجموعة الإمارات للبيئة البحرية، وفريق أسعد شعب للغوص التطوعي، من أجل تسليط الضوء على الأهمية الثقافية للجزر والحصول على نموذج متميز لجهود المحافظة المستدامة، وإدارة الأحياء البحرية في دولة الإمارات، ما يضمن نظاماً وبيئة غنية ومتنوعة للشعب المرجانية، وكذلك نمواً طبيعياً للمحار المحمل باللؤلؤ الطبيعي البراق، لقد بذلت دولة الإمارات جهوداً مشهودة على مستوى العالم بهدف دعم سبل الحفاظ على الأحياء البحرية من خلال إنشاء 15 منطقة محمية بحرية، بحيث تسير على النهج السليم بموجب التزاماتها الدولية تجاه اتفاقية التنوع البيولوجي وأهداف التنمية المستدامة للأمم المتحدة. كما أن عملية تنظيف لقاع البحر تضمن استدامة البيئة البحرية والحصول على بيئة خضراء ذات معايير بيئية عالية، والحد من الممارسات التي تؤدي إلى الإضرار بها، وقد أصدرت هيئة البيئة - أبوظبي سياسة استدامة جودة المياه البحرية» 2023، وحالياً انتشرت مصطلحات «السياحة البيئية» و«سياحة الغوص» وهي صناعة تعتمد على خدمة متطلبات الغواصين الترفيهية في وجهات أخرى غير المكان الذي يعيشون فيه، بحيث يشمل جوانب كالتدريب، وبيع المعدات واستئجار الخدمات والخبرات الموجهة. ونتيجة لهذه التطورات والاهتمامات انتقلت هذه الأفكار للأفراد فأبدعوا بتقديم ما لديهم، كمبادرة «لآلىء السويدي» وهي مزرعة لآلىء افتتحها عبد الله السويدي تكريماً لجده الراحل محمد، واحتفاءً بتاريخ رأس الخيمة في مهنة صيد اللآلىء، تقع في منطقة الرمس في شمال رأس الخيمة، كما أن مزرعة لآلىء السويدي تتبع نظاماً مراعياً للبيئة من أجل الحفاظ على الثروة البحرية، وتتميز ببساطتها وأصالتها واعتمادها على الألواح الشمسية لتوليد الطاقة ■

* كاتبة وباحثة إماراتية

اللؤلؤ وأهميته في الخليج العربي في العصرين الوسيط والحديث

(نماذج مختارة)

أسماء يوسف الكندي

يشكل اللؤلؤ جزءاً لا يتجزأ من اقتصاديات الخليج العربي في العصور الإسلامية الزاهية، حيث كان مصدر إلهام لبعض المشتغلين فيه سواء التجار أو الغاصة الذين يقومون باصطياده في أماكن وجوده بكثرة، أو استخدامه من قِبل الأطباء والصيادلة في علاج الأمراض وتراكيب العقاقير الدوائية، وقبل الخوض في الحديث عن أهميته، أشير إلى ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ **(22) سورة الرحمن، وقوله** ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ **(33) سورة فاطر، وقوله تعالى** ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ **(19) سورة الإنسان، وقوله** ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾**(24) سورة الطور، ومن خلال ذكر اللؤلؤ في أكثر من سورة في القرآن الكريم تدل على جمالية هذا المعدن الصخري (اللؤلؤ) ومكانته الكبيرة في الجنة حيث لا ينالها إلا المؤمنون الصالحون، ومن هنا اهتم المسلمون من تجار وأطباء وصيادلة وعلماء في هذا الحجر الصخري المهم في الخليج العربي، وأدخلوه في عدد من الصناعات سواء في تزيين الملابس أو الحلي والمجوهرات، أو التيجان للملوك والسلاطين أو إدخاله في إعداد العقاقير والأدوية الطبية لعلاج بعض الأمراض.**

ومن العلماء المسلمين الذين تحدثوا عن أهمية هذا الحجر الصخري (اللؤلؤ) من الناحية الطبية: الكندي، والبيروني، وابن البيطار، وابن ماسويه، وغيرهم من العلماء حيث أشاروا إلى أهميته في علاج بعض الأمراض، فقد أورد البيروني في كتابه (الجماهر في معرفة الجواهر): (في استعمال اللؤلؤ غير المثقوب في المعاجين وفي الأكحال، وليس يستعمل فيها مسحوقاً، فالثقب بعد السحق يستخدم بهدف الاحتراز من التسمم في الثقب، ودفع المضرة عن الأحشاء والعين، فإنهما يعالجان به الصغار والكبار....). ويتحدث ابن البيطار عن أهمية اللؤلؤ حيث يستخدم في التزيين والعلاج في كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية فيقول: (... وهي منافق صغار تخرج من البحريزين بها الأكاليل وهي بيضاء في بطونها...، تكون جوفاء في داخلها دودة كلحمة، بعض الأطباء: تشبه الحلزون الكبير ولكنه أكبر منه وخزفه أصلب، وهما يدخلان في علاج الطب محرقاً وغير محرق وبعضهم يسميه سوار الهند...). ولقد اشتهرت المياه الساحلية لشبه الجزيرة العربية منذ القدم بمصائد اللؤلؤ التي عرفت باسم المغاصات، ولا يزال الخليج العربي هو مصدر أجود أنواع اللآلئ التي توجد في العالم. ومن أشهرها مغاصات عُمان والبحرين وبحر القلزم التي تجمّع فيها الكثير من الخبرات والتجارب عن طريق الغوص وجمع اللؤلؤ في قاع البحر وأوقات الغوص، واشتهر عدد من الغواصين الشجعان، الذين لم تكن في حوزتهم من وسائل وأجهزة الغوص سوى الشجاعة والقدرة على المكوث تحت الماء لفترة أطول.

فيذكر (أبو زيد الحسن السيرافي) في كتاب (رحلة السيرافي): (للغاصة والغواص أخبار عجيبة وللؤلؤ وحيوانه ما قد أتينا على أوصاف ذلك، وصفات اللؤلؤ وعلاماته وأثمانه ومقادير أوزانه)، حيث يسرد في حديثه عن اللؤلؤ (فاللؤلؤ يبتدي في مثل قدر «الانجدانة»: (نبات أسود وأبيض...)، وعلى لونها وفي هيئتها وصغرها وخفتها ورقتها وضعفها)، ويسرد السيرافي قائلاً (فقال قوم في بدء اللؤلؤ: الصدف إذا وقع المطر ظهر على وجه البحر، وفتح فاه حتى يقطر فيه من المطر فيصير حباً، وقال آخرون: إنه يتولد من الصدفة نفسها، وهو أصح الخبرين لأنه ربما وجد في الصدفة وهو نابت لم ينقلع فيقلع، وهو الذي تسميه تجار البحار (اللؤلؤ القلع). ويذكر ابن ماسويه في كتابه (الجواهر وصفاتها) عن صفات الغواصين والغاصة: (أن الغاصة يركب منهم السفينة ما بين الستة إلى اثني عشر رجلاً، نصفهم غاصة ونصفهم يمسكون الحبال على الغاصة، كل رجل لرجل، وفي كل سفينة أمين من قِبل التاجر، ولهم حبال من كتان طولها ما بين العشرين ذراعاً إلى خمسين، وفي طرف الحبل حجر معلق يكون نحو ثلاثين مناً، فيضع الغائص قدمه وينحدر في الماء إلى قرار البحر، وعليه فوطته ومعه مخلاة من شريط محمولة في عنقه وبعض أدوات

الغوص منها عاج أو قرون يلزم أنفه لئلا يدخل الماء...)، حيث يستمر الغائص في الماء يبحث عن الأصداف التي تتكون فيها اللآلئ، ويذكر ابن ماسويه يبقى الغائص في الماء نصف ساعة، وإذا أراد الخروج ظهر فوق الماء ثم سبح إلى سفينته، ويغوص في اليوم ثلاث غوصات، وطعامه من السمك المالح والتمر، وربما نال من الخبز قليلاً. وأفرد ابن ماسويه في كتابه عن صفة اللؤلؤ وأصنافه فيذكر منها: المدحرج الذي يسمى القار، وأكبره القطري، ووزن أكبره مثقال، والخايدار المخروطة، وهي التي أحد رأسها أدق من الآخر، وأكثر المخروط عُماني، ويقع فيه وزن مثقالين، واللؤلؤ المرتفع المنظوم من الخيط، ومنه المغربي وهو الذي يعجب به أهل المغرب ويجلب إليهم، وهناك الأصبهاني وهو الذي يجلب من أصبهان، وهو أشد صفرة، والسراب وهي التي كلما أتى عليها سنة يبست وجفت، ثم تتصدع فإذا أعيدت إلى الماء يوماً أو يومين رجعت إلى ما كانت عليه.

وفي نهاية المطاف فإن وصف أماكن صيد اللؤلؤ في الخليج يمتد من رأس مسندم حتى جزيرة البحرين والقطيف، وكان الغواصون يستخرجون تلك اللآلئ على عمق 15 إلى 17 قدماً، حيث يكون ملتصقاً مثل الثمار بشجرة صغيرة، أو تجمعات على شكل شجيرة تشبه المرجان، وكان غواصو اللؤلؤ في أنحاء الخليج العربي كله من العرب يسكنون السواحل، وكانت عملية صيد اللؤلؤ تتم في منتصف مايو ونهاية سبتمبر، وتجدر الإشارة إلى أن في العصر الحديث كان أكبر أسطول اشتهر بصيد اللؤلؤ هو أسطول ساحل عُمان المتصالح (دولة الإمارات العربية المتحدة) وكان عدد العاملين عليه تمثل أكبر هيئة صيد في الخليج على الإطلاق، وهذا يدل على براعة أهل الإمارات في صيد اللؤلؤ منذ القِدم من حيث نوعية اللؤلؤ الممتاز في مختلف أماكن وجوده في الخليج العربي وبحر العرب، وقد دخل اللؤلؤ في العديد من الصناعات التجارية التي تشكل مصدر دخل مهم لأبناء الإمارات في العصرين الوسط والحديث، ومنها صناعة العقاقير والعلاجات الطبية، التي تحتاج أن نجتهد في الكتابة عنه (اللؤلؤ) وعن أهميته في صناعة الأدوية والعقاقير الطبية وعلاج أبرز الأمراض ■

*أكاديمية من الإمارات

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد بن أحمد المالقي (ت: 646هـ)، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2020م.
3. البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت: 440هـ)، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر. مكتبة المتنبي، القاهرة. مصر، د.ط، د.ت.
4. ابن ماسويه، أبو زكريا يحيى الخوزي (ت: 243هـ). الجواهر وصفاتها، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، المجمع الثقافي، أبوظبي - الإمارات، 2001م.
5. القاسمي، سلطان بن محمد، صراع القوى والتجارة في الخليج (1620 - 1820م). منشورات القاسمي، الشارقة - الإمارات، 2016م.
6. الصباغ، عبد اللطيف محمد، أساطيل صيد اللؤلؤ في الخليج العربي وموقف بريطانيا منها. مؤتمر الملاحة البحرية في الخليج العربي عبر العصور، ورقة بحثية شارك فيها الباحث في دارة الدكتور سلطان القاسمي للدراسات الخليجية بالشارقة، 2008م.

الهوامش:

1 - الأخوار: جمع خور، وهو ذراع بحري عادة يمتد طولياً داخل اليابس، د. محمد رياض: الخليج والخليجيون قبل عام 1930 (دراسة في الجغرافيا والسكان والاقتصاد)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت، العدد (36)، أكتوبر 1983، ص 232.

2 - بخصوص بيان طبيعة هذه المهن راجع: جمعة خليفة أحمد بن ثالث الحميري: دولة الإمارات العربية المتحدة.. رجال الغوص واللؤلؤ، هيئة المعرفة والتنمية البشرية، حكومة دبي، بمناسبة اليوم الوطني الـ 38، ص 248 وما بعدها، مصطفى عزت هبرة: موسوعة الغوص واللؤلؤ في مجتمع الإمارات والخليج العربي قبل النفط، مج 1، مركز الدراسات والوثائق، 2005، ص 371 وما بعدها.

3 - فالح حنظل: التركيبة السكانية لمجتمع الإمارات في مرحلة ما قبل النفط، مجلة شؤون اجتماعية، الصادرة عن جمعية الاجتماعيين، الشارقة، العدد (43)، خريف 1994، ص 134.

4 - روبرت كارتر: كيف أسهم اللؤلؤ في نشأة الإمارات الحديثة؟ بحث منشور في: مفاهيم جديدة في تدوين تاريخ الإمارات العربية المتحدة، المركز الوطني للوثائق والبحوث، أبوظبي، عام 2009، ص 263، وكذلك، عبد الرحمن بن عثمان آل ملا: الخليج العربي واستراتيجية الحياة الحضارية المبكرة، نادي الأحساء الأدبي، الأحساء، 1430هـ، ص 15.

5 - معن خليل عمر: مجتمع الإمارات والمفاعيل العملاقة، دار الكتاب الجامعي، ط 2، العين، الإمارات العربية المتحدة، عام 2005، ص 30.

6 - عبد الله حمد راشد الشامسي: التحليل الاجتماعي لمجتمع الإمارات (السكان والحياة الاقتصادية والقرابة)، د.ن، ط 1، عام 2000، ص 104.

7 - لوريمر (ج ج): دليل الخليج، القسم التاريخي، ج 3، مكتب الترجمة بالقسم الثقافي بديوان حاكم قطر، الدوحة، د.ت، ص 3251 - 3256.

8 - عبد الله عبد الرحمن: الإمارات في ذاكرة أبنائها (الحياة الاجتماعية)، ندوة الثقافة والعلوم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، عام 1998، ص 101.

9 - روبرت كارتر، مرجع سابق، ص 263.

10 - شمسة حمد العبد الظاهري، إمارات الساحل المتصالح (1900 - 1971)، المركز الوطني للوثائق والبحوث، أبوظبي، عام 2010، ص 19.

11 - روبرت كارتر، مرجع سابق، ص 274.

12 - د. محمد فارس الفارس، دراسات في تاريخ الإمارات (قراءة في الوثائق البريطانية)، دار الخليج للطباعة والنشر، الشارقة، عام 2003، ص 81.

13 - عثمان صديق: أحمد بورحيمة يتذكر، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط 1، عام 2001، ص 21 - 22.

14 - شمسة حمد العبد الظاهري، مرجع سابق، ص 19.

15 - د. محمد فارس الفارس، مرجع سابق، ص 84.

16 - شمسة حمد العبد الظاهري، مرجع سابق - ص 20.

17 - عائشة علي السيار، التاريخ السياسي لدولة الإمارات العربية المتحدة، مكتبة الجامعة، أبوظبي، الطبعة الأولى، عام 1996. ص 157.

18 - عبد الله عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 207.

19 - عثمان صديق، مرجع سابق، ص 20 - 21.

20 - متحف اللؤلؤ في دبي.. تاريخ الدانة الطبيعية في رعاية الأوصياء، موقع البيان، على الرابط التالي: https://www.albayan.ae/five-senses/culture/2018-03-19-1.3214351

21 - متحف الشارقة البحري، موقع هيئة متاحف الشارقة، على الرابط التالي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-Maritime-museum

22 - مزرعة اللؤلؤ جوهرة رأس الخيمة، موقع البيان، بتاريخ: 9 يناير 2021، على الرابط التالي: https://www.albayan.ae/economy/tourism/2021-01-09-1.4060900

23 - «لؤلؤ أبوظبي» يحيي إرث الأجداد، موقع الإمارات اليوم، بتاريخ 22 مارس 2022، على الرابط التالي: https://www.albayan.ae/economy/tourism/2021-01-09-1.4060900

«هيئة البيئة» و«الفاو» تعززان جهودهما لإحياء تراث قطاع اللؤلؤ في أبوظبي، موقع البيان، بتاريخ 28 نوفمبر 2022 على الرابط التالي: https://www.albayan.ae/uae/news/2022-11-28-1.4568360

الغوص على اللؤلؤ في كتابات الرحّالة والمُؤرخين

علي تهامي

يقول الباحث الفرنسي كزافييه بيغان بيلكوك، صاحب كتاب «الإمارات: التاريخ الأسطوري لساحل اللؤلؤ»: «إلى جانب التاريخ الساحر للإمارات، يتم إعادة الاكتشاف تدريجياً عبر آثارها، عن مغامرة مثيرة لصيد اللؤلؤ، وهو تراث وطني عريق في دولة الإمارات، أضفى على ذلك الجزء من العالم نفوذاً عالمياً لا نظير له، وغير معروف لمعظم الشعوب».

حظي اللؤلؤ و«الغوص على اللؤلؤ» باهتمام الكثير من الرحّالة والمؤرخين الذين زاروا دولة الإمارات العربية المتحدة، ومنطقة الخليج العربي، والذين تناولوه في كتاباتهم.

وقد نقلت لنا المصادر الإماراتية والعربية حتى الأجنبية نصوصاً لما ورد في كتب ومخطوطات هؤلاء الرحّالة والمؤرخين من العرب والعجم. ومنذ القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر للميلاد شرح الرحّالة والجغرافيون العرب بدقة كيفية صيد اللؤلؤ وكذا طريقة شرائه وبيعه، وقد أورد المسعودي في القرن التاسع وصفاً لعملية الغوص على اللؤلؤ في الإمارات والخليج العربي.

وكما ورد في كتاب «بحر اللؤلؤ: سبعة آلاف عام من الصناعة التي شكلت منطقة الخليج»، لمؤلفه روبرت كارتر، فإن مطلع القرن التاسع عشر قد شهد بزوغ نجم عددٍ من المدن الجديدة، على الساحل العربي لمنطقة الخليج يعمل أهلها بتجارة اللؤلؤ، وأن غالبية هذه المدن تحوّلت اليوم إلى مدن وعواصم كبيرة تضمها دولة الإمارات العربية المتحدة.

كما يحدّد مؤلف الكتاب تاريخ نشأة مدن اللؤلؤ هذه في منطقة الخليج العربي بالسنوات ما بين عامي 1760 و1820 ميلادي بالتزامن مع نشأة مدن أخرى جديدة ومهمة في كل من قطر والبحرين والكويت، حيث شهدت المنطقة هجرة عددٍ من القبائل العربية النازحة من الجزيرة العربية، ومن الجزء الواقع على الساحل الفارسي من الخليج وهي هجرة حدثت لأسباب تتعلّق بالرغبة في تقاسم الثروة المادية المترتبة على تجارة اللؤلؤ.

ولفتت فصول الكتاب وصفحاته النظر إلى أن قيام هذه المدن الحضرية واتساع نشاطها كمراكز لتجارة اللؤلؤ، مهد لحدوث جملة من التغيرات المهمة، وخاصة فيما يتعلق بظهور القوانين المنظمة لممارسة مهنة الغوص على اللؤلؤ. ويأتي على رأس هذه التغييرات، القوانين المتعلقة بتمويل رحلات الغوص والعائد المادي الناتج عن تجارة اللؤلؤ.

ويذكر المؤرخون أنَّ مُدناً ازدهرت، مثل «أبوظبي» التي انتقلت عاصمتها من واحة «ليوا» عام 1793، و«الشارقة» التي ورد ذكرها كإحدى أهم ثلاثة موانئ لتجارة اللؤلؤ في عام 1756، والتي تعود نشأتها كمدينة حديثة لتجارة اللؤلؤ إلى مطلع القرن التاسع عشر، و«أم القيوين» التي يعود تاريخها إلى الحقبة ذاتها، و«عجمان» التي ذكرها المؤلف البريطاني «موريز» كإحدى أهم مغاصات اللؤلؤ، وكذلك «رأس الخيمة» وغيرها من المدن التي تحدث عنها «موريز» وغيره من الرحّالة والمؤرخين.

وقد تربعت تلك المدن بحسب الرحّالة والمؤرخين على قمة الازدهار في تلك المرحلة التي تميزت بارتفاع العائد المادي المترتب على التوسع في حجم الأسواق العالمية التي كان يتم تداول أموال اللؤلؤ فيها.

الرحّالة والمؤرخون يخبروننا أيضاً، بأن مجموعة من الاكتشافات الأثرية أظهرت عدداً من القطع الأثرية ذات العلاقة بتجارة اللؤلؤ، من بينها ما عُثر عليه في موقع حفريات الدور بأم القيوين، الذي يشتمل على بعض القطع الأثرية المستخدمة كأدوات الغوص في الفترة ما بين القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلاديين.

كما أنَّ الإشارة إلى اشتغال سكّان الإمارات والمنطقة بمهنة الغوص قد وردت في العديد من الوثائق والخرائط التي جاءت في كتب الرحّالة والمؤرخين، وذكر فيها اسم «ساحل اللؤلؤ».

ومما يُذكر من كتب الرحّالة والمؤرخين عن اللؤلؤ في الإمارات ومنطقة الخليج العربي، ما ذكره الإنجليزي ديفيد جيفريز، في كتابٍ أهداه إلى ملك إنجلترا «جورج الثاني» حيث قال: «إن لآلئ الخليج تأتي في المنزلة التالية بعد الماس مباشرةً من حيث قيمته، وأن أول شيء ملفت فيها جمالها الطبيعي».

وقد أورد «المسعودي» (893 - 956) وصفاً دقيقاً لما كان عليه التبادل التجاري بين المناطق الواقعة في منطقة المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي، والتي عرفت تنظيماً دقيقاً لمهنة

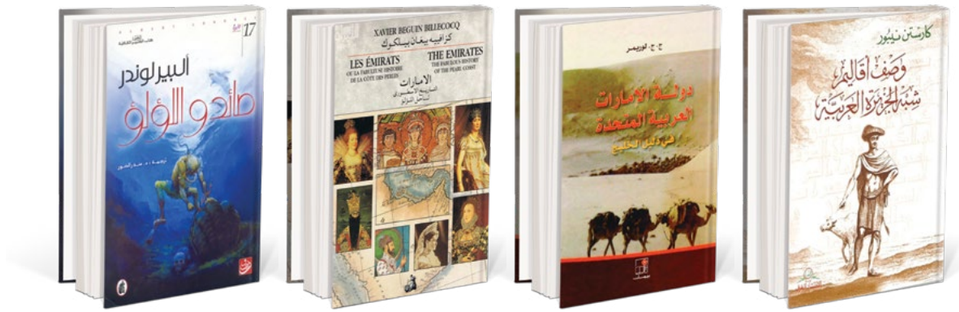

صيد اللؤلؤ. وفي كتابه «صائدو اللؤلؤ» الذي ترجمه البحريني منذر الخور، تحدث الفرنسي البير لوندر عن اللؤلؤ ووثق الكثير من التفاصيل المتعلقة بهذا الشأن، حتى قيل إن «لوندر» غاص من خلال كتابه في حياة الغوّاصين وعرف الكثير من أسرار حياتهم وخفايا مهنتم، واقترب منهم وتعاطف معهم وهو تعاطف بدا واضحاً من خلال بعض مقولاته المدونة بالكتاب والتي جاء فيها: (بأن «اللؤلؤ» مجرد «مادة عبثية للزينة، وفرح طفولي للنساء، وعذاب قاس للرجال»، وكذلك قوله: «في أعماق البحر يوجد شقاء أكثر من اللؤلؤ».

وقد سجّل هذا الكاتب الفرنسي، في رحلته لمصائد اللؤلؤ في الخليج العربي، بعضاً من تفاصيل الجانب المؤلم في حياة صائدي اللؤلؤ من الغواصين الذين وصفهم بـ «البؤساء»، و«المساكين»، والذين رأى بأنهم المحكوم عليهم بقصر العمر وبالأعمال الشاقة تحت الماء وفي وضح النهار»، والذين يصابون بالعاهات الدائمة وتفتك بهم أمراض المهنة وتهاجمهم الأسماك الخطرة في أعماق البحر، وسرعان ما يشيخون في سن مبكرة جداً.

وقال ألبير لوندر، بأنه حين وصل إلى مناطق الغوص في الخليج العربي وجد «اللؤلؤ فيها ملكاً والجميع في خدمته»، ووصف المنطقة بأنها «هبة اللؤلؤ»، مؤكداً أنه من دون اللؤلؤ لا توجد تجارة، ولا مضاربات، ولا استهلاك، حيث كان اللؤلؤ في فترة ما قبل النفط يشكل المصدر الوحيد لجلب المال.

ونذكر من الرحّالة والمؤرخين الذين تحدثوا عن اللؤلؤ في الإمارات والخليج العربي: «جون غوردن لويمر»، وهناك كتاب «دليل الخليج» بشقيه التاريخي والجغرافي، وهو من المؤلفات المهمة التي تناولت موضوع الغوص على اللؤلؤ وتجارته، وغير ذلك من كتب الرحّالة والمؤرخين الذين زاروا دولة الإمارات ومنطقة الخليج العربي في فترات تاريخية مختلفة، وتحدثت عن مختلف الجوانب المتعلقة بالغوص على اللؤلؤ اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

وهناك «كزافييه بيكلوك» صاحب كتاب (الإمارات.. التاريخ الأسطوري لساحل اللؤلؤ)، الذي دوّن في كتابه الكثير عن الغوص على اللؤلؤ وتجارته وكل ما يتعلق به.

وكذلك المؤرخ والرحالة البرتغالي بيدرو تيكسيرا الذي وصل إلى الخليج قادماً من الهند عام 1604 وروى في يومياته مشاهداته لصيد اللؤلؤ وتجارته ورؤيته لمئات المراكب التي تخرج من البحرين و«جلفار» رأس الخيمة حالياً، باتجاه مواقع الغوص للبحث عن اللؤلؤ في الخليج العربي، وغير ذلك الكثير من الرحّالة والمؤرخين الذين اهتموا في كتاباتهم بتفاصيل حرفة الغوص على اللؤلؤ في الإمارات ومنطقة الخليج العربي.

وقد جاء ذكر مناطق صيد اللؤلؤ في كتب عدد من الرحّالة العرب والمسلمين منهم: «ابن بطوطة» الذي أعطى وصفاً دقيقاً لصيد اللؤلؤ في منطقة الخليج العربي، في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، و«المقدسي» في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، و«أبو الفداء» في كتابه «تقويم البلدان»، و«ابن حوقل» في كتابه «صورة الأرض».

وما كُنّا مُحيطين ولكن نضرب الأمثلة ■

*كاتب وصحفي

الهوامش:

1 . كتاب (دليل الخليج) لجون غوردن لوريمر.

2 . كتاب (الإمارات.. التاريخ الأسطوري لساحل اللؤلؤ) لكزافييه بيكلوك.

3 . كتاب (صائدو اللؤلؤ) لألبير لوندر.

4 . كتاب (بحر اللؤلؤ: سبعة آلاف عام من الصناعة التي شكلت منطقة الخليج) لروبرت كارتر.

5 . كتاب (الغوص: نظام اقتصادي - اجتماعي - ثقافي) لمريم جمعه فرج.

6 . كتاب (رحلة الغوص واللؤلؤ) لجمعة خليفة أحمد بن ثالث الحميري.

شريعة الباب

عبد الفتاح صبري
روائي وناقد مصري

للباب قيم وقوانين وشرائع .. حين نخرج منه إلى معترك الحياة والشارع والعمل والمواصلات سنتخلى عن هذه الشرائع - وعن التزاماته وقوانينه - سنتجمل وسنلبس أجمل الثياب ونرسم وجوهنا وبسمتنا وضحكتنا.. وسنتدثر بالجد والجدية والنشاط والحيوية وكل منا سيقصد وجهته، العامل إلى عمله وصنعته والموظف إلى مكتبه والطالب إلى مدرسته أو كليته وهكذا كل سيسير بجدية لا يلوي على شيء سوى البحث عن طريقه وأداة توصيله إن كان قطاراً أو سيارة نقل «باص» أو سيارته الخاصة أو سيارة أجرة أو حتى بالأقدام - كل يجري في موعده إلى مبتغاه وفي العودة العكسية بالدرب نفسه إلى أن يصل إلى بابه فيضع المفتاح في رتاجه أو مكمته ليدخل إلى رحابة منزله المنتظرة إن كان بمفرده أو ستلاقيه زوجته أو أسرته أو إخوانه.. ليتحلل من كل صلابته وجديته.. ليدلف إلى مكان مختلف. يبدأ من ولوج الباب إلى حين الوصول إلى سمت المنزل وداخله وهناك سيخلع ملابسه ويتحلل من أفكاره من تجهمه من جديته - من وقاره الشديد ليتحول بفضل الباب المغلق إلى كائن آخر وتتلبسه لبوسات أخرى مختلفة عما في الخارج وهو متسلح بالنشاط والهمة والبحث في الأفق عن الخطوة التالية ليفتح لنفسه درباً نحو مبتغاه الأخير الذي يقصده عملاً أو سياحة أو سوقاً للتسوق والشراء، لكنه سيحاور بجسده ويناور ويراود بحسه كي يمرق بين هذه الجموع التي تسير في نفق الحياة تجري وتلعب والكل معجون باللامبالاة. الكل يجري - فيلقحه زمهرير القسوة الدافعة على اللهاث أو حتى شواء الظل حين يطول الانتظار في مناسك ومحطات قطارات المترو أو الباص أو أي وسيلة مواصلات تعج بأزيز حركتها في المدينة المترامية الواسعة التي يؤمها الآلاف بل الملايين لا يلوون في الظاهر على شيء ولكنهم منومون مؤلدجون مبتعثون إلى مقاصدهم... حين تخرج من الباب ستكون جزءاً من هذا اللهاث اليومي ستتدرج معهم وتصير مجرد أشباح تجري يمنة ويسرة في تململ أحياناً وبهمة أحياناً وبدافع فطري لاتدركه، هدفه الجري وراء المبتغى غير الواضح.. حين تخرج من باب المكان تتحول إلى مجرد رمز إنساني أو بشري يمثل فتنة الزحام وقهر الانحشار في الآلاف أو في أدوات المواصلات.

نتخلى عن كل شيء إلا جدية مصطنعة وبسمة باهتة أو غير موجودة من الأساس فننظر في فراغ محدقين في اللاشيء الذي لا يتحقق أبداً .. طابور المصعد يئن من بطء غير حنون، وبلادة الحركة وعدم عدالة الوقت حين يضيع على أعتاب أقدامنا التي تتجسد في وقفتها في انتظار دورنا في الصعود أو النزول أو الانتظار. حين نخرج من الباب تستقبلنا شوارعنا الممتدة في غير رحمة والمزدحمة في غير ترتيب. والمتداخلة حد الشبكة العنكبوتية فتصيبك بدهشة التحلل من قيم نمارسها خلف الباب، وتلبسك لبوس الجهامة والتأمل والسؤال والبحث دوماً عن الخلاص والتوصل إلى حل ينجي من هذه الاشتباكات فتنحو للأنانية كي تتخلص من هذه الاشتباكات الإنسانية المعقدة في طريقك إلى عملك ومبتغاك لتبحث عن خلاصك وطريقك الأسهل خلف هذه الجموع وخلف تلك الكتل البشرية المصابة بداء التراخي في حركتها أحياناً أو المتجمدة عند فواصل الشوارع والدوارات - فتضطر للبحث عن نفسك للخلاص السريع - لأنك ستتخلى عن هدوئك وكمال التزامك أيضاً لتصاب بالتوتر والعصبية والقلق.

وحين تمرق من كل هذه الوعثاء وتصل إلى مكمنك النهائي ستجد أنك لابد رغم إجهادك من أن تتأنق وتتصنع وتضع ابتسامة ولو صناعية على شفاهك.. إذاً ستتعلم النفاق والممالأة والدهان كي تعيش في بيئة العمل وأنت مرتاح لنظرة الآخرين التي اشتريتها بهذا التجمل والتمترس خلف المصنوع متخلياً عمّا تضمره فتصاب بالضغط والسكري ومرض الملاوعة ونكران ذاتك كما تريد هي.

وحين تعود إلى رحلتك العكسية بالطرق النفسية والبدنية نفسها التي ارتديتها في رحلة الصباح لتدق بابك أو تدع مفتاحك يدور في مكمنه لينفتح مصراعيه وتدخل إلى سكنك أو دارك متخلياً عن الكتلة الضاجة خلفك في الشارع والمواصلات أو حتى إن كنت صاحب سيارة كنت تقودها بلعنة الاحتراس والاحتراز والسير على حبل من مسد الشارع.. فجأة ستتخلى عن رهابك اليومي ليستقبلك سكون وهدوء يربت عليك بدفء إنساني يعيد إليك السكينة. أخلاق الباب وشريعته الذي ودعته وأغلقته للولوج المطمئن الآمن سيستقبلك ببشر الدخول... وبدفء المكان وبدفء الإنسان الذي ينتظرك إن كان موجوداً وإن لم يكن فأنت دخلت في محيط السكينة والدعة ودفء الرضا - ستعلو ابتسامتك التي هربت منك طوال النهار تحت ضغط الناس والمتعاملين وجماعة المحيط الخارجي الذي يقصي سلبياته وطاقاته غير الإيجابية؛ لتلتقط ابتسامة حانية هنا وربما لمسة يد تربت عليك تهدهد وجعك وتنسيك ما كان خارج الباب لتدخل إلى عوالم وشريعة يضفيها الباب عليك شريعة الرضا بالمكان و بدفئه ودفء من معك وستمسك بظل من حنان يتفجر مع هذه الإنسانيات المغايرة... وعندها ستتخلى طواعية عن قسوة ملامحك وستفتح طاقات من الود تشعرك ببشريتك وإنسانيتك .

الباب الذى انغلق عليك الآن سيداريك عن الخارج وسيفصل بين عالمين مختلفين، والباب الذي أغلق عليك ظاهره من الخارج يطل على الزحام والفضول والقلق، والرائين ومشكلات كل هذه الملايين وضغوطهم وطاقاتهم السلبية، وباطنه الداخل ظِل مختلف. وسكينة وهدوء. وبسمة يستقبلك بها مكانك اللطيف الآمن فتتحلى أنت بأخلاقك الأصيلة وتتخلى عمّا تمترست خلفه طوال يومك وتعلو استقامتك وتتحلل من جمود وضعك القوي الخارجي لتنحل رتابة استقواء قيم الخارج وتحل مكانها قيم الراحة والهدوء والتحلي بالاستراوح ونعومة من حولك وستضفي عليك أشياؤك ودفء ما تمتلك من رضا وسكينة بهاء اللحظة وجماليات الروح وستتجلى في نفسك.

الباب رحمة لأنه يفصلك عن عالم ضابح آن لك أن تستريح منه وسيدخلك إلى عوالم الدعة والرضا والدفء الإنساني الذي يضم أناساً من لحم ودم ينتظرونك بالبشر والترحاب والسعادة والباب الذي ينفتح لك بيسر هو نفسه الباب الذي يستعصي على الغريب أو القادم عنوة غير المرغوب فيه .

الباب سيظلل وُجاء من حر الشارع وابتراد المشاعر في الخارج وأنانية الناس ونظرائهم الرائية وربما الحاسدة أحياناً أو الخانقة أحياناً أو الغاضبة أحياناً بلاسبب ظاهر سوى جحيم السعي غير المرتب والبحث عن خلاص لا يأتي وتكون الحياة ضروباً من إشكالات متجددة لاتنتهي فيتم رمي حمولات وعثائهم عليك أنت الصامت في سعيك الجاد والمتجهم مثلهم في سياق لهاث أبدي سائد دوماً بلا وصول أو بلا انتهاء.

الباب الآن انغلق عليك ففاض بسكينته - وأوعز إليك بسرعة الهدوء وحنان الجدر المحيطة بك المتطلعة إلى أنفاسك وروحك كي تتصاعد منها نشوة التواصل الحميم مع سيدها الذي غاب عنها كثيراً، فتبشر بالبشر وتطل عليك برضا يتلبسك في حنان يضمرك منذ ولجت من باب هو الخطوة الأولى نحو جنتك الصغرى أو جنتك الدنيا.

الباب يمتلك ما يضفيه عليك من موسيقى مفصلاته حين تنشر بفرح وهي تتسمع خطوك العائد إليها بعد غياب، شريعته الفرح في الاستقبال ودعوات السلامة في الوداع، الباب ليس أصماً ولا كتلة من خشب ومسامير وألوان، الباب تواصل حميمية فرح مستدام لمجرد أن تتعامل معه وتجبره على أن ينفصل مصراع عن مصراع لتفتح كوة تسمح لك بالمرور وهو منصاع في حركته من أجلك ويدور حول نفسه من أجلك لا يفعلها للغريب أو المعتدي أو الآثم القادم بالشر... لاتستهين برقته.. ولا تحقر من فعله حين يطيعك ويلتف على نفسه من أجلك كي تمرق عن جنباته... وإذا ما تعاملت معه بعمق ستجده باباً من رحمة ودفء يسهم دون أن تدرك في إسعادك ويضفي عليك بهاء الرضا والسكينة والسرعة ■

هنا القاهرة

ضياء الدين الحفناوي

«القاهرة» ليس من الواضح أو المعروف تماماً أو على وجه الدقة أصل تسميتها بهذا الاسم، وهناك نظريات مختلفة حول أصل اسمها، لكنْ ليس هناك خلاف أن مدينة القاهرة من أكثر العواصم العربية جمالاً وأكثرهم تنوعاً تاريخياً وكانت عبر العصور مسرحاً للكثير من الأحداث.

وتشير إحدى النظريات إلى أن اسم القاهرة ربما نشأ من الكلمة العربية «القاهر» التي تعني «الفاتح» أو «المنتصر» وتشير هذه النظرية إلى أن الاسم قد أطلق على المدينة بعد أن فتحها الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص عام 641 م، وتشير نظرية أخرى إلى أن اسم القاهرة قد يكون مشتقاً من الكلمة القبطية «خير أوهي»، التي تعني «مكان القتال»، وربما تشير إلى قلعة أو معسكر عسكري كان موجوداً في المنطقة ذات يوم، ومع ذلك تشير إحدى النظريات إلى أن اسم القاهرة قد يكون مشتقاً من الكلمة الفارسية «خريف»، التي تعني «تل من الأرض»، وربما تشير إلى موقع المدينة على الهضبة، وبغض النظر عن أصلها، تتمتع القاهرة بتاريخ طويل وغني يعود إلى العصور القديمة وهي الآن عاصمة مصر وأكبر مدنها وللقاهرة تاريخ غني يعود إلى آلاف السنين مع وجود أدلة على أن البشر سكنوا في هذه المنطقة التي يعود تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ، ومع ذلك فإن المدينة كما هي اليوم تأسست عام 969 م على يد الأسرة الفاطمية التي جعلت منها عاصمتها وشيدت العديد من أشهر معالمها، وعلى مر القرون نمت أهمية القاهرة كمركز للثقافة الإسلامية والبحث العلمي، وأصبحت تعرف باسم "مدينة الألف مئذنة" بسبب العديد من المساجد التي تم بناؤها هناك، كما كانت بمثابة مركز رئيسي للتجارة في الداخل المصري ولعبت دوراً مهماً في تاريخ البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط.

الموقع الجغرافي

تقع مدينة القاهرة شمال شرق مصر، في الجزء الشمالي من وادي نهر النيل، في البلاد هي عاصمة مصر وأكبر مدينة في الوطن العربي. تقع القاهرة على الضفة الشرقية لنهر النيل وتمتد إلى المناطق الصحراوية المحيطة، وموقع مدينة القاهرة على مفترق طرق أفريقيا والشرق الأوسط، ما يجعلها موقعاً استراتيجياً للتجارة، كما أنها مركز ثقافي وتاريخي مهم، مع العديد من الآثار والمعالم القديمة الواقعة

داخل المدينة والمناطق المجاورة، وتبعد القاهرة ما يقرب من 165 كيلومتراً عن جنوب البحر الأبيض المتوسط، ونحو 120 كيلومتراً غرب البحر الأحمر، تحدها من الغرب مدينة الجيزة ومن الشمال القليوبية. وتقع المدينة على هضبة على ارتفاع نحو 23 متراً فوق مستوى سطح البحر، وتحيط بها مساحة شاسعة من الصحراء. وبشكل عام موقع القاهرة الاستراتيجي في قلب العالم العربي واحتضانها نهر النيل جعلها مركزاً للتجارة والثقافة والسياسة لآلاف السنين.

أهم المعالم التاريخية في القاهرة

ومن أهم المعالم الأثرية في القاهرة أهرامات الجيزة، وتقع هذه العجائب القديمة خارج القاهرة وهي آخر ما تبقى من عجائب الدنيا السبع في العالم القديم وتم بناؤها منذ أكثر من 4500 عام كمقابر للفراعنة ورفاقهم، والمتحف المصري أيضاً ويقع في قلب القاهرة وهو موطن لمجموعة رائعة من القطع الأثرية المصرية القديمة بما في ذلك كنوز الملك توت عنخ آمون وهناك القلعة الأيوبية وقد بنيت في القرن الثاني عشر من قِبل الأسرة الأيوبية، والقلعة حصن ضخم يسيطر على أفق القاهرة وكانت بمثابة مقر الحكومة لقرون عدة وهي الآن موطنٌ للعديد من المتاحف والمساجد أيضاً، ومسجد محمد علي الكبير ويقع هذا المسجد الجميل داخل القلعة وقد بني في القرن التاسع عشر للميلاد وسمي على اسم محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة

ويعتبر من أجمل التحف المعمارية في عصره، وجامع الأزهر الذي تأسس في القرن العاشر وهو من أقدم الجامعات وأهمها في العالم الإسلامي، ويعد المسجد والمباني المرتبطة به مركزاً رئيسياً للتعليم والبحث العلمي وهو أشهر المؤسسات الإسلامية في العالم ولعبت الجامعة دوراً مهماً في الحفاظ على الثقافة الإسلامية والمنح الدراسية وقد جاء العديد من الطلاب العرب للدراسة هناك على مر القرون، ومن الأماكن المحببة للكثير من الزوار خان الخليلي ويعتبر هذا السوق التاريخي مركز مدينة القاهرة القديمة وقلبها النابض وهو من أشهر الوجهات السياحية فيها ويشتهر بأجوائه النابضة بالحياة والحرف التقليدية والهدايا التذكارية، وشارع المعز لدين الله الفاطمي المتميز بالمباني عل الطراز الفاطمي المهيب والنقوش الإسلامية المتميزه الدالة على ثراء تلك الفتره من تاريخ القاهرة .

وهذه مجرد أمثلة قليلة على العديد من المعالم المهمة التي يمكن العثور عليها في القاهرة، وهي مدينة ذات تاريخ غني ومتنوع لا يزال يجتذب الزوار من جميع أنحاء العالم، وتعد القاهرة عاصمة مصر هي مركز للتطور والابتكار الحديث والتطور الدائم أيضاً.

القاهرة الجديدة والرؤية المستقبلية

يعد مشروع العاصمة الإدارية الجديدة من أكبر مشاريع الدولة المصرية في العصر الحديث ويهدف إلى إنشاء مدينة جديدة لتخفيف الازدحام وتحسين ظروف المعيشة في القاهرة وستضم المدينة مكاتب حكومية ومناطق سكنية ومراكز تجارية ومرافق ترفيهية، وتم الإعلان عن مشروع العاصمة الإدارية الجديدة لأول مرة في عام 2015 من قِبل الرئيس عبد الفتاح السيسي كجزء من خطته لتحديث البلاد وتطويرها. ومن المتوقع أن تبلغ تكلفة المشروع نحو 45 مليار دولار، وسيتم بناؤه على مراحل على مدى سنوات عدة، وتم تصميم المدينة الجديدة لتغطي مساحة تقارب 700 كيلومتر مربع. ومن المتوقع أن تستوعب المدينة في مشروعها الإداري أكثر من 6 ملايين شخص وسيشمل البنية التحتية الحديثة بما في ذلك مطار دولي جديد ومحطة للسكك الحديدية وشبكة من الطرق السريعة وغيرها من الطرق وستكون المدينة موطناً لعدد من المباني الحكومية أيضاً، بما في ذلك القصر الرئاسي والبرلمان والوزارات المختلفة.

بالإضافة إلى ذلك ستضم العاصمة الإدارية الجديدة عدداً من المناطق السكنية والمراكز التجارية والمرافق الترفيهية، وتم تصميم المدينة لتكون مستدامة مع وجود مساحات خضراء وحدائق ومسطحات مائية في جميع الأنحاء ومن المتوقع أن يوفر المشروع دفعة للاقتصاد المصري من خلال خلق وظائف جديدة وجذب الاستثمار وتحفيز التنمية في المناطق المحيطة. ومدينة الشيخ زايد أيضاً التي تقع غرب القاهرة، وسميت المدينة باسم المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، المؤسس لدولة الإمارات العربية المتحدة تقديراً لجهوده في تعزيز العلاقة بين مصر والإمارات وتعبيراً لمحبة الشعب المصري لشخصه الكريم وأهل الإمارات، ويوجد تمثال مهيب للمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في أكبر ميادين المدينة، وتعد مدينة الشيخ زايد مدينة سكنية تم بناؤها في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين لتوفير المساكن للأعداد المتزايدة من سكان القاهرة، وتشتهر ببنيتها التحتية الحديثة وطرقها الواسعة ومناطقها السكنية الفسيحة وتتمتع المدينة بالعديد من المرافق بما في ذلك المدارس والمستشفيات والحدائق ومراكز التسوق ما يجعلها خياراً شائعاً للعائلات والمهنيين، بالإضافة إلى ذلك هناك مدينة تسمى مدينة زايد الجديدة وهي قيد التطوير في مصر وتقع في محافظة السادس من أكتوبر بالقرب من القاهرة أيضاً ومن المخطط أن تكون مدينة زايد الجديدة مدينة مكتفية ذاتياً تضم مناطق سكنية وتجارية وصناعية فضلاً عن الحدائق والمرافق الترفيهية. وهناك مترو القاهرة وهو نظام نقل سريع يخدم منطقة القاهرة الكبرى ويعد أحد أكثر أنظمة المترو ازدحاماً في العالم، حيث يستقبل أكثر من 4 ملايين مسافر يومياً وتم توسيعه في السنوات الأخيرة مع إضافة خطوط ومحطات جديدة لخدمة المزيد من مناطق المدينة، كما تمت توسعة مطار القاهرة الدولي وتعد هذه التوسعة أحد مشاريع البنية التحتية الرئيسية التي تهدف إلى زيادة قدرة المطار على استيعاب المزيد من الركاب

والرحلات الجوية، وتشمل التوسعة بناء محطة ركاب جديدة ومدرج ومرافق أخرى. أما المتحف المصري الكبير، وهو متحف جديد قيد الإنشاء حالياً، يقع في الجيزة بالقرب من الأهرامات فهو قطعة من التاريخ وسيعرض المتحف التراث الثقافي الغني لمصر، ويضم العديد من القطع الأثرية من مصر القديمة بما في ذلك كنوز توت عنخ آمون، ويعد المتحف تحفه معمارية في حد ذاته، كما يوجد في القاهرة كايرو فستيفال سيتي أيضاً وهو مشروع كبير متعدد الاستخدامات يشمل مناطق سكنية ومراكز تجارية ومباني مكتبية وفنادق ويضم المشروع مركزاً تجارياً كبيراً ومجمعاً للسينما ومرافق ترفيهية أخرى أيضاً، وبرج القاهرة الذي يعد من المعالم البارزة في المدينة ويبلغ ارتفاع البرج 187 متراً ويوفر إطلالات بانورامية على المدينة، وخضع البرج مؤخراً لأعمال تجديد وترقيات لتحسين مرافقه وخدماته، ومدينة زويل للعلوم والتكنولوجيا وهي جامعة بحثية جديدة تقع في مدينة السادس من أكتوبر وتركز الجامعة على البحث العلمي والتكنولوجي والتعليم، وتهدف إلى أن تصبح مركزاً للابتكار وريادة الأعمال في المنطقة فهناك الكثير من المشاريع الحديثة المهمة في القاهرة والتي تشكل مستقبل المدينة وتسهم في تطورها ونموها.

تأثير القاهرة في محيطيها العربي والإقليمي على مر العصور

ترتبط الدول العربية تاريخياً بالقاهرة حيث كانت مركزاً ثقافياً وسياسياً للعالم العربي لقرون عدة منذ تأسيس القاهرة في القرن العاشر على يد السلالة الفاطمية من أصل عربي وأصبحت المدينة عاصمة إمبراطوريتهم، ومنذ ذلك الحين كانت القاهرة مركزاً للثقافة واللغة والفنون العربية ولعبت دوراً مهماً في تشكيل الهوية العربية، كما كانت مركزاً للنشاطين السياسي والفكري في

العالم العربي، حيث عاش فيها العديد من القادة والمفكرين والناشطين العرب أو درسوا بمن فيهم: ياسر عرفات، وإدوارد سعيد، والمغفور له الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، والعديد من قادة الأمة العربيه والإسلامية. واستضافت المدينة العديد من الأحداث المهمة في التاريخ العربي الحديث، مثل: مؤتمرات القمة العربية، واجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني. بالإضافة إلى ذلك كانت القاهرة مركزاً للدراسات الإسلامية والتعليم مع العديد من المؤسسات المرموقة، مثل: جامعة الأزهر ودار الإفتاء المصرية الموجودة في المدينة. لقد لعبت هذه المؤسسات دوراً مهماً في تشكيل الفكر والممارسة الإسلامية في العالم العربي بشكل عام وجعلت الأهمية التاريخية والثقافية والسياسية للقاهرة منها رمزاً للهوية العربية والوحدة ولا تزال تلعب دوراً مهماً في المنطقة اليوم وهي عن حق قلب الأمة النابض ■

كاتب مصري

إعداد: نايلة الأحبابي

تغاريد الحمايم

شجـــا قلـــبي تغـــاريد الحمايـــم
لعـــن بأصـــوات وألحـــانٍ عجيبـــه
وخلانـــي سجيـــم الحـال هايـــم
علـــى الأطـــلال ودموعـــي سجيبـــه
علـى فرقـــا حـــبيبٍ كـــان دايـم
يواصلـــني مـن إحسانـــه وطيبـــه
وعـــني اليـــوم شطوبـــه نمايـــم
ليـــاه البعـــد عـني كيـف أيبـــه
وأنـا لســـدي وسـده كـــنت جاتـــم
عـــن العـــدوان يـــدرون وجريبـــه
عليـــك الحفـظ ياحلـــو الوشايـــم
دعـــيت القلـــب والمهجـــه صويبـــه
وأنـــا المصيـــوب وجروحـــي جدايـــم
وعوقـــي يـــا مـــلا محـــد بليبـــه
ولابنســـاك دام العمـــردايـــم
وحبـــك فـي الخوافـــي مبتليبـــه
أجلـــد صـــبر نفســـي بالعزايـــم
ولـــو مـــاروم وهـــي لـــي صعيبـــه
وكيـــف أنـسى الحبايـب والندايـــم
وأنـــا فـــي النـــوم قلـــي إيهذيبـــه
رعـــاك اللـــه يابـــدر التمايـــم
عن الواشـــين وعيـــون الرجيبـــه
وصلـــوا عد مـــا هـــبت نسايـــم
علـــى طـــه حبيب اللـــه وحبيبـــه

القصيدة للشاعر حمد بن أحمد بن حمد بن خلفان بن سوقات الفلاسي، ولد في بيئة شعرية، حيث كان والده وأخوه محمد وأخته من شعراء الإمارات البارزين في حقل قصائد المشاكاة. واشتهر الشاعر بتبادله القصيد مع المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - وكذلك بعمق المفردة وجزالة المعنى. وفي هذه القصيدة العذبة المتراتلة في سردها الشعري يقف الشاعر على الأطلال حينما سمع تغاريد الحمايم بألحانها العذبة الشجية التي جعلت حاله سقيماً هائماً حزيناً، حيث أعاد له ذلك التغريد ذكريات وشجون على فراق أحبته، ويذكر هنا خصال المحبوب الذي لايتوانى عن تواصله من إحسانه وطيب أخلاقه، ولكن سعى أهل النميمة للفراق بينهم على الرغم من أن الشاعر كتم مشاعره ولم يبح بما في سره لهم حتى لا يعلم العدو والقريب أيضاً خشية ممن يسعون إلى الفراق والقطيعة، ثم أردف الشاعر بدعواته رغم البُعد بأن يتم المحبوب في الحفظ من كل سوء على الرغم من مصاب مهجة القلب ما جعل الجروح القديمة تتداعى وتنزف ويزداد الألم حتى كأن أحداً لم يصب أو يشعر بما يختلج في صدره من حزن وشجن على فراق محبوبه، ثم يقول ورغم هذا فلن أنساك مادمت حياً ومازال حبه في الخوافي باقياً على الرغم من محاولته للنسيان، ويقول أصبّر نفسي بالعزم ولكن لا أستطيع لصعوبة ذلك، ثم يتساءل وكيف أنسى من أحبهم وأنادمهم وأنا حتى في المنام أذكرهم؟ ثم يعود بدعوة لأحبته أن يرعاهم الله ويحفظهم عن أهل الوشاة والعيون التي تترقبهم ثم ختم القصيدة بما جرت عليه عادت الشعراء بالصلاة على النبي ختماً للقول.

المفردات: شجا: حزن واهتاج للذكرى. لعن: يلعن بالصوت أي يجره شجنا. جاتم: من الكتمان. الوشايم: جمع وشم وهو رسم للزينه. المصيوب: المصاب. بليبه: ابتلى به. ماروم: لا أستطيع، أجلد: من الجلد وقوة الصبر. يهذيبه: يذكره من دون وعي أو تفكير.

نحو مهد العالم «رسائل من الهند»

رحلة شاعر «الغسقية» والغروبية.. الإيطالي «غويدو غوتسانو»

محمد عبد العزيز السقا

نحو مهد العالم «رسائل من الهند»

رحلة شاعر «الغسقية» والغروبية.. الإيطالي «غويدو غوتسانو»

محمد عبد العزيز السقا

هي الهند إذن، تلك الوجهة التي ملأت الدنيا بسفرائها قبل أن يقطنها قاصدوها سلماً أو حرباً طوعاً أو كرهاً، من ذا الذي يستطيع إنكار رائحة التوابل الفواحة في كتب التاريخ والجغرافيا فضلاً عن الاقتصاد والسياسة، لكن اختياري اليوم من خزانة أدب الرحلات العامرة إلى قراء «مجلة تراث» الغراء، يأتي بعد مئة وعشر سنوات مرّت على كتابة تلك التحفة الأدبية البديعة في الهند، كتاب غوتسانو «نحوَ مَهْدِ العالَم: رسائل من الهند»، وهو باللغة الإيطالية من تأليف: «غويدو غوتسانو»، الذي حصل مترجمها إلى العربية الشاعر السوري «أمارجي» باستحقاق على جائزة ابن بطوطة في أدب الرحلة، فرع الرحلة المترجمة.

الرحلة والرحالة:

في مدينة تورينو الإيطاليَّة وُلِدَ غويدو غوتْسانو، في 19 ديسمبر 1883م وتوفاه الله فيها وله من العمر 32 عاماً متأثراً بإصابته بالسل. ارتبط اسمُه بالغُروبيَّة أو الغسقيَّة، الذي شاع كمذهب في الشِّعر الإيطالي أوائل القرن العشرين يخلط بين السُّخرية والكآبة. قام برحلةٍ استشفائية إلى الهند في عام 1912م، ما بين شهري فبراير وإبريل، كان من المقرر أن يقوم خلالها بزيارة مدينة بومباي وجزيرة سيلان، وكتب كتابه «رسائل من الهند» الذي نشِر بعد سنةٍ من موتِه. وجاء الكتاب في 15 فصلاً، بلغة تمزج الساخر بالجاد، والشاعري بالتصويري، مع لقطات تصويرية للإنسان والطبيعة، توثق الزمن ببراعة، تنفتح على الإنسانية وتتواصل مع الروحانية الهندية الخاصة.

السرد واللغة:

الغرض الأساسي من رحلة غوتسانو إلى الهند كان العلاج، فجاءت السمة الرئيسية لصفحات الكتاب هي الموت، فاقترن في نصوصه السفر والموت، حتى أنهما ليبدوان كحلقة واحدة. وسنجده يتحدث في كثير من المواضع عن المدن الميتة التي زارها بحساسية شعرية، وعن الاقتران بين مصيره كإنسان ومصير هذه المدن الميتة. لغة السرد الرحلي عند غوتْسانو يهيمن عليها لغة شِعريَّة ذات كآبة وإحساس بالموت، ولكنَّها لا تخلو من رغبة درامية في الفرح والحب لا تلبث أن تصطدم بالحقيقة اليوميَّة لمرضِه، وبيأسٍ مرير.

«كانت رغبته في الحياة قد شارفت على النفاد، ورغبته في الموت كانت لا تزال تتلكأ أراه مقشعراً بكليته من البرد ومتشنجاً طفلاً أثيراً شاحباً وهزيلاً أمام النار الضئيلة المتزعزعة، نار حياته، كما رأيته من قبل ذات نهار غزير المطر شديد البرد أمام موقد الطعام، في نُزل جبلي صغير نَزَلَ به، قبل نزوله بالهند ناشداً بعض العافية»*.

«غوتْسانو» مؤلف ساخر، حتى من نفسه في كتابته، نتعرف معه في الهند على عالم، ليس من خلال عينه فقط، بل من منظار الذين عاشوا وعانوا من الاستعمار البريطاني أيضاً، هناك نبرة شفقة ومواساة في نبرته، من خلال مقاربة بين الواقع المنظور

واستدعاء الذكريات. تلك التحفة الفنية والأدبية الموغلة في الحزن والأسى جاءت تجريدية فريدة لشاعر إيطالي له مكانة أساسية في الشعر الإيطالي، ويعتبر أحد المؤثرين الأساسيين في انتباهات الشعراء الإيطاليين في القرن العشرين.

في الكتاب سيصف غوتسانو إقامته في بومباي، ويقدم وصفاً للإنجليز الذين حكموا الهند، متحدثاً عن البريطانيين الذين يذهبون إلى إلفانتا، وهم يذهبون من أجل شيئين فقط: تناول الطعام وممارسة الحب وهكذا يجرد الكاتب الواقع في أضيق توصيف. ستسمع عبر سطور الكتاب صرخات بومباي ورائحتها الحادة، وترى مدينة تموج بالحركة، حيث السفن المقبلة من شتى أرجاء العالم، ويضع بين أيدينا وصفاً لنشاط الصيد البحري كحركة اقتصادية أساسية متعددة الجنسيات، ستهرك الأوصاف والصور الحقيقية التي يمكن للسينما استخدامها، مثل: سيدة شقراء تنزل من باخرة، ويرفعها عن الأرض عملاقان قويان، سينبئك الوضع بتفاصيل عن سلوك الهندوس الذين يشرحون أشياء كثيرة عن عقليتهم، يقول غوتسانو إنه عندما شرعوا في تفريغ السفن التجارية من البضائع أخذوا في الغناء، وعلى الرغم من العمل الشاق الذي كانوا يقومون به. فإنك ستجد كمّاً هائلاً من التفاصيل قلّ أن تجده إلا في تقارير السفر الخاصة بالملاحين في ذلك الوقت.

يتعامل الرحالة الشاعر مع الموضوعات الشرقية الهندية بروح علماء إثنوغرافيا القرن التاسع عشر، ولكن تصوراته تتمايز عن التصورات السائدة لدى كبار المعبرين عن المركزية الغربية من الكتّاب الأوروبيين، وهو أمر يحسب له. هذه الصفحات التي

تزيد على المئتين، تحتفظ لنا بصور ومشاهد وحالات من تلك الروحانية الهندية التي لا تزال تميز الشخصية الحضارية للهند والهنود.

من الكتاب:

خيبة الأمل.. أحجار ميتة

.... مرة أخرى ألامس أقصى حدود خيبة الأمل، وأدفع ثمن فضولي المرضي المتمثل في رغبتي في رؤية حقيقة الأحجار الميتة من كثب، في رؤية الأشياء ممجدة بالتاريخ، وبالفن، ومتغنى بها في قصائد الشعراء، وهي لم تعد موجودة، ولن تكون مرة أخرى موجودة، كما لو أنها لم تكن أبداً! طرقات لا نهاية لها، تتناوبها قصور منهارة، خاوية كجماجم الموتى، واخضرارات وحشية تعتلي جدراناً ضخمة وعالية، وأبراج عظيمة مغطاة بكتل متدلية

من كزبرة البئر، وبنباتات متسلقة متورمة الجذوع، مرقطة كالأصلات؛ وكنائس، وأطلال دينية أشد إيحاشاً من الأطلال الدنيوية. أتوقف في البرودة الظليلة لقنطرة ذات عقد معماري مدبب، قنطرة بقيت قائمة بمعجزة، ربما لأن جداراً واحداً باقياً ظل يسندها. يوهمني حنيني للحظة أنني داخل كنيسة من كنائس رومانيا أو أبروتسو ولكن ثلاثة قرود فاحشة - هي الرمز الرؤيوي الدقيق للشيطان - تشغل حيز الحنية المعمارية، وسرباً من الببغاوات المتناهية في الصغر يسرع على امتداد الأقواس القوطية الأربعة. لا اللبلاب، ولا السحلية الودود ما يبث الروح في هذا الحجر الميت، بل نبات زاحف غريب ذو أزهار تبدو وكأنها تقهقه، وحرابي شيطانية، حولاء العينين... من الأعلى، مدت شجرة جوز هند إلى داخل الكنيسة ورقة هائلة راحت تهزها برفق وهوادة، ملقية إلى الأرض بظل يد تمنح البركة.

يبدو لي شعوري بالوحدة أكثر اكتمالاً الآن، وأكثر توقداً تبدو لي رغبتي في المغادرة، بعد أن عرفت أنني كنت أقتفي أثر مبيت في مدينة ميتة. يعرض علي الرهبان استضافتي، ويصرون على ذلك: أمامي عشرة كيلو مترات قبل الوصول إلى بانجيم، المدينة الجديدة حيث يمكنني العثور على نُزُل؛ وسوف يرخي الليل علي سدوله في منتصف الطريق.. لست أبالي. يشيعونني إلى الباب؛ أصعد منصباً يجره ثور دربان، عربة أشبه ما تكون بنعش أو بمغطس، يستقر فيها الراكب شبه مستلق على ظهره، رافعاً أو خافضاً ما يشبه حاجباً شمسياً على وجهه. وبأقصى سرعة ننطلق صوب غوا الجديدة.

مدينة غوا الجديدة

غوا الجديدة.. مدينة أشبه ببلدة ريفية من الماضي، بعاصمة من عواصم جمهوريات الموز في نهاية القرن الثامن عشر. أقضي أمسيتي بأكثر الطرق ابتذالاً لكي أقنع نفسي بأني ما أزال حياً وموجوداً في الزمن الحاضر. أدخل قاعة عرض سينمائي. ثم أمشي إلى أحد المقاهي وسط هذا الحشد الكبير البعيد تماماً عن الأناقة المتقنة للإنجليز وعن الرونق الأغر للهندوس، حشد من المزج من البرتغاليين الذين يتكاثرون كالأعشاب الضارة تحت هذه السماء، صامدين للأنقاض، وأكثر عناداً من الحجر، وبكل مباهاة يلقبون أنفسهم بالتوبّاس. أي الأوروبيون «الذين يضعون قبعات»، ولكنْ لم يبق شيء لهم مما هو أوروبي، مع تينك الكتفين الواهيتين، والساقين الضامرتين، والوجه الزيتوني الأعجف، والعينين القردتين المتقدتين تحت جبين مقعر؛ ولديهم مشية فروسية متنافرة، وهم جميعاً مهندمون ومدهونون، ويدخنون سيجاراً ضخماً، وتصحبهم رفيقات واهنات يختلن في زيٍّ يعود إلى عشر سنوات خلت، وهو فضلات ملابس يشحنها إليهن أحد المتاجر الأوروبية.

أفعى الكوبرا!

... ولكن ماثيو الذي يسير أمامي يتوقف فجأة على العتبة ويصيح بصوت عال مذعوراً ومبتهجاً:

- كوبرا! كوبرا! هذا أفضل فأل يمكنك أن تتمناه!

أي مخيلة غريبة يملكها الهنود، ليرمزوا إلى الأمل البهيج برسول الموت الأكيد هذا! - تكاتورا - تكا: «سبع خطوات أخرى»، هكذا يسميه السنهاليون، لأن الضحية، كما يقال، تترنح سبع خطوات إضافية، ثم تسقط متخشبة. إنه بلا شك من بين أكثر الزواحف فتكاً، مع أن مظهره ليس بالمظهر المروع...، التفت الكوبرا على نفسها، مشرئبة بنصف جسدها وقد انتفخت رقبتها وتمددت من الغضب، ورأسها المثلثي الصغير ذو العينين الحمراوين كالياقوت، واللسان المشقوق النافث، يدور حول نفسه، راصداً الرجل، ومتأهباً للدفاع عن نفسه. ولكن الرجل يتركه وشأنه، فيسترخي الزاحف، ويتمدد، ويختفي في الأجمة؛ المجد له هو في يوم الميلاد المجيد أيضاً...

فضيلة الخدم الهنود

باترك وماثيو يجيئان ويذهبان صامِتَين، يراقبان كل إيماءة من إيماءاتي بتلك الحمية المخلصة التي هي فضيلة عظيمة من فضائل الخدم الهنود يراها كل المسافرين أعجوبة من العجائب. وضع ماثيو في منتصف الطاولة، داخل علبة مصبرات، حزمة ضخمة من أزهار أوركيد جمعها في جولة هذا الصباح، وطبقاً من حبات مانجو ضخام...

عصافير المونيا الحمراء

ساعة القيلولة الاستوائية على كرسي استرخاء قابل للطي، ساعة الصمت المناسبة لرؤية عصافير المونيا الحمراء، تَغِيْرُ عصافير المونيا الصغيرة، الحمراء منها والمخضرة، المرقطة بالأبيض، سراعاً من إحدى جهات الردهة،... يهبطون ويحطون على مساند الكراسي، وعلى الرفوف، وعلى الأرض، لينقروا فتات الإفطار، يهبط الواحد تلو الآخر ثم يهبط الجميع، ويقفزون مع سقسقة خافتة، وقد اطمأنوا إلى

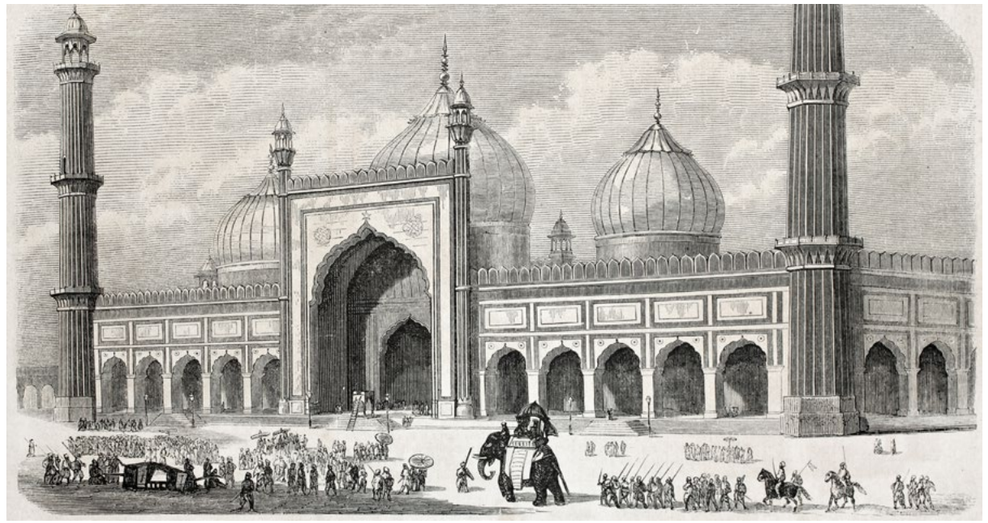

المتسربل بالأبيض. أمد ذراعاً وأرمي صحيفة لأرى أي مدى بلغت جرأتهم، فلا يتزحزح هؤلاء المغاوير الصغار إلا قليلاً. في صهد الظهيرة الأخرس الخانق، تتناغم تلك السقسقة الوقحة مع تكات ساعة البندول القديمة التي وسمت ساعاتٍ من حياة الكثير من المنفيين، تتناغم مع الغناء المكتوم للخادِمَين.

لقد توقف باترك وماثيو عن العمل. إنهما متمددان على الأرض ووضع كل منهما ظهره إلى الحائط، يغفوان ويغنيان. حلمهما الخامل يترجم نفسه، عبر الأسنان المطبقة، إلى موسيقى ناعسة وغريبة، موسيقى ما هي إلا فعل انعكاسي، وتعقيب على الواقع، وإعادة صياغة للعزلة والمنفى، للحر والصمت.

الختام:

لقد آمن الرجل بالفراشات، بهجة لناظريه وبالأفلام السينمائية، خبزاً لأيامه، وببعض الأصدقاء، وآمن قبل كل شيء بالشعر مكتوباً بكلمات قليلة مطبوعاً في نسخ غير مشتراة بالرشوة، ومأخوذ حتى أقاصي التجريد التعبيري، من دون جلجلة أسلوبية لأن كلماته لا تفتقر إلى أصداء شعرية غنائية فهناك تاج محل بسروه البرونزي وسمائه الكوبالتية يعوّض بعضاً من ذلك الشيء «الخارق لنواميس الطبيعة» الذي كان يأمل العثور عليه في الهند، وهناك جايبور وتلك الصفحة عن الفواكه والأزهار، وفاتح غوا)، وهناك ذلك «الخبل البهيج الذي يصاحب الآلام اللامتناهية لبعض المسلولين»، وعن النهاية، هناك نعيق الغربان الختامي: «الصوت الآخر الذي يمثل النوتة الصوتية للهند، الصوت الذي على المرء أن يعتاده كما يعتاد في بعض البلدان هدير البحر أو السيول: نعيق الغربان الفائق الرتابة والمثابرة، الذي لا يكسر الصمت، بل يبرزه: نعيق - ترنيمة إلى التعفن يتفجّر فيها التتابع الصوتي لكل الراءات، حتى لكأن الأذن تتبين فيها كل الكلمات غير الجذلى: تذكر! تذكر! الاحتضار! الموت! سوف تموت!»**

رحلة حج غوتسانو إلى «مهد العالم» مصفوفة تشرح تمثلاته المتعلقة بالشرق، في صورة نصٍّ أدبي وسردية رحلية في آن، تقدم وعياً يستكشف وعينا، تراقب الحقيقة بفضولية تختلف كليةً عن الصورة النمطية للرحالة الأوروبيين إلى الشرق ولتبقى الدعوة مفتوحة للقارئ أن يكتشف هذه الرحلة بنفسه التي ستظل تشغل مكانة أساسية في أدب هذا الشاعر، وفي خزانة أدب الرحلات.

وإلى اللقاء في رحلة مقبلة ■

*باحث في أدب الرحلات

الهوامش:

*/** (انظر مقدمة جوزِيْهْ أنطونيو بورغيزِهْ 1917م). من الرحلة.

المراجع: - نحو مهد العالم: رسائل من الهند، تأليف:غويدو غوتسانو، ترجمة: أمارجي، منشورات المتوسط ودار السويدي للنشر 2020م.
- مجلة الأديب، جامعة ميشيغان، 1963 - نسخة إلكترونية V22 /ج2.
- الأدب الإيطالي، بيترهينسورث، ديفيد روبي، ترجمة نور طلال نصرة، دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي، مركز أبوظبي للغة العربية، مشروع كلمة للترجمة 2021م.

الحَداثةُ الشعريةُ بينَ الرفضِ والقَبول

عبد الرّزاق الدّرباس

تُعتبَر الحداثةُ بوجهٍ عام، والحداثةُ الشعريّةُ على الخصوصِ مُصطلحاً واسعاً وإشكالياً لدى الشعراءِ والنقاد والباحثين منذ القديمِ وحتى الآن، وقد تعدّدتِ الاتجاهاتُ والتنظيراتُ بهذا الشأن، حتى يمكنَنا القولُ إن انقساماً قد حصلَ بين المهتمّين بالحركةِ النقدية كباحثين، والشعراءِ أنفسِهم حول حدودِها وأهميّتِها والموقفِ منها والاستجابةِ لها، وفي هذا المقام سنبسطُ القولَ في الحداثةِ الشعرية بين الرافضينَ لها والمهلّلينَ، ومن أمسكَ عصاها من الوسط.

والحداثة الشعرية تعني انفتاحَ الشاعر والقصيدة على مستجدّات الزمن، والمرونةَ في التعاطي مع مستحدثات الأفكار والموضوعات والتجديد الأدبي، دون انغلاقٍ وقوقعةٍ حول الموروث وتقديسهِ وعزله عن الحاضرِ والمستقبل، وهذا يقودنا للتفريقِ بين الحداثةِ في القالبِ الفني والحداثةِ في محتوى الموضوعات، ومواكبةِ المستجدات العصرية..

أولاً - حداثة المبنى والشكل: والمقصود بها الإطارُ الفني لمحتوى الأفكار، حيث درجت الذائقة العربيةُ للشاعرِ والمتلقّي، على القصيدة البيتية العمودية بنمطِها الكلاسيكي، وهنا جاءتِ الحداثة غيرَ معترفةٍ بقداسةِ بحورِ الخليلِ بن أحمد، وبرهنتْ على رأيها باتساعِ المدى الموسيقي لتوليد بحورٍ جديدة، أو اجتزاءِ تفعيلةٍ محددةٍ من بحرٍ عَروضي والدورانِ فيها دون غيرها،

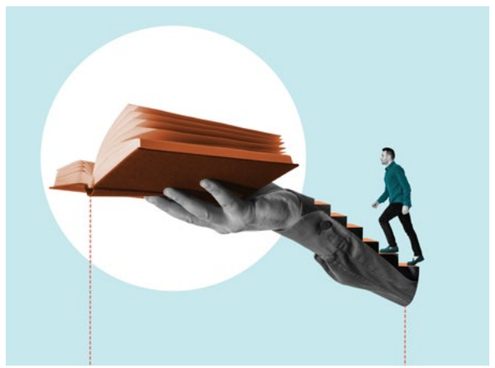

وتعددِ القوافي ضمن القصيدة الواحدة، وكسرِ جمودِ الشكلِ القديم للقصيدة، وتعود جذورُ ذلك للموشحاتِ الأندلسية وبنائِها الشكلي، وما تطوّر بعد ذلك من تشطيرٍ للقصائدِ والأشعارِ الغنائية، التي استجابتْ لمتطلبات شيوعِ الغناء، وصولاً لقصيدةِ التفعيلةِ الجديدةِ التي ترسّختْ مع تجاربَ ناضجةٍ لجيلٍ من روّادِ الحداثة الشكلية، أمثال فدوى طوقان ونازك الملائكة وبدر شاكر السيّاب ونزار قباني وفرسانِها الأوائل، ومن أمثلةِ ذلك التحوّل الشكلي في القصيدة نأخذ من الإرث الشعري هذه الأبيات القديمة التي يقول فيها الشاعر غيلان بن عقبة التميمي، ذو الرّمة، الذي عاش زمن الخلافة الأموية (77 - 117 هجري) في موضوع وصفِ العيون الجميلة:

وعَينـــانِ قالَ اللـــهُ: كُونا فَكانَتـــا
فَعولانِ بالألبـــابِ ما يفعـــلُ السِّحْرُ
فَيا حبَّهـــا زِدْني هَـوىً كـــلَّ ليلـــةٍ
وَيا سَلْوةَ الأيّـــامِ مَوعِدُكِ الحَشْرُ

وبالانتقال لشاعرٍ حديث يصفُ العيونَ والتجليات التي تتركها في النفس، وترتبطُ بالبيئة وتسلك مسارَ التحديثِ الشعري في الشكل الفنّي والبناء، نقرأ للشاعرِ بدر شاكر السيّاب (1926 - 1964 ميلادي) في الغرضِ نفسه لكنْ بثوبٍ عصري جديد في قصيدتِه الشهير؛ أنشودة المطر حيث يقول:

عيناكِ غابتا نخيلٍ / ساعةَ السَّحَرْ/ أو شُرفتانِ / راح ينأى عنهُما القمرْ.
وتغرقانِ في ضَبابٍ/ من أسىً شَفيف..
دفءُ الشتاءِ فيهِ / وارتعاشةُ الخريف..
كأنَّ أقواسَ السحابِ تشربُ الغيوم / وقطرةً فقطرةً تذوبُ في المطرْ..

وهنا يتّضح نجاحُ الحداثةِ لدى السياب من حيث البقاء في دائرةِ الموسيقى والإيقاع الذي هو الفيصلُ بين الشعرِ والنثر، مع توسيعهِ لإطاراتِ التفعيلةِ والتنويع في الروي.

ثانياً - حداثة المعنى والمضمون: وهي التي تتعلقُ بالنظرةِ للشيء ووصفه، وتطور تلك النظرة عبرَ الزمن، والتأثير المتبادَل بين الشاعرِ وتجربته الوصفية في إنتاج الصورةِ الشعرية، ولكي تتضحَ القضيةُ في المحتوى سنختارُ نموذجاً لوصفِ شَعرِ المرأة لدى أحد الشعراء من العصر الجاهليّ، من معلّقةِ امرئِ القيس؛ حندج بن حجر الكنديّ (500 - 540 ميلادي)، حيث وصف شَعرَ المرأةِ بدقّةٍ وصفاً ظاهرياً مادياً فقط، بألفاظٍ من معجم تلك الفترةِ الموغلةِ في القدم، إذ يقول:

وفَرعٍ يَزيـــنُ المتْـــنَ أســـوَدَ فاحِـمٍ
أثيثٍ كَقِنْـــوِ النَّخلـــةِ المُتعَثكِـــلِ
غَـــــدائِرهُ مُستَشـــزِراتٌ إلى العُـــلا
تضـــلُّ العُقـــاصَ في مُثنّى ومُرسَـــلِ

ونبقى مع شَعرِ المرأة الأسودِ الفاحم لنراه من خلالِ مضمونٍ وصفي جديد عند الشاعر نزار قباني، الذي بقي محافظاً على البيت الشعري ووزنه العروضي، من مجزوء الرّجز، حيث يقول:

يـــا شَعرَهـــا علـــى يَـدي
شَـــلّالُ ضَـــوءٍ أســـوَدِ
هُنـــاكَ طاشَـــتْ خَصلـــةٌ
كَثيـــرةُ التَّمَـــرّدِ
تُـــوزّعُ اللَّيـــلَ علـــى
صَبـــاحِ جِيـــدٍ أَجْيَـــدِ
قَـــدْ نلتَقـــي فـــي نَجمَـــةٍ
زَرقـــاءَ لا تَستَبعِـــدي

ثالثاً - مواكبة المستجدات العصرية: والمقصودُ بها تجاوز القصيدةِ للأغراض التقليدية التي شكّلت على مدى قرون محتوى النصوص، كالغزل والرثاء والمديح والعتاب والفخر والحماسة والشكوى،... إلخ، والتقدّم بثقةٍ نحو ما أفرزته الحضارةُ الحديثة من أحوال وآلات، وما استجدّ في الحياة اليومية للناس، ومن ذلك سنختارُ نصاً أخذَ الشكلَ القديمَ للقصيدة من بحر البسيط، لكنه أتقنَ وصف المذياع (الراديو) تلك الآلةِ العجيبةِ التي قرّبت إليك العالم، مع حرية اختيارِ المرء في سماعِ ما يريد، وترك ما لا يريد بوساطةِ مفاتيح التحكّم، وهذا النص للشاعر محمود غنيم (1901 - 1972 ميلادي) في وصف الراديو:

شـــادٍ تَرنَّمَ لا طَيْـــرٌ وَلا بَشَـــرُ
يا صاحبَ اللّحنِ أينَ العـــودُ والوَتَرُ؟
كأنّما الكُـــرةُ الأرضيّةُ انحَصـــرَتْ
في صُغرِها والوَرى في جوفِها انحَصروا
قَدْ حكّمَتـــنيَ في الأصـــواتِ لوحتُها
فَصِرْتُ أختـــارُ ما آتـــي وَمـــا أذرُ

وفي مواكبةٍ راهنةٍ لكل المستجدات التي تمرُّ بكوكبنا، من حروب وأوبئة وأحداث مفرحة وأخرى محزنة، أثبتتِ القصيدةُ العربية

طواعيتَها، في الشكلِ والمضمون، ومن آخرِ الأدلة على ذلك ذاك النتاج الشعري الكبير، في وصف الطائرة والهاتف والحاسوب ومنصات التواصل، وما أفرزتْهُ الثورتان؛ الصناعية والتقنية، وآخرُ تلك الاستجاباتِ الشعرية انعكاسُ أثرِ وباء كورونا (كوفيد 19) الذي اجتاحَ الكرةَ الأرضية فشلّ حركتها، وأوقفَ عجلةَ اقتصادها وقيد نوارسَ أسفارها، وهنا تبزغُ القصيدة في رصانتِها وعصريتِها، لتدلي بدلوِها، ونختارُ أبيات الشاعر الدكتور عبد الرحمن العشماوي، الذي عاش التجربةَ وسألَ الوباءَ عن نفسه، فأجابه بجوابٍ إيماني يتردد في خاطر الشاعر الذي قال:

أهكَـــذا تَسجُـــنُ الدنيـا وَمَن فيهـــا
سَجنـــاً يُكَبّـــلُ قاصيهـــا وَدانيهـــا
مَن أنت؟ كيـــفَ اقتحمْتَ الأرضَ قاطِبـةً
فمَـــا تُصافِحُ كـــفٌّ مَن يُحَيّيهـــا
مَن أنتَ؟ قـــالَ: أنا مِن جُنـدِ خالِقِنـــا
قَضى فأمضى فأعطـــى القوسَ باريهـــا

أما عن الذرائع التي ساقها رافضو الحداثةِ الشعرية، فيمكن تلخيصها في طولِ الفترة التاريخية التي رسخّت القصيدةَ العمودية في ذائقة الجمهور، ولذا كان من غير السهلِ هدمُ تلك البنية التي كرّسها الزمن، ودرجَ عليها الشعراء والنقاد والمستمعون، وإذا كانت الحداثة قد أصابتِ القصةَ والروايةَ والمقال فإن تلك الأجناسَ كانت وافدةً إلينا من الغربِ، أما الشعر فهو ديواننا الموروث الذي يجب ألا نمسّ أركانه بتحديثٍ أو تغيير، وإلا نكون هادمين لتراثنا ومجدنا التليد. والحقيقة كما يقول الفيلسوف اليوناني أرسطو هي منزلة وسطى بين حدّين مرفوضين، فالكرم حالة وسطى بين الشحّ والتبذير، والشجاعة منزلة محمودة بين الجُبنِ والتهور، فإنّ الوقوفَ في وجهِ الحداثة الشعرية سلوكٌ قاصرٌ عن إدراك صيرورة الزمن، وفي الوقت نفسه فإن الاندفاعَ الفوضوي غيرَ المحسوب نحو الحداثة، يهدم ركائزَ الجمال في القصيدة العربية، فالموسيقى والإيقاع والقافية، والصورة الفنية، والعاطفة المتدفقة، والصدق الشعوريّ، عناصرُ يجب أن تبقى في القصيدة مهما اعتراها من تطور وتحديث.

إنّ النقاد العربَ القدامى أمثال قدّامة بن جعفر، والآمدي، وأبي هلال العسكري، وابن سلام الجمحي، لم يقفوا في وجهِ الحداثة خلال تصانيفهم النقدية وجمعهم لنتاج الشعراء القدامى، بل كان معيارُهم الأولُ في الشعرِ هو الجمال والجودة، والتأثير الإيجابي في الجمهور المتلقي، لذلك كانوا حصيفينَ في تناولِ الحداثة الشعرية، ونتيجةً لهذا الموقف المتوازن من الحداثة الشعرية ضعّفوا نصوصاً رغم أهمية شعرائها، ومدحوا نصوصاً رغم ندرةِ نتاج أصحابها، فقد عابوا على المتنبي قصيدته في هجاء خصمه ضبّة الفزاري، كما أشادوا بلاميةِ السموءل رغمَ قلّة نتاجه، لما تحمله من رصانةِ السبك وقوة الفخرِ والقيم التي تدعو إليها في تلك الفترة، فما كانت الحداثةُ لديهم اندفاعاً هدّاماً للقديم، ولم تكن الأصالة لديهم انطواءً على الموروث فقط دون تجديدِه ومرونتِه.

ومن ذلك المنظورِ الصحيح يجب أن نرى الحداثةَ، لأن حركةَ الأيام واقعةٌ لا محالة، والقصيدة يجب أن تتسلحَ بالجمال والاستجابةِ الصحيحة لحركةِ الزمن، دون أن تهدمَ أركانها الأساسيةَ وتفقد ميزاتِ هويّتها المتأصلة، لنخلصَ إلى قناعةٍ راسخة بأنَّ الحداثةَ الشعرية في مثلثها الشهير: الشكلِ والمبنى، والمحتوى والمعنى، وفي الاستجابة للمستجدات، تبقى مطلباً ضرورياً وانعكاساً منطقياً إبداعياً لحركةِ الحياة والبشر والمجتمع، مع المحافظةِ على الجمال والإبداع الأصيل والتطوير، وهنا تكمنُ مسؤوليةُ الشعراء، وهم يرسمون الجَمال بكلماتِهم، ويبحثون عن الجديدِ المبتكَر المؤثّر في إنشادِهم ■

*شاعروأديب سوري

المصادروالمراجع:

1. أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، دار العلم للملايين، بيروت - 1995.
2. أحمد بزون، قصيدة النثر العربية، دار الفكر الجديد، بيروت - 1996.
3. د. خليل موسى، بنية القصيدة العربية المعاصرة، جامعة دمشق - 2003.
4. د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة - 1985.
5. د. عبد المجيد زراقط، الحداثة في النقد المعاصر، دار الحرف الأدبي، بيروت - 1991.
6. شبكة البحث المعلوماتية، محرك غوغل، google.

بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح

(التّطوّر الدّلالي للألفاظ في اللّهجة الإماراتيّة)

محمد فاتح زغل

أكاديمي وباحث في التراث

التّطوّر قانون عام يخضع لسلطانه كلّ مجتمع في شتّى النواحي، ولهجة الإمارات لحقها هذا التّطوّر في العديد من الألفاظ ما ينبئ عن أصالتها وتتجلّى هذه الأصالة في: أنَّ غالبيّة ألفاظ اللّهجة الإماراتيّة تسايرُ نهجَ العربيّة الفصحى، كما يشيع في هذه اللّهجة الكثير من الألفاظ العربيّة. ولا شكَّ في أنَّ لكلّ تطوّر دلاليّ أسباباً ودواعيَ تُسهم فيه، ومن هذه الأسباب الدينيّة واللهجيّة، واللغويّة، والصّوتيّة، والاجتماعيّة. ولعلّ خيرَ مثالٍ على توافر التّطوّر الدّلاليّ في أيّ لغة أنّ كثيراً من المعاجم العربيّة قد حفظت في أثنائها ما يعزّزُ ذلك، فالعجوز مثلاً لها ثمانون معنىً على وفق اللّهجات وغيرها كثير. وممّا يمكن عدّه من الألفاظ في هذه اللّهجة في هذه المسألة:

أَبُويَه، وأُمَيَه: تقولُ الأمُّ عندما تنادي ابنَها، أو أحد أبناء العائلة، أو الحيّ، (أَبُويَه، تعال هِنِيَة)، ويقول الأبُ في نداء ابنته الصغيرة، أو غيرها من بنات العائلة، أو الحيّ: (أُمَيْه، سيري الدكان)، والقول نفسه بعيد نداء الابن أمّه: أُمَيْه، إذ تناديه بقولها: أبُويَه، أو بعيد نداء البنت أباها: أبُويَه، إذ يناديها بقوله: أمَيّة، ويحمل محمد المرّ هذا العدول على الرغم من توافر قرينة الحضور - على أنَّ كثيراً من النّساء كنَّ يسمّين أبناءَهُنَّ بأسماء آبائهنَّ، وأنَّ كثيراً من الرّجال يسمّون بناتهم بأسماء أمّهاتهم، ويتبدّى لي أنّه يمكنُ حملُ ذلك على تذكير الأب ابنَه بأمّه، أو تذكير الأمّ ابنها بأبيه؛ لأنّ قرينةَ الحضور تُغني عن تذكيره بالمنادي الحقيقيّ، وهو ما يُعدُّ من باب إيثارِ كِلهما الآخرَ على نفسه، وشدِّ الطفلَ إليهما معاً لا إلى أحَدِهما.

أبو تِيْرَة (بو تِيْرَة، وبو طِيْرَة): تُطلقُ هذه اللّفظة في اللّهجة الإماراتيّة على ثَوْبِ العَروس، ودِلالةُ هذه اللفظةِ يُمكن أنْ تُتَوهَّم من التِّيْر، وهو التِّيْهُ، والكِبْرُ، والتَّيَارُ، وهو التَّائِهُ المُتَكبّر: لأنّ العَرُوسَ تكونُ كذلك بهذا الثَّوْبِ، لأنَّ الحاضرينَ جميعُهم، ولا سيَّما النِّساءُ يرْغَبْنَ في أنْ يرْتَدينَ هذا الثَّوبَ: لإظْهارِ الخُيَلاء والتِّيْهِ، كما يظهرُ لي، على أنّ التَّاءَ قُلِبتْ طاءً في (بو طِيْرَة) في هذه اللّهجة، أو أنَّ هذه اللَّفظةَ من الطِّيْرَة والطَّيْرُورَة، وهي الخِفَّةُ، والطَّيْشُ، والطَّيْرُ: الحَظُّ.

أَخَذَ: من معاني الأخْذِ في العربيّة: التَّناولُ، والقُبولُ، والحَبْسُ، والعَذابُ، والعُقُوبَةُ، والقَتْلُ، والأَسْرُ، ومن معانيه في هذه اللّهجة: الزّواجُ، وهو معنى لم يُطالعْني في مَظَانِّ اللّغة التي عُدْتُ إليها، كما في قولهم: (فُلانَةٌ خَذْهَا (أَخَذَها) فُلان)، (العائِلةُ الفُلانِيَّةُ خَذُوا بِنْت فُلان (تَزَوَّجَها ابنُهُم)، ومن ذلك قوله عليه السلام: «خذها بما معك من القرآن».

أَكْلَة: تُطْلَقُ هذه اللّفظةُ في هذه اللّهجةِ على الطَّعام الذي يُقَدِّمُه أَهْلُ الطَّالِبِ بُعَيْد حِفْظِه سُورةً من القرآنِ الكريمِ. يلبسُ الطِّفْلُ في أثناءِ يومِ الأَكْلَةِ هذه ملابسَ جديدة أو نظيفة، ويسيرُ مع الأطفالِ في مَوْكب الشوارع يردّدُونَ في هذا المَوْكِبِ الأَهازيجَ.

بَغْشَة (بَغْشَه): تُطْلقُ هذه اللّفظةُ في هذه اللّهجةِ على الكِيْسِ الذي يُوضَعُ فيه القمحُ، أو الشعيرُ، أو الأرزُ، (جُونِيَّة، يُونِيَّة، كُوْنِيَّة)، وهذه الدّلالةُ يُمكن أنْ تُتَوهَّمَ من: خَبَشَ الأَشْياءَ (جَمَعَها، وَتَناوَلَها)، على أنَّ الأصلَ: خَبْشَة، بِوَضْعِ الباءِ في هذه اللّهجة مَوْضِعِ الخَاءِ، كما يظهرلي، ولَسْتُ أَسْتَبْعِدُ أنْ تكونَ هذه اللّفظةُ دَخِيْلةً إلى هذه اللّهجة من الإنكليزيّة «Package»، ولعلَّ ما يعزّزُ ذلك أنّها تُلفظُ في بعضِ المناطقِ: بَقْشَة، وبَغْشَة، وهي في لهجةِ فِلسطينَ والأردُنّ، بَكْجَة وبَقْجَة.

بَدْحَة: البَدْحَةُ والبَدْحِيّة في هذه اللّهجة: من الخُيوطِ الذهبيَّةِ التي تُزَيّنُ بها المرأةُ، وهو معنى يُتَوَهَّمُ من بعض استعمالات (بَدَحَ) وما يدور في فَلَكِه في العربيّة، منها (بَدَحَتِ المَرْأةُ: (مَشَتْ مِشْيَةً حَسَنَةً، أوْ مِشْيَةً فيها تَفَكُّك). والتَّبَدُّحُ: حُسْنُ مِشْيةِ المرأةِ، أو التَّوسُّعُ، والانْبِساطُ في المشي، على أن المشْيَ الحَسَنَ يُومِئُ إلى اللّباس الحَسَن المُزَيَّن. ولعل لأجمل ما قيل عن اللغة العربية وتوسّعها الدّلالي قول الشاعر حافظ إبراهيم:

وسِعتُ كِتـــابَ اللهِ لَفظاً وغايـــة
وما ضِقْـــتُ عن آيٍ به وعِظـــاتِ
فكيف أضِيقُ اليومَ عن وَصفِ آلـةٍ
وتَنْسِيـــقِ أسمـــاءٍ لمُخْتَرَعـــاتِ
أنا البحـرُ في أحشـائه الدرُّ كامـن
فهل سألوا الغوّاص عن صدفـاتي ■

القيم الأخلاقية في منهج السنع الإماراتي

الأمير كمال فرج

منذ الأزل وكل مجموعة بشرية تملك مجموعة من القيم، وتتنوع هذه القيم باختلاف المجتمع والبيئة، فهناك مثلاً القيم الدينية التي تحددها الأديان والمعتقدات، والقيم القبلية التي تحددها القبيلة أو العشيرة، وهناك قيم جماعية لوحدات أصغر تسمى قيم الجماعة، وهناك قيم أشمل وأعم هي القيم الإنسانية التي تستهدف العالم، وتحددها المعاهدات والمواثيق الدولية.

بعض القيم يبقى على مر الزمن، مهما توالت العصور والمتغيرات، وبعضها الآخر يختفي وينتهي به الحال إلى كتب التاريخ، فما السبب في بقاء الأولى واندثار الثانية؟

وتتميز التجربة الإماراتية الرائدة بالحفاظ على قيم الأجداد، فقد قيّض الله لهذه البلاد حكاماً آمنوا بأهمية القيم الموروثة في صناعة الأجيال، فحرصوا على الحفاظ على قيم المؤسس المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - ليس ذلك فقط، بل حوّلوا هذه القيم إلى قوانين ولوائح وتعليمات تتخذ قوة القانون، فتحقق بذلك إنجازان: الحفاظ على هذه القيم من ناحية، ومنحها سمة الديمومة والصيرورة من ناحية أخرى.

وتميز مجتمع الإمارات بمجموعة من المبادئ المؤسِّسَة التي ترتكز على الأخلاق، وتحدد طبيعة المعاملات بين أفراد المجتمع، سواء العائلة أو الأهل والأصدقاء وعموم الناس، وتجسدت هذه القيم في عادات وتقاليد يحافظ عليها الجميع، وهو ما يطلق عليه «السنع».

و«السَنْعُ» في اللغة: الجَمالُ، و«أسْنَعُ»: الطويلُ، والمُرْتَفِعُ العالِي، و«سَنُعَ» جَمُلَ وحَسُنَ، و«السَّنِيعَةُ» :المرأَةُ الجميلةُ، اللَيِّنةُ المفاصل، اللطيفةُ العظامِ»[1].

ولعل من مظاهر الاهتمام بالحفاظ على قيم الأجداد، إدخال «السنع» في مناهج التعليم، وهي تجربة تعليمية فريدة على مستوى العالم.

تعليم السنع

أولت دولة الإمارات العربية المتحدة التعليم أهمية كبرى، وآمنت أنه الركيزة الأساسية لبناء المستقبل، وذلك انطلاقاً من رؤية المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الذي قال: «إن أكبر استثمار للمال هو استثماره في بناء أجيال من المتعلّمين والمثقفين»[2]، ومقولة صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة «ما من أمة تسعى لأن تحتل مكاناً مرموقاً ومتميزاً إلاّ وأولت العملية التعليمية والتربوية اهتماماً بالغاً، تستطيع من خلالها بناء جيل واعٍ متمسك بثقافته، وقيمه، وتقاليده أولاً، ثمّ قادر على التكيّف مع تطورات العصر، ومعطيات التكنولوجيا الحديثة ثانياً»[3].

ونظراً لدور المناهج التربوية في غرس السلوكيات الحميدة بدءاً من الصفوف المبكرة، طبقت الإمارات تجربة فريدة على مستوى العالم، وهي تدريس السنع، وإدخاله كمنهج دراسي في الصفوف الدراسية.

و«التعلم هو العملية التي تؤدي إلى تغيير سلوكي دائم نسبياً أو تغيير سلوكي محتمل. بعبارة أخرى، بينما نتعلم، نغير الطريقة التي ندرك بها بيئتنا، والطريقة التي نفسر بها المنبهات الواردة، وبالتالي الطريقة التي نتفاعل بها، أو نتصرف[4]، لذلك فإن تدريس السنع بطريقة تعليمية تربوية سيساعد على غرس سلوكياته وفضائله في الأجيال المقبلة.

وكانت وزارة التربية والتعليم في الإمارات قد أعلنت العام الماضي «2022» رسمياً عن إطلاق برنامج «السنع الإماراتي» في المدارس الحكومية والخاصة، الذي أعدته الوزارة بالتعاون مع المؤسسات التراثية والثقافية.

وجاء الإعلان عن إطلاق برنامج «السنع الإماراتي»، لأول مرة، خلال جلسة حوارية نظمتها وزارة التربية والتعليم بالتعاون مع الشركاء الاستراتيجيين في «جناح فزعة» بإكسبو دبي 2020.

وتضمن برنامج «السنع الإماراتي» ثلاث حلقات دراسية، إذ تركز الحلقة الأولى (من الصفوف من 1 - 4) على سنع الضيافة وآداب المجالس والزيارات وآدابها، وسنع الهوايات والأدب الشعبي والمرأة في السنع الإماراتية، وتتناول الحلقة الثانية (الصفوف 5 - 8)، سنع العلاقات الاجتماعية في المجتمع الإماراتي، ومحور الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، والحفاظ على قيم السنع، فيما تستهدف الحلقة الثالثة (الصفوف 9 - 12)، وتتناول سنع التواصل الاجتماعي الإماراتي بين الماضي والحاضر، وآداب الاستقبال وإكرام الضيف، وآداب المجلس

الإماراتي، والسنع في اللباس الإماراتي، والمرأة الإماراتية والسنع، وآداب السفر، والسنع الإماراتي في الهوايات والتراث، والسنع في الأدب الإماراتي[5].

السنع كتاب مدرسي

تطبيقاً لبرنامج «السنع الإماراتي» في المدارس الحكومية والخاصة، تم تخصيص منهج دراسي عنه في كتاب «منهج السنع الإمارات - كتاب الطالب» للصفوف من الـ (9 - 12) لعام 2021 - 2022. يحتوي الكتاب على فصول عدة هي: مفهوم السنع الإماراتي وأهميته - سنعنا أخلاق - دور الشيخ زايد - رحمه الله - في تأصيل السنع الإماراتي - السنع في الأسرة والمدرسة الإماراتية - سنع الضيافة الإماراتية - آداب المجالس الإماراتية - آداب المجالس الإماراتية - سنع الزيارات وآدابها - آداب سنع السفر - المرأة في السنع الإماراتي - سنع الهوايات والأدب الشعبي.

قواعد تدريس السنع

أوضح الكتاب المدرسي عدداً من القواعد الخاصة بتدريس السنع، التي على المعلمين مراعاتها، لتحقيق الفائدة المرجوة من المنهج التعليمي، ومنها:

• تعزيز قيم الهوية الوطنية والانتماء للوطن والاعتزاز بمكتسباته وموروثه والحفاظ عليه.

•اعتبار مبادئ السنع أساساً لكل تصرف إيجابي، وتمثل الدوافع التي تحكم سلوك الفرد في المواقف المختلفة.

• ضرورة التمييز بين مفهومي التراث والسنع، فالتراث كل ما خلفه الأجداد من آداب وقيم وفنون وآداب وأسلوب عمارة ونمط بناء ومعارف شعبية وفنون موسيقية وتشكيلية. أما السنع فهو مجمل الأقوال والأفعال والأخلاق الواجب الالتزام بها في المواقف الاجتماعية اليومية وفي المناسبات.

• مراعاة اختلاف بيئات الطلبة في دولة الإمارات العربية المتحدة «الساحلية، والداخلية، والجبلية»، حيث لكل بيئة خصوصيتها التي لا تختلف كثيراً في سياقها العام عن عادات البيئات الأخرى في مجتمع الإمارات.

• التأكيد على دور الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله تعالى - في التمسك بالسنع الإماراتي والحفاظ عليه، وإبراز مظاهر الاهتمام به.

• التركيز على الجانب التطبيقي العملي في اكتساب المعلمين لمفاهيم ومبادئ وقيم السنع الإماراتي.

• تشجيع أولياء أمور الطلبة على اصطحاب أبنائهم لحضور الملتقيات وفعاليات القرى والمهرجانات التراثية التي تنظمها الجهات ذات الصلة بالسنع.

• تنويع استراتيجيات وأساليب تقديم وتدريس ومناقشة السنع الإماراتي على شكل قصص وحكايات وحوارات تمثيلية ومناقشات إبداعية وأمثال ومسابقات تراثية ومشاغل (ورش) عمل ترفيهية للرسم الحر، ومجموعات عمل، بحيث تتخلل هذه الأساليب الحماسة والمحبة والتحفيز والاتكاء لثقافة تراث الدولة وتعزيز الوعي به.

• تعزيز العلاقة بين المدرسة والبيت والمجتمع والإفادة من الخبرات المحلية من خلال تنظيم الندوات واستضافة الرواة والآباء والأجداد لنقل خبراتهم في مجال السنع إلى الأبناء[6].

(69) قيمة أخلاقية

يتضمن الكتاب المدرسي الخاص بالسنع (69) قيمة أخلاقية، موزعة على 14 محوراً، ويتضمن كل محور: نواتج التعلم، وقيم السنع، ومن سَنْعِنَا أَتَعَلَّمُ، وتشمل القيم التالية:

المحور الأول: الاحترام، الكرم، التعاون، الأمانة.

المحور الثاني: التسامح، والتضامن، والتكافل، والإيثار، وصلة الرحم، والترابط المجتمعي.

المحور الثالث: الكرم، والفزعة، والإيثار ، والعفو والصفح.

المحور الرابع: الاعتدال والوسطية، الارتباط الأسري، الوفاء، الطموح.

المحور الخامس: الحوار والتواصل، تنمية الذات، تقدير الوقت، الرقابة الذاتية.

المحور السادس: إكرام الضيف، التعاون، المحبة والود، الاحترام، الاستئذان.

المحور السابع: حسن الاستقبال، التلاحم المجتمعي، المساواة، الحوار، التشاور، الإنصات.

المحور الثامن: الترابط الاجتماعي، صلة الرحم، احترام الجار، التكافل، التعاون.

المحور التاسع: التراث، التواصل الأسري، السلام، التعاون، الخير، المساواة، العمل التطوعي.

المحور العاشر: النظافة، الكرم، زيارة المريض، التواصل والترابط.

المحور الحادي عشر: الالتزام بالزي الوطني، والهوية الوطنية، والاعتزاز بالتراث.

المحور الثاني عشر: المخوة (الإخوة)، الطاعة، الأمانة والوفاء والصدق.

المحور الثالث عشر: التآلف، التعاون، الإثارة، الالتزام، الرأفة، النظام.

المحور الرابع عشر: التأني وعدم التسرع، وخدمة الوطن والدفاع عنه، والتسلح بالعلم، والصدق والأمانة والوفاء، والمخوة (الإخوة) بين الأصدقاء، والكرم والعطاء، والصبر[7].

رسوم توضيحية

تميز الكتاب المدرسي الخاص بالسنع بجودة الطرح والتركيز واللغة السهلة المبسطة التي تتناسب مع كل الفئات العمرية، كما عمد معدو الكتاب إلى الاستعانة بالصور القديمة والحديثة، والجداول والاختصارات والرسوم التوضيحية التي تقرب الفكرة، وتيسر فهمها، كما كان للتصميم والألوان دور في توضيح الأفكار الرئيسية وتبسيطها. كما حرص المعدون على التطبيق، عن طريق الاستشهاد بالشخصيات والأحداث والمواقف والأقوال، وكان من بين عناصر الاستشهاد الشعر، وهذه كلها عناصر تساعد الطالب على الاستيعاب والفهم والحفظ.

مدرسة القهوة والسنع

تجربة تدريس السنع لم تكن الأولى في الإمارات، فقد سبقتها بسنوات مبادرة أطلقها مركز الشيخ محمد بن خالد آل نهيان الثقافي في مدينة العين، الذي أسس عام 2011 «مدرسة القهوة والسنع»[8].

المدرسة تستهدف جميع شرائح المجتمع على اختلاف جنسياتهم وأعمارهم من أجل تعريفهم بتراث الإمارات، وتقديم ورش

ودورات تستهدف طلبة وطالبات مدارس مكتب العين التعليمي لتعميق روح الأصالة والتراث في نفوس الأجيال الجديدة، وتعزيز ارتباطهم بهويتهم الوطنية[9].

وفي الاتجاه نفسه حرصت العديد من الجهات التراثية والتربوية والثقافية الحكومية والخاصة على تنظيم فعاليات ودورات لتعليم السنع، وتدريب الصغار عليه، ومن هذه الجهات مركز المواهب والإبداع بهيئة أبوظبي للثقافة والتراث ونادي تراث الإمارات.

سلوكيات وآداب

تقول فاطمة المغني الباحثة الاجتماعية والخبيرة في التراث الشعبي والمدربة في مجال تعلم العادات والتقاليد في «برنامج السنع الإماراتي» لـ «تراث» إن «السنع في دولة الإمارات هو مجموعة من القوانين والقواعد التي تحكم السلوكيات والآداب في تعاملات الأفراد مع الضيوف والأهل فيما بينهم».

وأضافت أن «السنع في منهجنا اللغوي الإماراتي الطريقة المثلى للتعامل مع الآخر سواء كان ضيفاً أو جاراً أو ابناً أو أباً أو جداً كل حسب مقامه وسنه، ولا تختلف الأعراف في البادية أو الحضر أو في البيئات الأخرى كالبيئة البحرية مثلاً، فهذه أعراف وقيم ثابتة لا تتغير سواء في طرق السلام وعادات شرب القهوة، والتعامل مع الآخر في المواسم أو الأعياد مثل رمضان والمناسبات الأخرى».

أنواع المجالس

أوضحت فاطمة المغني أن «من السنع آداب المجالس التي تتنوع وتختلف حسب البيئة وحسب المناسبة، فالمجالس في الإمارات تتعدد وفقاً للهدف منها، والمجلس يختلف باختلاف البيئة، فمثلاً مجلس البيئة الزراعية يختلف عن البيئة البدوية، وكذلك تختلف المجالس في الأهداف والطقوس أو الأسماء، فمثلاً يوجد المجلس العام الذي يؤمه كل أفراد المجتمع، وهناك مجلس الشيوخ أو الولاة أو كبار القوم ويخصص لمناقشة الأمور العامة المهمة التي تهدف إلى ارتقاء المجتمع، ويتم من خلاله الدعوات لمناقشة موضوع معين خاص من قبل الشيوخ أو الولاة، وهناك مجلس آخر أصغر، وفيه يرغب الحاكم في مخاطبة أحد الحضور حول قرار معين ليس عاماً للجميع، فيدعوه إلى مجلس، واسمه «مجلس المنيوي»، وفيه يجتمع الحاكم أو الوالي مع الشخص المعنى. وهناك مجالس العزاء التي تقام في حالات الوفاة أيضاً، ولها عاداتها وتقاليدها، وكذلك توجد مجالس نسائية خاصة بعادات النساء لشرب القهوة أو الزيارة، ولها عاداتها وتقاليدها أيضاً. وأضافت أن «هناك مجالس للفصل بين المتخاصمين تتضمن قواعد محددة، لا يمكن تخطها، وموانع مثل السب والشتم، وفي هذه المجالس تتم مناقشة الأمور الخاصة بين الطرفين، ويتم فيها وضع الحدود». وأضافت أن «من العادات الشائعة مجالس الإفطار الجماعية، وفيها يقوم رجل كبير في السن بتنظيم إفطار خارجي يمر عليه عابر السبيل أو المارة، ويوجه الدعوة عادة بقوله «الفطور عندي، وعادة كل شخص يحضر يحضر ما يستطيع من طعام كمشاركة في هذا الإفطار الجماعي».

كلمات المجالس

وذكرت فاطمة المغني أيضاً أن «للمجالس نفسها عادات وتقاليد تختلف حسب نوع المجلس نفسه، وتتعدد مظاهرها مثل كيفية السلام، وكيفية التعامل مع أصحاب البيت، وكيفية التصرف في مجالس العزاء والعبارات المعينة التي تقال في هذه المجالس مثل «أحسن الله عزاءكم»، و«رحم الله ميتكم»، وهناك كلمات تقال للتهوين من المصاب الجلل مثل «نؤمن بالقضاء والقدر»، و«الله يرحم فلان»، وعبارات عن حسن الخاتمة مثل «مات وهو يصلي».

سنع القهوة

بيّنت المغني أن «من السنع عادات وآداب تقديم القهوة وشربها»، ويختلف ذلك وفق المناسبة، ففي بعض المناطق تتسم الضيافة ومن بينها شرب القهوة بسمات معينة، ومنها ضيافة العزاء حيث تقدم القهوة في بعض المناطق، وفي مناطق أخرى يقدمون الغداء والعشاء لمدة 3 أيام، ويكون النساء في مكان والرجال في مكان آخر، ومن العادات المتبعة عند الوفاة، أن بيت الميت لا توقد فيه نار، ومن الواجب على الأهل والجيران مراعاة ذلك.

آداب المصافحة

تقول فاطمة المغني إن «دخول المجلس عموماً له آداب، فلابد أن يذكر الضيف أولاً كلمة «هود» ويطرق الباب، وعند الإيذان له يخلع الحذاء قبل الدخول، ويتركه خارج المجلس، ومن الآداب لدخول المجلس ترك الحذاء خارج المجلس عادة سواء للضيف أو المضيف، وعقب الدخول من الأبجديات المسلم بها المصافحة من اليمين إلى اليسار، إلا في حالة إذا كان هناك رجل أو شيخ كبير نبدأ بالسلام عليه»، مشيرة إلى أهمية تدريب النشء على السنع بمفرداته المتعددة، وطريقة التحية والسلام، وعدم الدخول إلى المنزل بلا استئذان.

تحديث السنع

لاشك أن تحويل السنع إلى منهج مدرسي يدرس في الصفوف التعليمية تجربة إماراتية رائدة، ستحقق الكثير من الأهداف التي تستهدفها وزارة التربية والتعليم. إضافة إلى المزيد من الفوائد الجديدة، وأهمها تجديد القيم العربية من خلال تحديد (69) قيمة أخلاقية وشرحها والتأكيد عليها، وهو ما يحدث لأول مرة.

وهذا من شأنه أن يوثق ويذكّر بهذه القيم أولاً، لتكون دائماً حية في الذاكرة، وثانياً إحياء هذه القيم التي ربما تكون غائبة عن أذهان الكثيرين. والسنع رغم كونها قيماً تراثية موروثة وثابتة، إلا أنها تتميز بالقدرة على النمو والتطور، حيث يمكن تحديثها والإضافة إليها جيلاً بعد آخر وفقاً لتطورات العصر، وإذا كانت طريقة تقديم القهوة من سنع الماضي والحاضر، فإن من السنع المستحدثة سنع الحفاظ على البيئة، الذي فرضته تحديات تغير المناخ، وسنع التواصل الاجتماعي الذي فرضته مواقع التواصل، وهو ما راعاه المنهج المدرسي التربوي للسنع، الذي تطرق إلى سنع التواصل الاجتماعي كمثال. ولا شك أن تحديث السنع بمستجدات العصر مفيد أيما إفادة، فذلك من ناحية تجديدٍ لقيم التراث، ومن ناحية أخرى جعل هذه الأخلاقيات متفاعلة مؤثرة في قضايا المستقبل وتحدياته. ورغم أن بعضهم يشبّه السنع بالإتيكيت[10] Étiquette، فإن هناك فرقاً بين الاثنين، إذ إن الإتيكيت مجموعة من القواعد والإجراءات وطرق التعامل التي قد تتفق مع الأخلاق أو لا تتفق، إذ إنها ترتبط بالمجتمعات التي تمارسه، ولكن السنع قيم وعادات وتقاليد تعتمد كلية على الأخلاق، وهذه نقطة تميز رئيسية لها. ولاشك أن السنع الإماراتي بالمقومات الأخلاقية المتعددة التي يملكها يصلح لأن يكون ليس أسلوب حياة في الإمارات فقط، ولكن أنموذجاً يحتذى به عربياً وعالمياً مثل «الإتيكيت» أيضاً. بالطبع العادات والتقاليد ستختلف بين الشعوب، ولكن الرسالة الأخلاقية التي تقف وراء هذه العادات هي الأهم، ومن الممكن جداً بل من الضروري أن تكون نموذجاً يحتذى به ويقلد في العالم، خاصة مع التوجه العالمي الذي برز أخيراً وهو العودة إلى الأخلاق ■

صحفي وباحث مصري

الهوامش:

1. معجم المعاني : www.almaany.com
2. أقوال مأثورة، مكتب البعثات التعليمية: www.sco.ae
3. المصدر السابق نفسه.
4. Learning Theory and Behavioral Psychology : www.allpsych.com
5. «التربية تعلن رسمياً إطلاق برنامج السنع الإماراتي»، صحيفة «البيان» 13 مارس 2022.
6. كتاب النشاط 2021 - 2022 الصف الثاني مادة السنع الإماراتي ص 12.
7. راجع كتاب النشاط 2021 - 2022 الصف الثاني مادة السنع الإماراتي.
8. بدأت فكرة تأسيس مدرسة القهوة العربية عام 2011، وتبلورت الفكرة بإقامة مهرجان «السنع والقهوة» عام 2012.
9. مركز الشيخ محمد بن خالد آل نهيان الثقافي: www.smbkc-cultural.com
10. «الإتيكيت»كلمة فرنسية أصلها Étiquette، وتم استخدامها في العالم العربي، ويرادفها أو يقابلها في اللغة العربية كلمة «الذوق».

ذكريات زمن البدايات (16)

مجلس المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في مدينة العين

خليل عيلبوني

كان اللقاء الأول في فبراير 1971، في مدينة العين، حيث كُلفت بمهمة تغطية اهتمامات القائد الراحل بالزراعة.
ولأول مرة أدخل إلى المجلس في قصره القديم في مدينة العين، وأصافحه وأتحدث إليه. فالرجل كان ذا هيبة مميزة. ولكن منذ اللقاء الأول، أدركت أنني أمام شخصية لا تنتمي إلى زماننا هذا؛ حيث يحيط الرؤساء أنفسهم بحراسات مشددة، وأسوار منيعة تجعل الوصول إليهم مستحيلاً، وخاصة على أبناء الشعب البسطاء.

في مجلس زايد، رأيتُ لأول مرة كيف يلتحم القائد بشعبه، وكيف تزول الأسوار والحواجز، وكيف يشعر المواطن بالندية، وأن صوته مسموع ورأيه مهم. «هلله بالخير يا زايد..»، كان هذا أول ما سمعته من مواطن جاء من «ليوا» للسلام على سموه. «هلله بالخير، اقرب يا سفيان»، ذلك جواب الشيخ زايد. فوجئت أن سموه يعرف الجميع بأسمائهم. لا أستطيع إنكار الدهشة التي شعرت بها وأنا أصغي إلى مواطن عادي ينادي الشيخ زايد باسمه، ولا الانبهار الذي أصابني وأنا أسمع رد الشيخ عليه. تكرر المشهد مع مواطنين آخرين لتحفر صورة لم تتغير حتى اليوم.

ورغم أنني في ذلك العام، وفي ذلك اللقاء الأول لم أتجاوز الثلاثين بعد، فإن الفرصة التي أتيحت لي للتحدث إلى القائد - رحمه الله - كانت تاريخية، ويومها سألني عن اسمي وبلدي وحياتي الأسرية، وأجبت عن أسئلته وأنا غير مصدق أنني أكلم القائد بهذه البساطة وبهذا الحب. ومنذ ذلك اللقاء الأول، بدأت شخصية القائد تتضح أمامي؛ فهو برغم عدم حصوله على الشهادات العلمية العالية، فإن ثقافته التي بدت واضحة من خلال حديثه مع المواطنين الذين حضروا إلى مجلسه، جعلتني أقتنع أنني أمام زعيم حقيقي مليء بالمعلومات، وخاصة في المجالات السياسية والأدبية. اتخذ سموه في تلك الجلسة قرارات عدة خاصة بتقديم الدعم المادي والعمراني للمواطنين في المنطقة الغربية (ليوا)، ولم تدخل تلك القرارات إلى المتاهات الإدارية، بل تم تنفيذ بعضها على الفور، والباقي لم يحتج لأكثر من يوم واحد. ما زلت أذكر بعض ما ركز عليه في حديثه إلى المواطنين، مثل: الاهتمام بتعليم الجيل الجديد مستشهداً على ذلك ببيت الشعر:

خليل عيلبوني

العلم يبنـــي بيوتـــاً لا عمـــاد لها
والجهـل يهـــدم بيت العـــز والكـرم

كذلك الزراعة، حيث أكد أن الجميع يجب أن يعمل؛ لكي يغطي اللون الأخضر كل رمال أبوظبي. في ذلك الزمن، كانت القدرة المالية لأبوظبي محدودة؛ فالإنتاج النفطي لم يكن يزيد على 600 ألف برميل في اليوم. ولا تتعدى عائدات أبوظبي

من هذا الإنتاج النصف مليون دولار يومياً؛ فسعر البرميل كان أقل من دولارين، وعائدات الدولة كانت أقل من دولار عن كل برميل ينتج. ولكن منذ البداية، أعلن الشيخ زايد أن جميع عائدات البترول ستستخدم لمصلحة الشعب، فقال قولته التاريخية: «إذا كان الله سبحانه وتعالى قد مَنَّ علينا بالثروة، فإن أول ما فعلناه؛ لكسب رضا الله وتوفيقه هو تسخير هذه الثروة لخدمة الشعب».

فكر وأدب

كان - رحمه الله - شاعراً، وشاعراً مبدعاً، وإن كان لم يقرأ دواوين الشعراء القدامى، إلا أنه كان يحرص في مجلسه على الإصغاء لأولئك الذين قرؤوا وحفظوا شعر الفطاحل السابقين والمعاصرين، ومن هؤلاء الحفّاظ: عبد الله العتيبة - رحمه الله - الذي كان موسوعة في حد ذاته؛ فقد كان يحفظ شعر عنترة والمتنبي وغيرهما.... وكان يحب الشعر، وينظمه على الفطرة. واهتم الشيخ زايد بنظم الشعر النبطي حيث شاكى كثيراً من الشعراء وشاكوه كذلك، وفي مقدمتهم معالي الدكتور مانع سعيد العتيبة رفيق مسيرته الذي لم يكن ينقطع عن مجلسه إلا في مهماته الرسمية كوزير للبترول أو كمبعوث خاص للكثيرين من رؤساء الدول العربية والأجنبية. وكان لي شرف الإشراف على طباعة كتاب «الشعر والقائد» للدكتور العتيبة، وهو أول ما نشر رسمياً من شعر الشيخ زايد. وقد اهتم . رحمه الله . بشعراء الإمارات، وأصغى إلى شعرهم، وكان كريماً في مكافأتهم على إبداعهم، ما أدى إلى نهضة غير مسبوقة للشعر والشعراء في الدولة. لقد وجَّه سموه بفتح الأبواب على مصاريعها أمام الأدباء في الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون، وكان مجلسه يزخر بالعديد من أدباء الإمارات والدول العربية، وهذا ما جعل مجلسه مجلس شعروأدب وثقافة عامة. وكنت محظوظاً بحضوري الكثير من لقاءات القائد بالأدباء والمثقفين عموماً، وأصغيت إليه وهو يناقشهم، ويفتح أمامهم أبواب الموضوعات التي تهم الإنسان العربي، وخاصة المواطن في دولة الإمارات.

خضرة الصحراء

اهتم الشيخ زايد - رحمه الله - بالصحراء، فكانت علاقته بها علاقة حب حقيقي، ولا أنسى كم كان يعشقها، ويتفرس رمالها. لقد كان وفياً لها؛ فهي التي فجَّرت ثروة النفط، وهو الذي رد لها الجميل بالجميل، فسهر بنفسه على أن ينشر اللون الأخضر فيها. وهذا ما جعله يحول مساحة كبيرة من الصحراء إلى مزارع وزعها على المواطنين، وقدَّم لهم المساعدة المادية والفنية، وطلب من المسؤولين في جميع البلديات القيام بشراء محاصيل المزارع وبأثمان تحقق للمواطن الربح وتشجعه على الاهتمام بالزراعة. كما اهتم - رحمه الله - بشجرة النخيل، تلك الشجرة المباركة التي كانت خير صديق وقت الضيق، حتى بلغ عدد أشجار النخيل في الإمارات ما يزيد على ثلاثين مليون نخلة. واهتم بتنمية ثروة

الجِمال في الدولة أيضاً، وكان يشجع المواطنين على الاهتمام بهذه الثروة من خلال تقديم الدعم المالي للمواطن على كل جَمل يمتلكه، ويعود هذا الاهتمام إلى وفاء سموه للجمل كصديق كان له دور فاعل في أيام الشدة قبل ظهور النفط في البلاد.

زعيم متفرد

أعدّ نفسي من المحظوظين القلائل الذين جمعتهم بالشيخ زايد - رحمه الله - علاقة مميزة؛ فقد كان يغمرني بعطفه، ويخصني بالاهتمام، حتى إذا ما التقيته بعد غيبة طويلة يقابلني بالترحاب، وينادني باسمي الأول «خليل» ضاحكاً باسماً، ما يُشعرني بالاعتزاز، ويجعلني أحس أنني لست أمام رئيس دولة عظيم فحسب، بل أمام صديق حميم.. يشعر بوجودي، ويسأل عن أسرتي، ويتابع أحوالي العملية والصحية. ولقد أتاح لي - رحمه الله - أن أحضر معه لنتحدث في كثير من الأمور، وأتعرف فكره وتوجهاته. ولعلني أستطيع ذات يوم أن أجمع هذه الحوارات التي دارت بيننا في كتاب يحفظ للأجيال بعض جوانب شخصية زعيم متفرد، وفارس ندر وجود مثيله. جمع - رحمه الله - بين صفات الزعيم القائد وما يتطلبه ذلك من حزم وحسم واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، وصفات الوالد الرؤوف والصديق المقرب من الجميع. كنا أمامه نشعر بعظمته وهيبته من غير أن يصيبنا الخوف أو نتخلى عن طبيعتنا. كنا نشعر أنه قريب منا، يعرفنا واحداً واحداً، كنا حقيقة نحبه ونستمتع بوجوده معنا، ولم نكن نفكر لحظة باستغلال هذا القرب لطلب شيء خاص برغم إدراكنا أن كل ما نطلبه منه يستجاب. كان - رحمه الله - بجود حاتم الطائي، وحلم معن بن زائدة، وحكمة لقمان، وشجاعة خالد بن الوليد. لقد شعر المحيطون بالشيخ زايد - رحمه الله - باليتم بعد موته؛ لأنهم فقدوا برحيله الأب الحاني والصديق الوفي والمرشد الموجه والمنجد الملبي.. فإذا تأخر أحدهم عن مجلسه أو عمله، سأل عنه، فإن كان مريضاً عاده واهتم بعلاجه، وإن كان في مشكلة، قام بمساعدته على حلها والخروج منها. كان - رحمه الله -يهتم حتى بـ«المقهوي» الذي يصب له القهوة، وبالحارس الذي يحرسه، وبالمسؤول عن مطبخه.. والحديث عن هذا الجانب لا نهاية له، ولكني شاهدت بنفسي كيف كان يتعامل مع العاملين لديه، وكيف كان يصغي إليهم ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم. إنه سجل حافل وزاخر بالإنجازات التي جعلت المواطن في دولة الإمارات متمتعاً بحقوق وامتيازات لا يمكن لأحد إنكارها أو تجاهلها.

نصرة الإنسان العربي

اهتم المغفور له بإذن الله تعالى بالإنسان العربي، وكانت له مواقف كبيرة في نصرة العرب، ومن أمثلة ذلك: قضية فك الحصار الاقتصادي عن العراق بعد أن علم - رحمه الله - أن ذلك الحصار تسبب في موت كثير من الأطفال. وبادر بإعطاء تعليماته بإرسال كل المواد الغذائية والطبية وغيرها إلى الشعب العراقي. برغم خلافه مع القيادة العراقية، آنذاك، التي أدخلت العراق في حرب أضرت به وبجميع الدول المجاورة. وكنتُ محظوظاً وأنا أصغي إلى القائد وهو يقول، بعد أن استمع إلى قصيدة الدكتور مانع العتيبة: «نحن العرب نصالح عدونا، ولكننا مع الأسف لا نسامح أخانا إذا أخطأ». وكان هذا التصريح بداية كسر الحصار الاقتصادي على العراق، وبداية تدفق المساعدات الإنسانية إلى الشعب العراقي. كما أننا لا يمكن أن ننسى أنه - رحمه الله - أول من استخدم سلاح البترول. وبحكم عملي مع الدكتور مانع العتيبة الذي كان وزيراً للبترول في أثناء حرب أكتوبر 1973، فقد أتيح لي أن أعيش هذه القضية؛ إذ لم يتحمَّل - رحمه الله - قرار وزراء البترول العرب خلال اجتماعهم في الكويت، والذي لم يزد على تخفيض الإنتاج بنسبة 5% شهرياً إلى أن يتم وقف الدعم للعدو الإسرائيلي. وأعطى تعليماته الحاسمة إلى معاليه لعقد مؤتمر صحفي والإعلان أنّ دولة الإمارات العربية المتحدة قررت قطع البترول عن الولايات المتحدة الأمريكية والدول التي تؤيد العدو الإسرائيلي. كان القرار شجاعاً، وحكيماً في الوقت نفسه، إذ قامت الدول العربية المنتجة للبترول فيما بعد بتبني هذا القرار، وقطع النفط عن مؤيدي إسرائيل وداعمها. وكان لهذا القرار دوره المشهود في تحقيق انتصار أكتوبر المجيد عام 1973.

حكاية بعد القصيدة

حدثني الشيخ زايد - رحمه الله - ذات يوم من عام 1975، وكنا في قصر «الجرف»، وبعد أن ألقيت أمامه قصيدة طويلة كنت قدمتها للإذاعة بعنوان «أم الرجال» أتيت في أحد أبياتها على ذكر سمك القرش، فقال رحمه الله: كنتُ في البحر لصيد الجراجير، وكان مركبنا صغيراً يتسع بالكاد لأربعة أشخاص، ومعنا أداة لصيد الجرجور، وهي عبارة عن رمح ينتهي برأس مدبب معقوف بحيث إذا أصاب الجرجور، يعلق به كما تعلق السمكة بالسنارة،

ولا يتمكن الجرجور من الإفلات؛ لأن الحبل المربوط بالرمح مثبت في مقدمة الزورق. وفجأة ظهر أمامي جرجور ضخم جداً. وجَّهت إليه الرمح، فأصبته إصابة موفقة جعلت رأس الرمح يدخل داخل جسم الجرجور الذي أصابته المفاجأة بالجنون.. وبسرعته الفائقة، جرَّ الزورق الذي كنا فيه، كنا أربعة رجال، وبدأ الزورق يمتلئ بالماء، وأوشكنا على الغرق، فلم أتردد في شَهرِ خنجري، وقطع الحبل؛ لإنقاذ المركب ومن عليه. أدركت وأنا أستمع إلى الحكاية أن الشجاعة ضد التهور؛ فشجاعة الشيخ زايد - رحمه الله - هي التي جعلته يقرر في اللحظة الحاسمة أن يقطع الحبل ويتخلص من الخطر المحدق به وبمن معه ■

إعلامي وشاعر

المتنبِّي.. عِظامٌ في تابوت

محمد أحمد السويدي

قيل إنّ جنان الدنيا أربع: غوطةُ دمشق ونهرُ الأبُلّة وشِعبُ بوّان وصُغدُ سمرقند.... جنانٌ مرّ بها ملايين الناس وعبرتها مئات الأجيال وشهدها ألوف الشعراء، لكنّ أبا الطيّب هو الذي وضع شعب بوان في سجل الخلود. في إبريل من عام 965 م (ربيع الآخر سنة 354 هـ)، حلّ أبو الطيّب المتنبي ضيفاً على عضد الدولة بن بويه. وفي طريقه إلى شيراز مرّ بتلك الجنة الغنّاء فأُخِذ بجمالها وكانت مثار إلهامه فأرسل في شعب بوّان كلمات هي السحر واصفاً ذلك المكان الفريد وقد خلع عليه الربيع أزهى حلله. لم يكن الشاعر مياالاً لزيارة شيرازوأميرها لولا إلحاح ابن العميد[1]، وهو الذي يحمل في نفسه كبرياء عربية تمتد أصولها إلى بادية السماوة ومدرسة أبناء الأشراف، إذ يقول:

وإنمـــا النـــــاس بالملـــوك ومـــا
تُفلـحُ عـــــربٌ ملوكهـــا عجـــــمُ

لكن مروره في شعب بوان أيقظ في نفسه مشاعر لا عهد له بها في كثير من الأماكن الجميلة التي شهدها من قبل ولم تستأثر بخياله ولا حظيت بإعجابه، بدءاً من سواد العراق مروراً بطبريّة وأنطاكية وبساتين حمص وحلب وحتى غوطة دمشق وحدائق نيل مصر. وقبل أن يصل الشاعر إلى مدح الأمير الديلمي، استهلّ قصيدته بوصف الطبيعة التي سلبت لبّه، فقال:

مغانـــي الشعـــب طيبـــاً في المغانـــي
بمـــنزلـــة الربيـــع مـــن الزمـــــان

ومن عادة الشاعر العربي في العصور الغابرة أن يستهلّ قصيدة المدح بالنسيب حتى يصل إلى ممدوحه، كما يفعل الطاهي الماهر بتقديم أشهى المقبلات وأطيبها قبل أن يفرش المائدة ويضع ألوان طعامها. لكن أبا الطيب استعاض عن الحبيبة هنا بمحاسن المكان الذي أخذ بجماله. لكن الشاعر ولعله وهو الذي اختزن في ذاكرته تجربة نصف قرن من حياته الغنية الصاخبة وعصره الحافل بالأحداث الجسام، سرعان ما استدرك نظرته المأخوذة بروعة الطبيعة ليقول:

ولكـــــن الفـــتى العربـــي فيهـــــا
غريـــب الوجـــه واليـــد واللســـــان

الوجه واليد واللسان.. كلمات ثلاث، إنما تختصر تاريخ أمة وحضارة وذاكرة أدبية وعلمية واسعة لا تحيط بها خزائن الكتب. وقد بلغت غربة العربيّ في تلك الأرض أقصاها حتى تصور الشاعر أن سليمان لو سار فيها لاحتاج إلى ترجمان يفك له غموض لغة

أهلها ويستجلي ما وراء اختلاف ملامحهم وعاداتهم.

ولم تشغله مظاهر الاختلاف بين الأقوام طويلاً، بل أخذ يغوص في تفاصيل الجمال المحيط به ويستغرق في دقائق جزئياته، فلم يغفل عن تأمل قطرات الندى وهي تتساقط من أوراق الأغصان وتترقرق كاللآلئ على أعراف الخيل، وراقه ضوء الشمس يتسللّ من بين الأوراق ملقياً على الثياب قطعاً مستديرة كالدنانير تفرّ من البنان فلا يمكن الإمساك بها، ثمّ التفت إلى الثمار اليانعة يتأملها وقد شفّ قشرها عن شرابها الصافي، وسرح بخياله مع الجداول التي تحاكي في انسيابها معاصم الحسان الناعمة، وراح يصغي إلى سقسقة جريانها على الحصى كصليل الحليّ في معاصمهنّ.

ها قد أصبح شاعر السيف الذي لا يشقّ له غبار، يحمل ريشة الرسّام يلوّن بها ملامح الطبيعة التي تجاوزت بمحاسنها أرض البشر ودخلت في عالم الجن، يقول:

مَلاعِـــبُ جِنَّـــةٍ لَو ســـارَ فيهـــا
سُلَيمـــــانٌ لَســـارَ بِتَرجُمـــانِ
طَبَـــت فُرسانَنـــا وَالخَيـــلَ حَتّى
خَشـــيتُ وَإِن كَرُمـــنَ مِنَ الحِرانِ
غَدَونـــا تَنفُضُ الأَغصـــانُ فيهـــا
عَلـــى أَعرافِهـــا مِثـــلَ الجُمـــانِ
وَأَلقى الشَـــرقُ مِنهـــا في ثِيابـــي
دَنانـــيراً تَفِـــرُّ مِـــنَ البَنـــانِ

ويروى أنّه لمّا بلغ أبو الطيّب هذا البيت، قال له عضد الدولة: والله لأُقِرَّنّها بين يديك، فنثرت دنانير الذهب على الشاعر. ويواصل أبو الطيّب نشيده، قائلاً:

لَهـــا ثَمَـــرٌ تُشـــيرُ إِلَيـــكَ مِنـــهُ
بِأَشرِبَـــةٍ وَقَفـــنَ بِـــــلا أَوانـــي
وَأَمـــواهٌ تَصِـــلُ بِهـــا حَصاهـــا
صَليلَ الحَلـــي في أَيدي الغَوانـــي

لقد بلغ ولع الشاعر بالطبيعة حداً جعل حصانه، وكأنه يذكرنا بحصان عنترة، لم يتردد في بث شكواه ولوم فارسه على ترك مثل هذا المكان الرائع المتفرد بجماله حتى كأنه قطعة من الجنة:

يقول بشعـــب بوّانٍ حصانـــي:
أعـــن هذا يسار إلى الطّعـــان؟!
أبوكـــم آدمٌ ســـنّ المعـــاصي
وعلّمكـــم مفارقـــةَ الجنـــان

وفي هذه القصيدة الذائعة الصيت، نمر بمدح عضد الدولة وهو في الثلاثين من العمر، لكننا نفاجأ بأن الشاعر لم يكتفِ بمدح الأمير بل التفت إلى ولديه إذ يقول:

وَلَـــم أَرَ قبلَـــهُ شِبلَـــيْ هِزَبـــرٍ
كَشِبلَيـــهِ وَلا مُهـــرَي رِهـــــانِ
أَشَـــدَّ تَنازُعـــاً لِكَريـــمِ أَصـــلٍ
وَأَشبَـــهَ مَنظَـــراً بِأَبٍ هِجـــــانِ
وَكُنـــتَ الشَمـــسَ تَبهَرُ كُلَّ عَـــينٍ
فَكَيـــفَ وَقَد بَدَت مَعَهـا اثنَتـــانِ
فَعاشـــا عيشَـــةَ القَمَرَينِ يُحيـــا
بِضَوئِهِمـــــا وَلا يَتَحاسَـــــدانِ

هذه الالتفاتة اللماحة إلى طفلي الأمير تسترعي الانتباه وتدعونا للتأمل وانتظار أحداث الزمان الذي لا يقر له قرار من كثرة التقلب والاضطراب. فالأرجح أن شيرزيل الولد البكر كان في الثالثة من العمر، بينا كان المرزبان في السنة الأولى من عمره، عندما أسبغ

الشاعر عليهما هذا الثناء. تُرى هل عاش الابنان عيشة القمرين التي تمنّاها الشاعر أم إنّه قدّر حدس بذرة الخلاف هاجعة بينهما وشعر بدبيب الحسد كامناً في تلك العيون المتقلبة الصغيرة قبل زمان مبكر من الأحداث التي عصفت بهذه الأسرة؟

قصيدة نسبت للمتنبي

في سبتمبر من تلك السنة/ أواخر رمضان، كان مصرع المتنبي وهو في طريق عودته إلى موطنه الكوفة، قريباً من مكان يسمّى دير العاقول، على يد قاطع طريق يدعى فاتك الأسديّ وهو خال ضبّة بن محمد الأسدي. وتتقاطع الروايات أن المعركة جاءت ثأراً من قصيدة نسبت إلى أبي الطيّب وادّعى خصومه أنّه نظمها في هجاء ضبّة، وظلّ الشاعر ينكر نسبتها إليه كلّما سُئل عن ذلك، لكن الباحث المدقق لا يملك الوصول إلى يقين قاطع في الأمر، وإن كان رَكْب الشاعر مثقلاً بكنوز تغري أكبر عصابات السلب وقطاع الطرق في ذلك الزمان.

اغتيال الشاعر

لم يكن طيف بغداد غائباً عن بال عضد الدولة، لكن الفرصة لم تواته حتى عام 364 هـ يوم سار إليها لنجدة ابن عمّه في ظاهر الأمر على ثائر تركي يدعى أفتكين الذي مَلَكَ بغداد. فلمّا اجتمع مع بختيار، كتب هذا سراً إلى ضبة بن محمد الأسدي، من أهل عين التمر، يأمره بالإغارة على أطراف بغداد، وبقطع الميرة عنها، وكتب بمثل ذلك إلى بني شيبان.

وتبين هذه الواقعة أن ضبّة كان يأتمر بأوامر بختيار في قطع الطريق، وربّما بأوامر والده معز الدولة من قبل. وأظنّ أنّ معزّ الدولة لم يكن راضياً عن اتصّال شاعر العرب الأكبر بابن أخيه عضد الدولة الفتى المتوثّب للملك وهو من أثر عنه قوله: الدنيا أضيق من أن تسع ملكين اثنين. وما إن استقر عضد الدولة في بغداد في ذلك العام حتى أزاح بختيار عن الحكم وحبسه في قلعة نائية، ثم أمر بقتله سنة 367 هجرية بعد ثلاث سنين من الأسر.

لم يحسن أبو الطيّب تقدير التقاطعات السياسية الشرسة لهذه الأسرة الفارسية التي كان هو أحد ضحاياها. ترى هل ألّبت عليه الأبيات التالية معزّ الدولة أحمد بن بويه حاكم بغداد، فأمر بني أسد باغتيال الشاعر في طريق عودته؟ أراني أميل إلى الاعتقاد بذلك، وإن تركنا الباب مشرعاً لاحتمالات أخرى. يقول أبو الطيّب:

يُشَرِّدُ يُمنُ فَنّاخُسرَ عَنّي
قَنا الأَعداءِ وَالطَعنَ الدِراكا

وَأَلبَسُ مِن رِضاهُ في طَريقي
سِلاحاً يَذعَرُ الأَبطالَ شاكا
وَمَن أَعتاضُ عَنكَ إِذا افتَرَقنا
وَكُلُّ النَاسِ زورٌ ما خَلاكا
وَما أَنا غَيرُ سَهمٍ في هَواءٍ
يَعودُ وَلَم يَجِد فيهِ امتِساكا
حَيِيٌّ مِن إِلَهي أَن يَراني
وَقَد فارَقتُ دارَكَ وَاصطَفاكا

ولعلّ سبباً آخر كان وراء مقتل أبي الطيّب، وذلك ذوده عن سمعته كفارس في تلك المعركة (الخطّة) التي كان بإمكانه الخلاص منها بالنفس سالمة (من نسج الفدام) وربّما صوناً للعطايا السخيّة التي أثقله بها عضد الدولة والتي كان يحملها في رحلة الإياب، قال أبو الطيّب:

وَقَد حَمَّلتَني شُكراً طَويلاً
ثَقيلاً لا أُطيقُ بِهِ حَراكا
أُحاذِرُ أَن يَشُقَّ عَلى المَطايا
فَلا تَمشي بِنا إِلّا سِواكا
وَكَم دونَ الثَوِيَّةِ مِن حَزينٍ
يَقولُ لَهُ قُدومي ذا بِذاكا
وَمِن عَذبِ الرُضابِ إِذا أَنَخنا
يُقَبِّلُ رَحلَ تُرُوَكَ وَالوِراكا

وكانت تُرُوَك هي ناقة لعضد الدولة زعموا أنّه لم يُرَ لها نظير.

الثأر للمتنبي

قال ثابت بن هارون الرقّي النصراني يستثير عضد الدولة للثأر للمتنبي من فاتك وبني أسد بقوله:

الدهرُ أغدرُ والليالي أنكدُ
من أن تعيش لأهلها يا أحمدُ
قصدتكَ لما أن رأتك نفيسَها
بخلاً بمثلك والنفائسُ تُقصدُ

وفيها يقول:

يا أيُّها الملكُ المؤيَّد دعوةً
ممن حشاه بالأسى يتوقَّدُ
هذي بنو أسدٍ بضيفك أوقعت
وحوت عطاءك إذ حواه الفدفدُ
وله عليك بقصده يا ذا العلى
حقُّ التحرُّمِ والذمامُ الأوكدُ
فارعَ الذمامَ وكنْ بضيفك طالباً
إنَّ الذمامَ على الكريم مؤبَّدُ
ارعَ الحقوقَ لقصدِه وقصيدِه
عضدَ الملوكِ فليس غيرُك يُقصَدُ

كما رثاه محمد بن عبيد الله بن محمد الكاتب النصيبي واستجاش عضد الدولة على الثأر للمتنبي من مريقي دمه:

قَرَّتْ عيونُ الأعادي يومَ مَصرَعِهِ
وطالما سجمتْ فيهِ مِنَ الحسَدِ

ومنها:

أبا شُجاعٍ فتى الهَيجا وفارسَها
ومُشتري الشُكرِ بالإنفاقِ والصَّفَدِ
هذي بَنو أسَدٍ جاءت بمؤيِدَةٍ
صَمّاءَ بائحةٍ هَدّت ذُرا أُحُدِ
سطت على المتنبّي من فوارسِها
سَبعونَ جاءَته في مَوجٍ من الزَرَد
فاطلب بثأرِ فَتىً ما زِلتَ تَعضُدُه
للهِ دَرُّكَ من كفٍّ ومن عَضُدِ
أذكِ العُيونَ عليهم أيَّةً سَلَكوا
وضيِّقِ الأرضَ والأقطارَ بالرَصَدِ
شَرِّدهُمُ بجيوشٍ لا قِوامَ لها
تَأتي على سَبَدِ الأقوام واللَّبَدِ

ولقد استجاب عضد الدولة بن بويه للنداء، ولكن بعد مضيّ خمسة عشر عاماً، أي بعد أن اشتدّت شوكته، وذلك عندما قصد بغداد، فأقام النظام، وأخمد الفتن، ونشر العدل، فاستقامت له الأمور.

ففي سنة 369 هجرية سارت سرية لعضد الدولة إلى عين التمر، وبها ضبة بن محمد الأسدي، فلم يشعر إلا والعساكر تداهمه، فترك أهله وماله ونجا بنفسه فريداً، وأخذت العساكر ماله وأهله إلى بغداد، وملكت عين التمر. ها قد جاء انتقام الملك للشاعر من ضبّة بأن خطف جميع أهله وولده وماله حتى راح يبثّ أحزانه الحجر.

الموت يغيب شرف الدولة

لم يكدّر صفو السنوات التي حكم فيها عضد الدولة بغداد، وهي خمس ونيف، إلاّ الموت. ففي 372 هجريّة، اشتدت علة الملك وهي ما كان يعتاده من الصرع، فضعفت قوته عن دفعه، فمات في ثامن شوال ببغداد، وهو في الثامنة والأربعين من عمره، وكتموا نبأ موته نحو ثلاثة أشهر، ولم يصرّحوا به حتى محرّم من العام التالي. كان الملك مسجّى في التابوت عندما قام القصر أو سيّدة القصر بتهيئة الدولة لاستقبال المرزبان الابن الأصغر خلفاً لأبيه، فأبعد شيرزيل النجل الأكبر لحكم شيراز، وصدرت المراسيم بعزل قادة الملك الميت وأتوا عوضاً عن حرس الملك القديم بوجوه المرحلة الجديدة من الحكم.

ولمّا جلس المرزبان الملّقب بصمصام الدولة في محرّم عام 373 هجريّة للعزاء، أخذ شيرزيل الابن البكر الملّقب بشرف الدولة

يعد العدّة لاسترداد ملك العراق من أخيه الأصغر فخاض غمار حروب كثيرة حتّى تمكّن من ذلك بعد ثلاث سنين ونيف.

ففي سنة 377 هجريّة بلغ شرف الدولة واسط فملكها. وأدرك صمصام الدولة أن لا طاقة له في مواجهة القوة الداهمة، فاستشار أصحابه في أن يقصد أخاه ويدخل في طاعته، ولعلّه استشار أمّه أيضاً، فنهوه عن ذلك، وقال له بعضهم: الرأي أن نصعد إلى خراسان وأصبهان، فأعرض صمصام الدولة عن الجميع، وسار في زورق عبر النهر قاصداً أخاه شرف الدولة في خواصه، فوصل إليه ولقيه في خيمة أعدّت له وطيب قلبه. وقيل إنّ صمصام الدولة شعر بالندم على قراره، ولكن بعد فوات الأوان. فما إن خرج شرف الدولة من عنده حتى أمر بالقبض عليه، ثم غيّب في ظلمات سجن في قلعة نائية.

لكن مكر التاريخ لا يؤمن جانبه، وهو دائماً بالمرصاد. فقد غيّب الموت شرف الدولة بداء الاستسقاء سنة 379 هجريّة. وكان من المفارقات التاريخيّة أن خادماً يدعى نحرير أشار على شرف الدولة بقتل أخيه فكان يعرض عن كلامه. فلما اعتلّ واشتدت علته ألح عليه نحرير وقال له: الدولة مع أخيك على خطرٍ، فإن لم تقتله فاسمله.

فأرسل في ذلك محمداً الشيرازي الفراش، لكن شرف الدولة مات قبل أن يصل الفراش إلى غرضه، فلما وصل إلى القلعة التي بها صمصام الدولة لم يقدم على سمله. ثم استشار أبا القاسم العلاء بن الحسن الناظر هناك، فأشار بذلك، فسمل عينيه. وكان صمصام الدولة يقول بعد ذلك: ما أعماني إلا العلاء لأنه أمضى فيّ حكم سلطان قد مات. هل صدق أبو الطيّب في حدسه أن شِبلَيْ عضد الدولة سيؤولان إلى هذا المآل؟ ربّما، فقد خبر الشاعر تغيّر الدول وتحوّلات الزمان. يقول أبو الطيّب:

فَـــذي الدارُ أَخـــوَنُ مِـــن مـــومِسٍ
وَأَخـــدَعُ مِـــن كَفَّـــةِ الحابِـــلِ
تَفانـــى الرِجـــالُ عَلـــى حُبِّهـــا
وَمـــا يَحصُلـــونَ عَلـــى طائِـــلِ

ولم ينتهِ المطاف بالصمصام الأعمى إلى هنا؟ فلقد استعاد حريّته بعد موت أخيه شرف الدولة وملك شيراز وخاض غمار حروب كثيرة في مملكة فارس وقاتل أخاه الملك الجديد فيروز الملّقب بهاء الدولة إلى أن دخلت سنة 388 هجريّة التي ضاق فيها الديلم ذرعاً بالصمصام وأمّه. واتفق أن أبا القاسم وأبا نصر ابني عز الدولة بختيار كانا مقبوضين من قبله، فخدعا الموكلين بهما في سجن القلعة، فأفرجوا عنهما، فجمعا لفيفاً من الأكراد وخرجا في إثر الصمصام الذي ثار عليه الديالمة. وتحير صمصام الدولة فيما يفعل، ولم يكن عنده من يدبره. فأشارت عليه بطانته المقرّبة بالخروج من شيراز، فخرج منها ومعه أمّه وذخائره وأمواله، ولكنّ الفتى الأعمى وجد نفسه وأمّه وحيدين لمّا تناهب الجنود الذين معه الذخائر والأموال ووثب بصمصام الدولة رجل يدعى طاهر فأخذه وأمّه. وأتاه أبو نصر بن بختيار فقتله وحزّ رأسه في السنة ذاتها، فقال أبو نصر بن بختيار يخاطب الرأس المقطوع:

هذه سنّة سنّها أبوك! يعني ما كان من قتل عضد الدولة والده بختيار. وكان عمر صمصام الدولة خمساً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، ومدة إمارته بفارس تسع سنين وثمانية أيام. وأما والدته فسُلِّمت إلى أحد قواد الديلم، فقتلها وبنى عليها دكّة في داره، فلما ملك بهاء الدولة أبو نصر الأخ الأصغر فارس سنة 389 هجريّة أخرجها ودفنها في تربة بني بويه...

كلمة أخيرة: إن كلمة (الحسد) في قصيدة الشاعر هي التي شغلتني طويلاً ودفعتني إلى التنقيب في بطون التاريخ بحثاً عما آل إليه أمر الأخوين. ولولا هذه القصيدة ما كان لأولئك الأمراء من سيرة تذكر على مر الأجيال. القصيدة وقائلها ما زالا يعيشان بيننا، وما تبقى ليس أكثر من عظام في تابوت ■

*شاعر وكاتب من الإمارات

الهوامش:

1. ابن العميد: المولود عام 912 م، والمتوفى عام 970 ميلادي / عام 367 هجري، هو الكاتب محمد بن الحسين بن محمد أبو الفضل بن أبي عبد الله المعروف بابن العميد، وزير ركن الدولة البويهي، وابناه مؤيد الدولة، ومن بعده فخر الدولة، لقب والده بذلك على عادة أهل خراسان في التعظيم.

الحياة على الشفاه

قاسم خلف الرويس
باحث ومؤرخ سعودي

إن الأدب الشفهي يشكل طريقة خاصة للتعامل مع التراث الثقافي الخاص بالتقاليد الشفهية التي تهم المجتمع، لذا فإن التقاليد الشفهية تشمل الأدب الشفهي ولكنها لا تنحصر في حدود، وعلى العكس من ذلك فإن اللغة التي توحد بين هذين المفهومين تمثل ميداناً ما زال في حاجة إلى المزيد من الدراسة وتعميق النظر، ذلك أن الخصائص الشكلية للأسلوب الشفهي ربما تضفي على اللغة طابعاً معيناً؛ فعندما نستمع إلى ملحمة شفهية بلغة أفريقية مثلاً نقول لأنفسنا إنه بالإمكان ترجمتها إلى الفرنسية أو الإنجليزية لكن يصعب سردها شفهياً في هذه اللغات مع الاحتفاظ بأبعادها الإيقاعية والصوتية، وهذه القضية في الحقيقة تتجاوز مشكلة الترجمة لأنها تتعلق بقدرة بعض اللغات على نقل الأدب الشفهي والتعبير عنه وهذه القدرة ليست لصيقة بهذه اللغة أو تلك ولكنها تمثل الطابع الذي يخلفه الأسلوب الشفهي على جسد اللغة.

والواقع أن مجتمعات التقاليد الشفهية طوّرت ظواهر عديدة بقصد حل مشكلة التواصل وللإجابة عن سؤال جوهري أيضاً وهو: كيف السبيل إلى حفظ الذاكرة الاجتماعية من الضياع؟ وما الوسائل الكفيلة بضمان توارث اللغة وتناقلها بين الأجيال والحقب؟ هذه المسألة ومسائل أخرى عالجها كتاب (التقاليد الشفهية: ذاكرة ثقافة) للمؤلف لويس جان كالفي المتخصص في اللسانيات والآداب والعلوم الإنسانية، وترجمه الكاتب المغربي رشيد برهون، ويتناول في سبعة فصول: التقاليد الشفهية وتدريس اللغة، بنية النص الشفهي، الشفهية والإيمائية وقياس العالم، الكون التصويري للتقاليد الشفهية، أسماء الإنسان، التقاليد الشفهية والتاريخ، عنف الكتابة. وجاء في تصدير الكتاب توضيح يشرح هدف الكتاب، حيث أشار إلى أنه كلما تم الحديث عن التقاليد الشفهية تبادرت إلى الأذهان صورة مجتمعات منزوية في قاع الأدغال أو منعزلة في أعالي الجبال لا تصل إليها قَدَمُ إنسان بعادات غريبة وصناعات تقليدية، أي مجتمعات بعيدة كل البعد عن الفن والحضارة، لهذا يصبح من الضروري إعادة الاعتبار للثقافة الشفهية بدءاً بالدعوة إلى رفض هذه النزعة الإعرابية المبتذلة، وهذه الرؤية المتلصصة التي لا تقبل الآخر إلا في غرابته وليس في اختلافه.

وأكبر صعوبة يواجهها الباحث وهو يكتب عن الشفهية تكمن في تصوره لهذه الظاهرة انطلاقاً من معايير المجتمعات ذات التراث المكتوب، فمنذ البدء تطالعنا الدلالة القدحية لمفهوم الشفهي، وانطلاقاً منه ينشأ تقابل بين المعرفة متمثلة في إجادة القراءة والكتابة، والجهل والأمية، أي عدم معرفة مبادئ القراءة والكتابة، كما لو أن كل معرفة تظل بالضرورة رهينة بمعرفة الكتابة. لكن كيف يتعامل الباحث وتحديداً المؤرخ مع الوثائق الشفهية؟ وأنّى له أن يعتمدها وهي تقدم له الروايات المختلفة المتناقضة أحياناً؟! إننا في الحقيقة أمام أسئلة وليدة منطق مجتمعات التقاليد المكتوبة، فما يعد خللاً لصيقاً بالشفهية، هو في حقيقة الأمر المبدأ المؤسس لها.

إن تنويعات النص تندرج في إطار يستهدف التخزين في الذاكرة، ويضطلع بوظائف أخرى أيضاً، ونعني بذلك الأسلوب الشفهي. والقضية هنا ليست تقابلاً بين التذكر والارتجال، وقياس أمانة النص الشفهي، أو عكس ذلك أي قياس درجة انزياحه واختلافه، ولكنها قضية رؤية ترى أن النص الشفهي ليس واقعة إغرابية أو قديمة، ولكنه حاضر معنا، يعايشنا ويستمر في ثنايا الأشكال التي نتعامل معها يومياً.

من هنا تلك المقارنات الرصينة بين معطيات اللسانيات الحديثة وما يتضمنه التراث الشفهي من مبادئ مستقلة من لغات قبائل أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وطرائق الحساب الحديثة وتلك التي تعرفها المجتمعات الشفهية. إن الفرق بين مجتمعات الكتابة ومجتمعات الشفهية ليس إذاً فرقاً بين الحضارة والتوحش بل هو إحالة إلى نمطين من المجتمعات وطريقتين في رؤية العالم وتنظيم المجتمع. ومن هنا تلك العبارة البليغة التي يختتم بها الكتاب رحلته مع التراث الشفهي: «ويبقى اللفظ» ■

نقض السرديات الكبرى جمالياً في «كيميا» لوليد علاء الدين

الاستقصاء التاريخي في مجابهة الأسطورة

حمزة قناوي

في تحليله لأثر الحكايات الشعبية على تكوين المعرفة لدى الشعوب، يقول (جان فرانسوا ليوتار): «فأولاً، تحكي القصص الشعبية ما يمكن تسميته أنواع التأهيل (Bildungen) الإيجابية أو السلبية: وبتعبير آخر، النجاحات أو الإخفاقات التي تلاقيها جهود البطل. وهذه النجاحات أو الإخفاقات إما تضفي المشروعية على المؤسسات الاجتماعية (وظيفة الأساطير)، وإما تمثل نماذج إيجابية أو سلبية (البطل الناجح أو الفاشل) للتكامل في المؤسسات القائمة (الخرافات والحكايات). بهذه الطريقة تتيح الحكايات للمجتمع التي تحكى فيه، من جهة، أن يحدد معاييره للكفاءة، ومن جهة أخرى، أن يقيم على أساس تلك المعايير ما يؤدي أو يمكن أن يؤدى فيه»[1]، وهذه المقولة التي جاءت في إطار التأسيس لما بعد الحداثة، باعتبارها مرحلةً متشككةً فيما سبق من معرفة جاءت عبر السرديات الكبرى، في مقابل ما تحقق من إنجازات تكنولوجية تفرض التشكك في هذا الموروث اليقيني، المبني على الحكايات فقط، في مقابل المعرفة العلمية، يمكن القول إن تلك الرؤية ما بعد الحداثية التي تحاول أن تدحض الحكايات الكبرى بوصفها مُسلّمات، هي ما كانت هاجساً مسيطراً على (وليد علاء الدين) في روايته «كيميا»[2].

رواية «كيميا» تؤسسُ لنقض السردية الكبرى: «مولانا جلال الدين الرومي»، في مقابل الاهتمام بـ«وضع المرأة وحقوقها متمثلةً في كيميا»، وعلى أساس هذه الحالة المسكونة بعدم الوقوع تحت أسر المقدس الماضوي، ونبش ما فيه من جراح، دون الخشية مما قد تسفر عنه، انطلق الكاتب في روايته مستحضراً عدته من التقنيات الروائية، ليحول رؤيته الفلسفية للوقائع التاريخية، إلى نوعٍ من المغامرة القرائية، التي يبحر فيها القارئ عبر ثنايا الفضاء النصي المقدم في هذه الرواية.

يقول (وليد علاء الدين): «كيف لشاعر حقيقي وصوفي عاشق أن يقدم طفلة قرباناً لاستمرار علاقته بمحبوبه؟ وكيف اختفت كيميا هكذا وكأنها لم تكن؟ لماذا لم يتأسف الرومي في أشعاره على موت قربانه الرقيق؟ لماذا عاشت نكرة وماتت مجهولة القبر، وهي الموهوبة التي تبنّاها وتربت تحت سقف بيته لتتلقى العلم على يديه؟ لماذا أهداها لشمس رغم علمه بالحب الذي جمعها بابنه علاء الدين ورغبة الأخير في التزوج بها؟ لماذا لم يزوج الرومي شمساً بابنته الحقيقية «مليكة خاتون» طالما يحبه هذا الحب الكبير؟ ما موقف والدي كيميا من تحويل ابنتهما إلى هبة لرجل يكبرها بأكثر من ثمانية وأربعين عاماً؟ صحيح يا ثريا ما وضع المرأة في عقيدة العاشق الأكبر؟». ص 67

ويمكن القول إن النص السابق هو خلاصة الرؤية الفلسفية التي بنيت من حولها المادة الأساسية للرواية، وهو ما يذكرنا بمقولة: (جان فرانسوا ماركيه) في حديثه عن مركزية الرؤية الفلسفية لدى الكاتب، عندما يبث في ثنايا نصه رؤيته الفلسفية بطريقة متشظية، وكأنما قد قام بقتل الفيلسوف الذي في داخله، وأعاد إراقة دمائه في ثنايا النص الذي يقدمه [3]، وهذه الفكرة تصلح تماماً أن تكون تعبيراً واضحاً عن الحالة التي استغرق فيها (وليد علاء الدين)، ما بين الإجابة الساخرة للمشرف السياحي عندما سأله عن (كيميا) من كونها شخصيةً غير ذات أهمية، وبين رؤيته التي تحاول أن تلقي الضوء على إنسانية الإنسان، واستعادة حق المرأة بعد أكثر من ثمانية قرون، وضرب مثالاً لحرية التناول والتحرر من القدسية التاريخية لشخصية (جلال الدين الرومي)، الذي يصبح محل اتهام، ومحل تساؤل، بيد أن ما كان يسيطر على (وليد علاء الدين) عقلية الباحث أكثر من تصور الروائي.

إن كل ما سبق لا يمكن أن يكون بالنسبة لنا معياراً للجمال الإبداعي وحده، ما لم يكن مقترناً بتقنياتٍ إبداعية وجمالية في طريقة سبك وصياغة الرواية، وهذه التقنيات هي مناط الاهتمام الأساسي للنقد الروائي المنهجي، فلا نسعى لمجرد تفسير الرؤية، التي جاءت مباشرةً في النص السابق، والتي تم تكرار تبنّيها وتأكيدها مراتٍ عدة في ثنايا النص، وإنما يعنينا بالأساس، كيف عبَّر - جمالياً - عن هذه الرؤية، وهل حقق عنصر التشويق، وعنصر الإمتاعية الأدبية؟ هل الدلالة متساوقة مع البنية؟ أم إن الفكرة سيطرت على الكاتب، فأخلص لها أكثر مما أخلص لنصه الروائي؟ يصارحنا المؤلف منذ البداية بأنه يكتب متأثراً برواية «بنت مولانا» للكاتبة (مورل مفروي)، ويقارن بينها وبين رواية «قواعد العشق الأربعون» لـ(إليف شافاق)، في نص عندما يتناوله القارئ منفرداً، فسيظن أنه يقرأ مقالاً تحليلياً يقارن بين صورة شخصية تاريخية عند مؤلفتين، ويصدر الحكم على كلتا الرؤيتين، وبشكلٍ يصلُ إلى حدِّ المباشرة والتقريرية، يقول: «شرارة اهتمامي بهذه المخلوقة المسكينة كانت في رواية «بنت مولانا» التي كتبتها الإنجليزية مورل مفروي - قبل سنوات من رواية التركية إليف شافاق «قواعد العشق الأربعون» ... كيميا عند شافاق شخصية ثانوية لا قيمة لها في ذاتها...»ص105.

إذا تأملنا مقولة «تشكل السرديات الكبرى في حياة البشر موضوعاً أثيراً للحكي، وفضاءً رحباً للكتابة الروائية. ويتقاطع مفهوم السرديات الكبرى مع مفهوم الأنساق التاريخية أو الفكرية أو الدينية أو الاعتقادية التي تصوغ رؤيةً شاملةً للعالم»[4]، فإن نقد الرؤية المطمئنة والواثقة لدى قطاعات عريضة من القراء، تحتاج للكثير من التحليلات السردية العظيمة أيضاً، ما يعني أنها تلقي مزيداً من الصعوبة الخطابية، والصعوبة السيميائية على استخدام التقنيات السردية، فهذه السرديات الكبرى تبدو في عقلية الناس وكأنها حقيقة مطلقة، وعندما يرغب كاتب في

نقضها عبر التأليف الروائي، ويرغب في وضعها موضع المساءلة، فإنه مطالبٌ بأن يأتي بالكثير من العناصر الجمالية التي تعمل على تهيئة العقل للتفكير في مثل هذه الأمور.

لقد استفاد من التشابه بين اسمه، وبين اسم ابن (جلال الدين الرومي)، ليجعل منه انعكاساً من صورة المرآة، واستفاد من تقنيات العودة في الزمن لخلق حالة من انعدام الزمكان، والقدرة على التحليق بشفافية متخطياً عوالمَ المكان والزمان، وقدر من المغامرة التي تشبه مغامرات المحققين السريين ليعمل على تشويق القارئ وجذبه أيضاً، ليظل طوال الوقت مشدوداً إلى تلك الوقائع الغريبة، وتلك الأحداث التي تقع أمامه، إضافةً إلى التراث الصوفي نفسه، فما يشير إليه المؤلف من قائمة مراجع، توضح أنه قام بإجراء بحث تاريخي موسّع حول (جلال الدين الرومي)، وحول تاريخه وطريقته، لقد أجرى تقصياً تاريخياً كبيراً، أثبت له بما لا يدع مجالاً للشك، أنه ليس هناك ما يكفي من توثيق وذكر تاريخي، لشخصية (كيميا). وهذا الأمر في حد ذاته - رغم أنه يحسب للمؤلف لا شك- فإنه يمكن أن يحسب عليه أيضاً، فإذا كنا في النهاية لا نعرف يقيناً ماذا حدث لـ(كيميا)، والكثير من المعلومات حول الشخصية مستمد من الرؤية الروائية، فكيف من هذا الشك أن يكون مقنعاً للنيل من سردية كبرى مثل سردية (جلال الدين الرومي)؟ ومع ذلك فإن النص يبقى له جدة الطرح المغاير، والتساؤلات التي تضرب في كل ناحية، على شكل ربما لم يخطر بالبال من قبل أن يتم التساؤل عنه، فقد استغل المؤلف الموضوع الرئيسي: «وضع المرأة في الطريقة المولوية»، ليقدم من خلاله ملاحظات عدة حول التاريخ، منها على سبيل المثال استغلال الأتراك للإسلام كسبيل لغزو العالم، وبينما تركت الكثير من الأماكن التي تم فتحها، واعتنقت الإسلام، تركوا لغاتهم الأصلية، وتحولوا للغة العربية، إكراماً لها لكونها لغة القرآن الكريم، إلا أن الأتراك، الذين كانوا يمثلون الخلافة العثمانية، حافظوا على اللغة التركية ولم يقبلوا تغيير لغتهم، ولا تغيير ملابسهم، ولا حمل السواك، في إشارة واضحة، إلى نوع من الرؤية السياسية قابعة في الخلفية لدى المؤلف أيضاً، وهو ما يأتي على خلفية السياق النصي من ملاحظات عن المكان، وعن السياحة في تركيا، وعن ضعف إتقان اللغة الإنجليزية لدى الأتراك، رغم رغبتهم في الالتحاق بالاتحاد الأوروبي، الحديث العابر عن العادات والتقاليد واللون الأخضر، والكثير مما تركه العثمانيون كميراث تظهر أحياناً تأثيراته في مصر، حتى الحرب بين مصر وتركيا في الماضي كانت حاضرة أيضاً.

لكن كل هذا لا يبدو كافياً، فها هو (جوناثان كولر) يقول: «وليس جوهر الأدب هو التمثيل. ولا شفافية التوصيل. إنما جوهره إبهام ما، مقاومة للفهم تمرن الحساسية والذكاء؛ فكما أننا سنتوقف عن الألعاب إذا تحكمنا فيها تماماً، فكذلك الأمر في اهتمامنا بالأدب، إنه يعتمد على ما يسميه جيفري هارتمان «العلاقة المتميزة للشكل بالوعي»... التوتر بين القراءة والكتابة[5]، لذا حشد وليد علاء الدين نصه بكثير من التقنيات، أبرزها أن روح (علاء الدين بن جلال الرومي) قد تلبسته، وسكبت في روحه محبة لـ(كيميا)، ورغبة عارمة في معرفة مكان قبر (كيميا) أيضاً، ليضع شاهداً من الحجر دقيق الصنع على مرقدها.

وبينما يحاول (وليد علاء الدين) متلبساً بروح (علاء الدين)، حتى إنه يقول: «أحمد.. أعرف أن تواصلنا ليس منتظماً.. ولكن إذا اختفيت من الحياة، فأنا في قونية، تطاردني أشباح يقودها علاء الدين بن جلال الدين الرومي.. لم يجد غيري ليدله على قبر كيميا حتى تهدأ روحه» ص103، وهذا الجانبُ الغرائبي، ولعبة الألغاز التي أدخلنا فيها المؤلف لكي يبث من خلالها ما يرغب في أن يقوله، خصوصاً بعض الرؤى السياسية المتعلقة بنفوذ الدراويش الصوفيين لدى الحكام في الماضي، وفرض مبدأ التسليم المطلق وعدم التساؤل، والسياق الرسمي الذي تتبنّاه حالياً الحكومة التركية للجذب السياحي باستخدام السيرة التاريخية لطريقة مولانا جلال الدين الرومي، كل تلك نقاط من الصعب كان بثها من دون تقنية التلبس الروحي التي تتملكه وكان الأمر صعباً للغاية وغير مقنعٍ فنياً، وغالباً سيغيب عن القارئ التساؤل: ما الذي يبدو مريحاً لروح (علاء الدين) في معرفة مكان قبر (كيميا)؟ وما الذي لدى (وليد علاء الدين) يستطيع أن يقدمه لروح (علاء الدين) أكثر مما تستطيع تلك الأشباح التي تطارده أن تقدمه له؟ لقد رفعَ

المؤلف «أفق التوقع» لدى القارئ بشأن قبر (كيميا)، حتى إننا في لحظة كدنا نشعر باقتراب أن يعرف مكان قبرها، وهو ما يعد في حد ذاته إنجازاً تاريخياً له قيمتُه، لكن سرعان ما نعود من هذا التوقع، إلى عدم قدرة تحديد قبر (كيميا) على وجه اليقين، بل ربما لا نستطيع أن نعرف ما الذي حدث لها بالضبط أيضاً، ففي النهاية يبقى كل ما لدينا مجرد تكهنات، ورؤى لمجموعة من الروائيين والروائيات، وربما لو لم تكن النسوية لها قوتها الثقافية الآن، لما كان للموضوع رونقه، أو احتمالية طرحه كخلفية فلسفية يُبنَى عليها سياقٌ روائيٌ، يكتسبُ نوعاً من التشويق عبر المغامرة، والتنقل في المكان، والتدعيم بالخلفيات التاريخية للشخصيات المتنوعة، فضلاً عن الرؤية النقدية للوضع المادي والاقتصادي، فتأكيد استغراب المؤلف كون أغلب الهدايا التذكارية المقدمة للسائحين هي صناعة صينية، وليست صناعة يدوية، أو صناعة تركية. وقد اختار المؤلف أن تكون الشخصية الرئيسية والراوي والسارد في الرواية، هي شخصيته بذاتها، ليوفر علينا عناء البحث عن المؤلف الضمني، والأنا الثانية للكاتب، ليقدم لنا آراءه ورؤيته على نحوٍ مباشرٍ تماماً، وهنا نستطيع القول إن الصوت الذي كان يسمعه ما هو إلا تجسيدٌ لضميرهِ، وحضورٌ لنوعٍ من الحسرة على ذلك العاشق الذي كانت أمامه معشوقته، وتبدو هي الأقرب له سنياً، لكن لا يستطيع أن يتزوجها لتذهب إلى مصيرها المحتوم مع (شمس التبريزي)، ضمير الراوي وتساؤلاته وطرح النظر للشخصيات التاريخية بوصفها شخصياتٍ إنسانيةً عاديةً، لديها الرغبات المكبوتة، ولديها المشاعر ذاتها التي نشعر بها من غيرة وحقد وطمع وحسد، وقد أراد أن يقدم هذه الرؤية في قالب من البنية الروائية، بدلاً من تقديمها في بنية مقال، أو عبر دراسة أو تحليل، ليأتي النص الختامي للمغامرة التي قادها باحثاً عن شاهد (كيميا) معبراً تماماً، ومن دون غموض، يقول: «حين تجد سبيل حالك، أرح ضميرك، ضع شاهدة الضريح، اغرسها هنا في قلب مقبرة قاتلها، دع الناس يعرفون قتيلة مولانا، اغرس السؤال بين صدورهم، ضع بذرة الفكرة، ولا شك سوف تنبت فيعرف البشر أن حياة فتاة - على بساطتها - فوق كل دين وقبل كل معبود.. اغرس شاهدة قبرك وارحل إلى ديارك فإنك أتممت الرسالة»ص217. وهذا النص الذي أرى أنه النهاية الحقيقية للفضاء النصي، وليس الصفحات الأخيرة المتبقية، دالٌ على ما رغب المؤلف في توصيله، ولكن لماذا اختار أن تكون الشخصية الرئيسية لعمله الروائي هي شخصيته هو ذاته؟ في اعتقادي أنه لم يرد أن يكون في النص خلفيات تاريخية لشخصيات روائية بخلاف الشخصيات التي أراد أن يحكي عنها، شخصية (كيميا)، وشخصية (علاء الدين)، و(جلال الدين الرومي)، و(شمس التبريزي) و(كيرا خاتون) زوجة (جلال الدين)، وهكذا، ومن ثم فاستحضار شخصية غير المؤلف كانت ستستدعي سياقاتٍ تاريخيةً وتأصيلاً روائياً لهذه الشخصية ربما لم يرد المؤلف أن يثقل عمله بها، أو ربما هي بداية لسلسلة من المغامرات التي سيكون فيها المؤلف حاضراً بنفسه ليقدم لنا كل مرة رؤية جديدة من زاوية مغايرة■

* شاعر وناقد مصري

الهوامش:

1. جان فرانسوا ليوتار: الوضع ما بعد الحداثي، ترجمة: أحمد حسان، دار شرقيات، القاهرة، 1994م، ص 41.
2. وليد علاء الدين: كيميا، دار الشروق، القاهرة، 2022م.
3. راجع: جان فرانسوا ماركيه: مرايا الهوية: الأدب المسكون بالفلسفة، ترجمة: كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005م، ص 21.
4. د.عماد عبد اللطيف: تمثلات السرديات الكبرى، مجلة الكوفة، جامعة الكوفة، عدد 10، الكوفة، 2016م، ص 85.
5. جوناثان كولر: نحو نظرية لأدب اللا نوع، ضمن: القصة الرواية المؤلف: دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، ترجمة: د.خيري دومة، دار شرقيات، القاهرة، 1997م، ص 195.

فنون «الرقص» العلاجية

نورة صابر المزروعي

حظيت الفنون بمنزلة مهمة في الحضارات القديمة، يذكر د. سهيل قاشا في كتابه «عراق الأوائل: حضارة وادي الرافدين» أنشأ الملوك في قصورهم دوراً للغناء والموسيقى والرقص، حيث كانت مصدراً مهماً للترويح عن النفس ومصدراً للتشافي الروحي. وذكر علماء الحملة الفرنسية في كتاب وصف الموسيقى والغناء في مصر، يعد الرقص أرقى وسائل التعبير عن الروح والمشاعر والأحاسيس؛ علاوة على أنها رياضة حركية يقدمها بعضهم في صورة رقصات تعبيرية[1].

كما تظهر تلك الفنون من رقص وشعر وموسيقى بوضوح في الدراما المسرحية[2]. وحرصت الحضارات القديمة على نقش تلك الفنون على الجداريات وبالكتابة على أوراق البردي. واعتبرت الحضارات القديمة أن تلك الفنون تطهر النفس وترتقي بالمجتمعات ذوقياً وفنياً. كما حرصت على أن يكون فن الرقص ضمن الفنون التي يجب على المرأة أن تمارسها. فصارت تُنشأ الفتيات في الحضارات القديمة على تعلم فنون الرقص التي ترتقي بسلوكها وتعزز من أنوثتها[3].

وأدركت الدراسات الحديثة تأثير الحركة البدنية «الرقص» على الصحة العامة فهو يعمل على تحقيق التفاعل والاتصال مع البيئة الخارجية. لذلك تم توظيف جلسات للرقص لدى مرضى التوحد في المدارس والمستشفيات للتخفيف من حدة فرط النشاط الزائد.

فالرقص يعد واحداً من التمرينات المهمة لخفض التوتر والقلق وتفريغ الشحنات الزائدة (الطاقة العدوانية)، وهذا يعمل على تحسين النوم والمشي، وتهدئة النفس، واستعادة التوازن، وتحسّن المزاجية إلى جانب عنصر الاستمتاع والتسلية. كما يعمل الرقص على التوافق الحسي الحركي لدى مرضى التوحد[4]. وتوجد جلسات رقص للمصابين بأمراض الجهاز التنفسي المزمنة وقسم العلاج النفسي. ففي المستشفيات البريطانية يتضمن قسم أمراض الجهاز التنفسي فرعاً لجلسات رقصٍ من جنوب آسيا، وجلسات رقصٍ من شمال آيرلندا، وكذلك في جمهورية قيرغيزستان يُوظف الرقص في أقسام الجهاز التنفسي، .كما تُوظف جلسات رقص في جنوب أفريقيا في قسم أجنحة مرض السل. وتؤكد دراسات حديثة أن الرقص وسيلة للتخلص من الضغوط النفسية، وأنه يؤثر إيجابياً على تهدئة الجهاز العصبي. وأجريت دراسات تبيّن أن هناك ارتباطاً قوياً بين ممارسة الرقص وتحسين المزاجية خاصة لمن يعاني اضطرابات عصبية. وقدم باحثون تقارير عن نتائج فعالية توظيف الرقص في أجنحة أمراض الجهاز التنفسي وقسم العلاج النفسي وتأثيره في الحالة النفسية، خلصت الدراسة على قدرة برامج الرقص في تحفيز المرضى وتشجيعهم على المشاركة وخفض التوتر والقلق وحالات الاكتئاب وضبط عملية التنفس[5].

دوّن عالم النفس بيتر لوفات ملاحظاته أن إدخال ممارسة الرقص العشوائي في المستشفيات في قسم العلاج النفسي، أسهم في تحسينات فسيولوجية ونفسية المرضى المصابين بحالات اكتئاب. وأجريت دراسة سويدية على عينة من 100 فتاة يعانين مشكلات، مثل: الاكتئاب والقلق والتوتر والخوف، 50 مشتركة منهن حضرت دروس الرقص الجماعية، وكن يحضرن دروس الرقص أسبوعياً بينما النصف الآخر لم يشاركن، ووجدت النتائج تحسناً ملحوظاً في الصحة النفسية والعقلية للفتيات اللاتي كن يشاركن في هذه الدروس، واستمرت هذه الآثار الإيجابية لفترة طويلة. وتنصح الدراسات الحديثة النساء اللائي يواجهن ضغوطات نفسية والرهاب الاجتماعي بالمشاركة في صفوف الرقص الجماعية[6].

عمل الفنانة سارة العامري

تؤكد الدراسات الحديثة بأن إدخال الأنشطة الفنية في حياتنا لها تأثير إيجابي على الصحة النفسية والبدنية. ويوضح الدكتور بيروسكا أوستلين، المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لأوروبا، أن ممارسة الفن في حياة الناس، عبر أنشطة تشمل الرقص والغناء وحضور الحفلات الموسيقية، «أن هذه الأنشطة من الطرق والفنون التي تمكّن من مواجهة التحديات الصحية، مثل: السكري، والسمنة، والمرض العقلي». ويؤكد بأنها تقدم حلولاً لمشكلات صحية لم تنجح الممارسة الطبية التقليدية في معالجتها[7]، حيث يتعرض البشر بشكل يومي إلى ضغوط نفسية وجسدية ما يؤدي إلى امتصاص الجسد لطاقات سلبية وشحنات زائدة مستمدة من البيئة الخارجية، إن ممارسة الرقص تعد وسيلة ممتعة وفعالة للتخلص من الطاقات الزائدة التي يمكن أن تتحول إلى أمراض عضوية ونفسية، كما أنها وسيلة للتعبير عن مشاعر الفرح والحزن والغضب من خلال الإيقاعات الموسيقية الهادئة مع الحركات البطيئة، أو التعبير عن الغضب من خلال بعض الحركات السريعة. وتؤكد الدراسات أن فن الرقص يعمل على تعزيز الثقة بالنفس فيما يخص شكل الجسم، ويساعد على تعزيز الثقة من خلال القدرة على استخدام تكنيكات خاصة بفن الأداء الحركي وفي حالة تجويدها تعزز حب الذات. إن ممارسة الرقص تجعل المرأة في حالة اتصال حقيقي مع الذات ومعايشة اللحظة بإيقاعها وكلماتها المعبرة. وذكر عالم النفس بيتر لوفات وفريقه البحثي في جامعة هيرتفوردشاير في المملكة المتحدة البريطانية أن المواظبة على الرقص في الصالات الرياضية فريد من نوعه بين أشكال الرياضات الأخرى حيث يختلف الرقص عن غيره من أشكال التمارين البدنية لأنه يحتوي على ثلاثة عناصر حيوية لتحسين الصحة؛ فالرقص يعزز الحس الاجتماعي، والحس الإدراكي، والحس الجسدي[8].

كما أن الموسيقى المصاحبة لكلمات الفرح والسعادة تساعد في إفراز مواد كيميائية في المخ، كالأندروفين والدوبامين، وهما من الناقلات العصبية المسؤولة عن مشاعر السعادة. وهذا بحد ذاته يعمل على رفع مستوى الطاقة الإيجابية وتحسن المزاجية. وممارسة الرقص تعزز عامل «التركيز»، وهي حالة تأملية تسمح بالتركيز لالتقاط الحركات.

ما يدفع المشتركات في الرقص الجماعي إلى الانتباه على أداء الحركات بصورة صحيحة وهذا التركيز يسمح لهن أيضاً بأن يكنّ أكثر وعياً وإدراكاً للحالة العقلية والنفسية، ويتخلصن من المشوشات الخارجية، والتركيز، ويساعدهن على الانتباه وتصفية الذهن في كل ما يتعلق بالحياة العامة. كما أن محاولة تذكر الحركات يعمل على زيادة القدرة على التركيز، وتعزيز التناسق والتوازن بين أجزاء الجسم المختلفة.

ويعزز فن الرقص تجربة «التدفق الطاقي» أيضاً، إن الحركة التي يصاحبها تركيز على الأداء الحركي تعمل على تدفق الطاقة أسفل العمود الفقري إلى الأعلى لكثرة تركز الحركة حول منطقة الحوض وهذا بشأنه يعمل على التخلص من المشاعر السلبية المختزلة في منطقة البطن وما حولها. إن أي فكرة تطرأ على الذهن متعلقة بمسؤوليات الحياة والعمل: من إلقاء محاضرة عامة، ومقابلة مسؤول، ومرحلة البدايات،...إلخ، تحمل بذوراً من القلق والتوتر والخوف كلها تختزل في منطقة البطن وتؤدي إلى اضطرابات في الجهاز الهضمي. الرقص أنجح الطرق للتخلص من كل الطاقة الزائدة غير المرغوب بها في تلك المنطقة وبشكل عام فالرقص يجدد الطاقة الحيوية في الجسم.

كما أن للرقص بتعدد أشكاله وألوانه العديد من الفوائد التي تنعكس على الصحة الجسدية، التي تعكسها ممارسته، مثل: تنشيط الدورة الدموية، والمرونة، وخفة الحركة، وحرق الدهون، وزيادة الكتلة العضلية، والقدرة على التحمل، كما أن

الرقص يسهم في إنقاص الوزن، ويمكن أن يكون وسيلة للتخلص من البدانة، والحفاظ على اللياقة البدنية، وتقوية العظام والعضلات الجسم شكل عام[9].

* أكاديمية من الإمارات

الهوامش:

1. علماء الحملة الفرنسية، الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين، الحكومة الفرنسية، 1809 - 1828، ترجمة زهير الشايب دار الشايب للنشر، القاهرة، ص 29.
2. شيماء المربي، الموسيقى اليونانية عراقة وتفرد في الإبداع، الجزيرة، قطر، الدوحة، 26 يناير 2017، https://1-a1072.azureedge.net/blogs/2017/1/26
3. جميس بك، الآثار المصرية في وادي النيل، ترجمة نور الدين الزراري، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الجزء الخامس، 1989، ص 44.
4. د.نيللي محمد العطار، الموسيقى في علاج أطفال التوحد، جامعة الإسكندرية، المكتب الجامع الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة، 2014، ص 101-17.
5. FarmerC. DanceWellEvaluationReport2016-2019. London, Akademi, 2018. Available from: https://akademi.co.uk/wp-content/uploads/2018/11/DW-Evaluation-Report-2018-FINAL-web.pdf
6. https://www.babonej.com
7. https://news.un.org/ar/story/2019/11/1043501
8. المصدر السابق
9. https://akhbarelyom.com/news/newdetails/3403467/1/

من روائع التراث السينمائي العالمي

«احتقار».. بين أوديسيوس الفرنسي وبوسيدون الأمريكي

فيبي صبري

في فيلمه الثالث في مطلع الستينيات من القرن الماضي اختار جان لوك جودار أن يقص حكاية ذات حبكة كلاسيكية تستند إلى رواية، في هدنة قصيرة من أسلوبه المفكك في سرد فيلميه السابقين. كان المنتج الإيطالي كارلو بونتي هو من اختار رواية ألبرتو مورافيا لاقتباسها للسينما، كما أتاح الأجر اللازم لاستخدام أيقونة الجنس «بريجيت باردو» في الدور الرئيسي ليضمن نجاح الفيلم، فهل اتبع جودار مساراً تقليدياً ليحكي قصة عادية عن انهيار علاقة زوجية؟

بدأ جودار فيلمه بلعبته المفضلة في كسر الإيهام وتذكيرنا أننا نشاهد فيلماً، مستعرضاً بصوته أسماء المشاركين في صناعته، بينما نرى المصور يتابع بكاميرته الممثلة جورجيا مول . المترجمة في الفيلم . وهي تقرأ نصاً، يقتربان معاً حتى تملأ الكاميرا الكادر وتتحول لتواجهنا، لقد صرنا جزءاً من اللعبة، فإذا كنت ستصنع فيلماً عن السينما لابد من وجود جمهور.

إذا حسبنا ذلك المشهد التمهيدي المربك بمثابة مقدمة للفيلم، فالمشهد التالي هو الافتتاحية الصادمة مزدوجة المغزى؛ إذ يضعنا مباشرةً في ذروة الحميمية والحب بين الزوجين بول وكاميل في فراشهما، كما يسخر ضمنياً ممن يشاهد الفيلم . أو ينتجه . للتمتع أولاً برؤية جسد باردو، بمنحه ما يريد في الدقيقة الأولى. بول . ميشيل بيكولي . كاتب مسرحي، سيقابل منتجاً أمريكياً في إحدى الاستديوهات الإيطالية، وذلك للاتفاق على مشروع كتابة سيناريو. كانت الستينيات سنوات الأفول لنجوم العصر الذهبي لهوليوود وبدء البث التليفزيوني. عند التقائهما عبّر المنتج الأمريكي جيري بروكوش . الذي يقوم بدوره جاك بالانس . عن ذلك القلق بشكلٍ صاخب في مونولوج مسرحي، مجسداً الخوف من اندثار الصناعة بأكملها

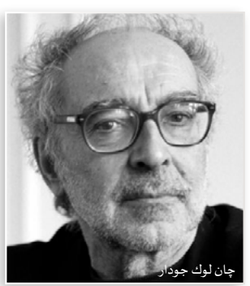

جان لوك جودار

بعد اضطراره إلى بيع الاستديو الذي امتلكه. لكن بول يؤكد له أن «السينما ستبقى إلى الأبد». يعرض عليه بروكوش إعادة كتابة الفيلم المأخوذ عن الأوديسة والذي يخرجه بالفعل فريتز لانج . هو يجسد شخصيته الحقيقية هنا كأحد أعلام السينما الألمانية. لأن ما تم تصويره لم ينل إعجابه. وعقب ذلك يجتمعون معاً في غرفة العرض السينمائي لمشاهدة الفيلم: بروكوش، الأمريكي المتطفل على أوروبا، بين بول الفرنسي ولانج الألماني والمترجمة جورجيا مول الإيطالية.

يمثل بروكوش ما يعنيه المنتج الرأسمالي بالنسبة لجودار بشكل كاريكاتوري، فهو يبحث عن استثمارٍ ناجحٍ لأمواله، فهو لا يطمئن لكلمة ثقافة التي تجعله «يتحسس دفتر شيكاته»، ومع ذلك يختار ملحمة مؤسسة في الثقافة الغربية لينتجها، يعبر عن رغباته بفجاجة ويستعمل المحيطين به . يجعل المترجمة تنحني أمامه ليكتب شيكاً على ظهرها . متوقعاً منهم الامتنان، يحمل كتيباً مملوءاً باقتباسات صالحة للترديد ليخفي ضحالته بين الفنانين الذين يتعامل معهم. الرأسمالي ليس أقل من وريث النازية كما يراه جودار، لا يُخضِع من يريد بالسلاح ولكن بحاجته إلى المال وامتلاك الأشياء، كالشقة التي يقيم فيها الزوجان والستائر التي تريد كاميل شراءها. حين يشاهدون الفيلم المغضوب عليه، الذي يقدمه لانج بوصفه «عن الفرد ضد الظروف، صراع البشر مع الآلهة»، يستاء بروكوش لغياب القدر الكافي من العنف والجنس في المشاهد المتعاقبة، وبينما تتوالى تماثيل الآلهة على الشاشة يتمتم:

«الآلهة.. أحبهم جداً، أعرف بم يشعرون بالضبط».

هذا ما يقوله صادقاً، عاكساً ذاته المتضخمة وشعوراً سافراً بالتفوق، ليجيبه لانج بهدوء: جيري.. لا تنس أن البشر هم من خلقوا الآلهة. ورغم تأكد لانج من عدم استيعاب بروكوش لمعنى الأوديسة فإن الأخير لا يتردد في إعلان نظريته الخاصة عنها؛ التي تتلخص ببساطة في خيانة بنيلوبي لأوديسيوس، عكس المعروف عن الملحمة.

تأتي كاميل لاصطحاب بول من الاستديو، وبينما تجري إليه يقطع بروكوش الطريق بينهما بسيارته الحمراء المكشوفة، ولا يستغرق الأمر سوى دقائق قبل أن يدعوها لتناول كأس بصحبته! تظن هي أنها مدعوة إلى بيته بصحبة زوجها وتفضل أن تنتظره لتستقل معه سيارة أجرة، إلا أن اللحظة التالية التي يدفعها فيها بول إلى سيارة بروكوش، فاتحاً لها الباب بتعجل، مطمئناً إياها أنه سيلحق بها سريعاً، كانت بداية النهاية، والسقوط الذي يستحيل إيقافه على منحدرٍ زلق. كان ليدرك ذلك من ارتباكها ونظرة عدم تصديقها لما يفعل، لو أنه اهتم أن يتطلع إلى وجهها بقدر اهتمامه بالشيك الذي استلمه لتوه من ولي نعمته الجديد. عقب انطلاق بروكوش وكاميل بالسيارة نرى لقطة لتمثال بوسيدون

يبدو فيها متسيداً ومنتصراً، وسنرى التمثال ذاته مرة أخرى عند اجتماعهم تحت مظلة بروكوش.

أمعن بول في الانحدار حين وصل بيت بروكوش متأخراً ساعة كاملة، بدأت زوجته في تجاهل مبرراته وإظهار غضبها، فيما تعامل معه جيري بلا مبالاة، ودعاهما لصحبته إلى جزيرة كابري التي يجري فيها التصوير. جزيرة كابري كما يُفترض هي موطن عرائس البحر في الأوديسة، هناك سنشهد فصلاً جديداً من الملحمة إذن. لن نعرف أبداً إن كان جيري قد غازل كاميل في الوقت الذي انفرد بها خلاله، ولا نشعر أن هذا ما يهم حقاً، خاصةً في النصف ساعة التي يستغرقها حوار بول وكاميل عن الموضوع في شقتهما لاحقاً. هناك بعد استحمامه يلف بول نفسه في دثار أبيض طويل على غرار الزي اليوناني القديم، أوديسيوس عصري، يعتقد أن بنيلوبي لم تعد تحبه، فهل كان يدفعها إلى بروكوش ليعجل بقدر محتوم ويواجه أسوأ توقعاته؟

مباراة حوارية طويلة يحاول بول خلالها أن ينتزع منها اعترافاً بالغضب وتجابهه بكبرياء ساخر، نرى تتابعاً للقطات من الماضي والمستقبل مع تعليق صوتي منهما معاً؛ هو مصرحاً بخوفٍ قديم مستقر من هجرها له، وهي متحسرة على ما كان بينهما، عازمةً على الانتقام منه بصمتها. موسيقى جورج ديلروي الساحرة الباعثة على الشجن بيئة مثالية للمأساة التي تتطور حثيثاً بشكلٍ قدري، وزرقة البحر الأدرياتيكي في كابري خلفية رائعة.

في نقاشه مع فريتز لانج عن الأوديسة يطرح بول فكرة جديدة كلياً، فأوديسيوس دفع زوجته إلى قبول هدايا خاطبيها لأنه وثق في حبها، أي إنه أراد الكسب على جميع الصُعُد. لكنه ما إن فعل حتى فقد ذلك الحب، لهذا قتل المتقدمين إليها، ليستعيد حبها. كيف كان يأمل في استعادتها إذن وقد وافق لتوه على تركها بصحبة بروكوش على الجزيرة؟ لقد تعمدت أن تجعله يراها بين ذراعي الأمريكي، لكنها في الوقت نفسه أفرغت مسدسه من رصاصاته لتمنعه من رد فعل أحمق لن يجعلها تحبه ثانيةً على أي حال.

يدافع بول عن نفسه قرب النهاية بأنه وافق على كتابة السيناريو لأجل المال فقط، ثم يلقي اللوم على المال الذي صار يتحكم في كل شيء، كأنه معدوم الإرادة ولا يملك رأياً في أولوياته الخاصة!

«في هذا العالم عليك القيام بما يريده الآخرون، لماذا المال بهذه الأهمية؟ يحدد ما تفعل ومن تكون».

هي صحوة غير أصيلة أيضاً، دفعه إليها الأمل في استعادة احترام زوجته المفقود بلا طائل.

بدا لوهلة أن إله المال هو من فاز في هذه الأوديسة، إذ ترحل كاميل معه إلى روما، تاركةً رسالة وداع لبول، لكن حادث سيارة عشوائي يقتلهما في الطريق، هذا إله يمكن قتله كما يتمنى جودار. الفن وحده يستمر على أي حال، فعلى جزيرة كابري يصعد بول درجات لا نهائية كأنه يصعد إلى الأكروبوليس، ليصل إلى موقع تصوير المشهد الأخير من فيلم فريتز لانج مع ظهور جودار كمساعد له؛ مشهد عودة أوديسيوس إلى وطنه إيثاكا، كما سيعود بول إلى الكتابة للمسرح.

ومثلما افتتح الفيلم ينتهي، بصمتٍ صارم من الجميع، وكاميرا السينما تتحرك أمامنا وتسجل وتصور العالم المنسجم مع رغباتنا، كما قال بازان وأراد لانج، وكما ستفعل دائماً ■

* كاتبة وإعلامية مصرية

قراءة في كتاب «مشهد العلاف»

«روسينانت.. الحب السَّامِي».. طرح جديد للحوار بين حضارتيْن

خالد عمر بن ققه

يشكل البحث عن دفء المشاعر حالة إنسانية عامة في عصرنا على المستوى الثنائي بين الأفراد والجماعات والأمم، ويأتي ذلك من شعور عام بفقد مشاعر الحب، والرغبة الصادقة في «التّعرُّف» على الآخر، بما قد يحمله «التَّعارف» في وقت لاحق من اتفاق أو اختلاف، وكذلك من خوف - مبرر ومشروع - من حلول جفاف وقحط في العلاقات المشتركة، ربما ينتهي بنا إلى رفض التعايش بين الثقافات والأمم، وما يتبع ذلك من عنف في الخطاب وفي الفعل.

غير أن تلك الحالة، التي تحاول إنهاء التراجع الحضاري، وإيقاف الحرب على القيم الإنسانية المشتركة، تمثل بحثاً متواصلاً وسعياً من بعض الفاعلين في مجالات الفكر والثقافة والتراث والتاريخ، في محاولة منهم لدفع المشاعر نحو التدفق من جديد، وما يصحبها من معرفة جادَّة للآخر، اعتماداً على المراجعة التاريخية لعلاقات مُدّت من خلالها ممرات، حتى في فترة أزمنة الحروب، والصراع، والتغيرات الكبرى.

والسعي لمد جسور المحبة، لا يمكن تحقيقه إلا إذا تركز اهتمام أصحابه عن معرفة مُؤَسَّسَة سواء لحاضر العلاقات بين الثقافات والأمم في الوقت الراهن، أو تلك التي يودّون حصولها في المستقبل القريب، بحيث يغدو الحوار فعلاً مقبولاً، وخطاباً حسَناً يحقق نوعاً من المشاركة القائمة على قاعدة «الإذن والتحقق»[1]، الأمر الذي يجعله امتحاناً عسيراً لا يفوز فيه إلا أولئك الذي جعلوا منه اختياراً واعياً وحضارياً. من هذا المنطلق، يمكن لنا النظر إلى كتاب الدكتور «مشهد العلاف»[2]، الذي حمل عنوان «روسينانت الحب السَّامي»[3] على أنه إحياء لتراث المشاعر الإنسانية من خلال سرد قصة حب كبيرة ظلت طي الكتمان لعصور، ألفت بين أدباء أوروبا ومفكريها من جهة، وآداب العرب من جهة ثانية، وامتدت منذ عصر الأندلس حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وتجلّت في تأثر الأوروبيين البالغ بالأدب العربي واللغة العربية، وأخلاق العرب، بما في ذلك احترامهم للمرأة.

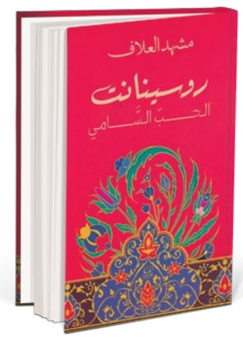

• حصان «دون كيخوته»

قصة الحب تلك، كانت نتاج عاملين، الأول: الحضارة الإسلامية في الأندلس، والثاني الجوار الجغرافي مع أوروبا، وتأثرت بالمناخ العام السائد في فترتي الازدهار والانهيار، وفي الفترتين ظلت مشاعر الحب متبادلة إن لم تكن على المستوى الجماعي، فعلى المستوى الثنائي، وإن خانها بُعدها الإنساني فقد حافظ عليها الجانب الحضاري والفكري، وإن خذلها حاضر العلاقة المتأزم في ذلك الوقت وغيّبها، فقد أحضرها الماضي المعرفي، المنقذ للعلاقة وتدفق المشاعر، بعفوية أو بحذر، من النهاية المؤلمة.

يركز المؤلف، بوعي، على التراث المعرفي الجامع للقيم المشتركة، الذي يتخطى أو يتغافل عن أزمنة الصراع والعداوة، ويعمل على عودة نشأة علاقة الحب، حتى لو كانت خاصة بسكان الأندلس، لجهة تأصيل القيم، ومنها «قيم الفروسية والبطولة»، وهو ما نراه جليّاً في عنوان الكتاب، حيث استحضار تلك القيم بذكر«روسينانت» (حصان دون كيشوت)[4] باعتباره كلمة دالة تحيلنا إلى «القيم المشتركة بين العرب والأوروبيين»[5]، وخاصة الإسبان، وكذلك الأمر بالنسبة إلى عبارة «الحبّ السَّامي»، كونهما يعبران عن رؤية خاصة في تعريف الحب من منطلق طبقي على النحو، الذي تحدث عنه «كبللانوس»[6]. وبالعودة إلى الكتاب، نجد المؤلف يحدد غرضه منه بالقول: «هذا الكتاب ليس بحثاً أكاديمياً عن الحب، وإنما أردت منه أن يكون عملاً أدبياً يهب نفسه للقارئ بطريقة سهلة ومشوّقة في موضوع هو في أمسّ ما تكون الإنسانية بحاجة إليه اليوم، ألا وهو موضوع الحوار الحضاري والتعايش بين الثقافات والأمم»[7]، غير أن الكاتب في سعيه إلى الدفع نحو الحوار يعمل لأجل أن يكون شارحاً لذلك من خلال لفْت نظر القارئ إلى الآتي:

أولاً - وُجود حوار حضاري على مستوى اللُّغة العربية نفسها.

ثانياً - التَّعرف على القرآن الكريم، والأدب العربي.

ثالثاً - التَّعرُّف على المشاعر الإنسانية.

رابعاً - التَّعرف على احترام الثقافة العربية والإسلامية للمرأة، والتفنن في التغزل بها، وأجواء مشاعر الحب والغرام.

والتعرف على تلك المسائل جميعها يراه الكاتب من زاوية تأثير الحضارة العربية الإسلامية، وخصوصاً حضارة أهل الأندلس في إسبانيا، على أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

• «حامد الأيلي».. «والمعذبون الأبرياء»

يتكون الكتاب من ثمانية فصول، تحدثت جميعها عن الحب من منظورين، الأول علائقي - إنساني، والثاني: معرفي - حضاري، استحضر الكاتب، عبرهما، شواهد تاريخية مسجّلة من مراجع دالة، وقد أطال في فصول، وجعل أخرى منها قصيرة، وربما يرجع ذلك لأهمية كل قصة سواء في بُعدها الإنساني، أو طريقة سردها، أو ما حملته من معلومات، أجمعت عليها مصادر عدة.

في الفصل الأول «سرفانتس وفروسية العرب.. دون كيخوته، وسيدي حامد المغربي» قدّم الكاتب نوعاً من السرد للرواية الأعظم شهرة في العالم، وهي رواية «دون كيخوته»[8]، وأصحبها بتحليل منطقي للنص الروائي مباشرة، مع مقارنة النصوص والفصول داخل الرواية بعضها مع بعض، وانتهى إلى استنتاجات، مثَّلت، على حد قوله، آراءه الشخصية، بعد الدراسة التحليلية الدقيقة للبنْية الداخلية للرواية، مقارناً إياها بثقافة العصر التي عاش فيها «سرفانتس»[9] مؤلف الرواية.

لقد وقف الكاتب طويلاً أمام المؤلف الحقيقي، الذي جاء ذكره عند ترجمة أحد الموريسكيين النص الأصلي من الرواية من اللغة العربية إلى القشتالية، حيث جاءت ترجمة عنوانها كما يلي: «تاريخ دون كيخوته دلا منتشا تأليف سيدي حامد بن الأيلي، المؤرخ العربي»[10]، والقول بأن الرواية من تأليف هذا الكاتب العربي، أو على الأقل اشترك فيها، بدأ منذ أن نقلها إلى العربية الدكتور عبد الرحمن بدوي وإلى اليوم، ويرتبط ذلك بالبحث المتواصل عن تأثير الحضارة العربية في المنجز الفكري الغربي[11].

وبغض النظر عن المؤلف الحقيقي لرواية دون كيخوته، فإن الذي يهمنا هنا، هو الحديث عن قيم الفروسية التي شكّلت معطى

وملمحاً ثقافياً، وتراثاً نقله العرب إلى إسبانيا، وتحولت بعد سقوط الأندلس إلى التغني بها باعتبارها من أمجاد الماضي، مع الخوف من أن يكون ذكرها دافعاً لاستهاض العرب، ولذلك تمت محاربة روايات الفروسية والدعوة إلى حرقها، وهو ما تمّ بالفعل. ومع أن الاجتثاث للموروث الثقافي العربي في الأندلس، قد بلغ حده الأقصى بحرق كتب الفروسية، فإن المؤلف سرفانتس يتعاطف مع تلك الكُتب، على لسان بطل الرواية دون كيخوته، ويصف تلك الكتب بـ «المعذبين الأبرياء»، الأمر الذي أوصل الدكتور مشهد العلاف إلى القول: «إن هذه الإبادة الثقافية ترمز إلى تراث قد أزيل، وعمل يعبّر عن روح العصر المتعصب، الذي عاشه سرفانتس..»[12]، كما بيّنت الرواية في نهايتها حين أغلق الباب إلى الأبد على هذا التراث والسجل التاريخي الثقافي الهائل للعرب، وذلك سعياً من الإسبان في ذلك الوقت إلى صناعة هوية جديدة تكون خالية من أي تأثير عربي ولو على مستوى التذكر أو الذكرى.

• ابن حزم الأندلسي.. والرّاهب المنبوذ

وفي الفصل الثاني «أندلوسيا الحب والتّرف.. طوق الحمامة في الألفة والآلاف»، يتحدث الكاتب عن الحب عند «ابن حزم الأندلسي»[13] من ناحية ماهيته، وعلاماته، وكيفية حصوله، والكشف عنه، والتواصل مع المحبوب، وأعراضه، وصفاته المحمودة والمذمومة، والآفات الداخلة عنه، وقُبْح المعصيّة، وفضل التعفف. وبناء على قراءة هذا الكتاب وغيره من المؤلفات

تمثال ابن حزم الأندلسي

التي تناولت الحب، ينتهي مشهد العلاف إلى القول: «الحب تجربة فردية جداً، فلا يحب اثنان بالطريقة نفسها، كما لا يحب اثنان شخصاً واحداً بالطريقة نفسها، ولكل محب نسخته الإبداعية المتميزة التي بها يضع بصمة تجربته الخاصة به على أنها تجربة فريدة، ومن الصعب إيجاد تعليل واحد لتجارب مختلفة، فالحب كتجربة معاشة ومتفردة أشبه بالتجربة الصوفية»[14].

لقد أمدنا ابن حزم بمعرفة للحب أقامها على التجربة، وانتهت به إلى التنظير، ومن ثم تحولها إلى مرجعية، كشفت على مستوى أبستمولوجي عالٍ تميزت به الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وعليه اعتمد كثير من المفكرين الغربيين، أو تأثروا بها، كما بينته الفصول الستة من الكتاب، بدءاً من الفصل الثالث حتى الفصل الثامن، حيث ذكر المؤلف كلاً من: «الراهب بطرس المبجل»، الذي ترجم القرآن وبعض الكتب الإسلامية، وقد عرفت ترجمته باسم «مجموعة توليدو»، والراهب الفرنسي «أندرياس كابيلانوس»، الذي سماه الكاتب «الراهب المنبوذ» الذي ألف كتاباً، في عام 1184م حمل عنوان: «في الحب» (احتوى على ثلاثة كتب، الأول في اثني عشر فصلاً، والثاني في ثمانية فصول، والثالث عبارة عن وحدة واحدة)، وفيه أخضع الحب لبنية المجتمع الاجتماعي الطبقية، وميز بين البشر في حق «التمتع بالحب السامي»، وقد مثل زمن صدوره تحدياً للثقافة اللاتينية، ولمسيحية القرون الوسطى، وأدّى إلى غضب الكنيسة.

• الحب المحمود

كما تطرق الكاتب إلى القس «خوان رويز»، صاحب كتاب «الحب المحمود» الذي نقل فيه فقرات كاملة من كتاب ابن حزم الأندلسي «طوق الحمامة»، بل إنه سار على طريق هذا الأخير في الكتابة لجهة طرح سيرة ذاتية، تحدث فيها عن نفسه من الناحية العاطفية والغرامية، تماماً كما فعل ابن حزم من قبله.

ويبدو التأثر الأوروبي بالمنجز الفكري والإبداعي العربي في الأندلس واضحاً في تجربة الكاتب «ستندال»، ماري هنري بيل، في تأليفه كتاب «عن الحب»، الذي كان خلاصة تجربته العاطفية من جهة، وجمعه للمعارف المتوافرة عن الحب من جهة ثانية، حيث «صوّب نظره نحو قوم معروفين بصفاء العاطفة، مغرمين بالغزل، مبجلين للمرأة المحبوبة.. إنهم العرب كما هو معروف عنهم في العصور الوسطى..»[15]. وعن الحب داخل المجتمع الأندلسي، ذكر الدكتور مشهد العلاف مثالين: الأول، خاص وداخلي، يتعلق بتجربة «أبو القاسم»[16]، أمير إشبيلية، في حبه

للجارية «اعتماد»، والزواج منها، في إشارة إلى أن رابطة الحب أقوى من الوضع الطبقي. والمثال الثاني، عن حب الأمير «ابن سرّاج للفاتنة شريفة»[17]، ودور الأمير المسيحي «رودريغو دي نارفايْس» في التقريب بين الحبيبين بعد أسر ابن السراج، في إشارة منه على مغزى القصة بالقول: «إن ما جمع بين الأميرين المسلم والمسيحي على فعل نبيل كهذا هو عاطفة الحب السامية والتسامح التي يستشعرها الإنسان بما هو إنسان، لا بالتعصب للأديان، وأن هناك مستوى معيناً من الشعور يلتقي عليه جميع البشر، وهو مستوى الحب، وما يصاحبه من شعور صادق يثري شخصية الإنسان ويحثه وغيره على التصرف بإنسانية».

لقد جلس الدكتور شهد العلاف مع عدد من جلساء التراث، أصحاب التجربة في الحب والمعبرين عنه كتابة، وأجلسنا معهم، وفي خاتمة كتابه تحدث باختصار عن تعريف الحب، وعلاقته بالطرف الآخر، ودور القلب، ورغبات النفس، وطاقته، وفضائله، وعلاقته بالمرأة، وبالجمال والفن، ثم انتهى إلى القول: «أعتقد أننا البشر لن نتمكن في يوم ما من معرفة حقيقة لماذا نحب؟ ولِمَ كان هذا الشخص بالذات محبوباً لدينا بهذا القدر من التعلق والجنون؟ وكيف يحرك فينا الحب هذا القدر غير الإرادي من التأمل الكريستالي والتوحد مع من نحب؟ وكأن أرواحنا في هيام دائم في فيض من نور، وكأننا نساق إلى السعادة بقدر محتوم»(ص 206) ■

* كاتب وصحفي جزائري

المراجع:

1 - يتم استعمال هذه العبارة هنا، بما يقترب من المعنى، الذي جاء في كتب التفاسير للآية" وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ"(سورة الانشقاق - الآية: 2)، بمعنى: "وَسَمِعَت السموات في تصدّعها وتشققها لربها وأطاعت له في أمره إياها، والعرب تقول: أذن لك في هذا الأمر أذناً، بمعنى: استمع لك".. لمزيد من التفسير، انظر: تفسير الطبري.. الرابط:
http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/tabary/sura84-aya2.html

2 - د. مشهد العلاف كاتب وباحث عراقي.. أستاذ مشارك في الفلسفة والدراسات الإسلامية، لدى كلية الآداب والعلوم في الجامعة الأمريكية في رأس الخيمة، الإمارات.. لديه الكثير من المؤلفات، منها: «نصوص الفلسفة الإسلامية الأصلية من الكندي إلى محمد إقبال»، و«فلسفة العلم الإجرائية بين آينشتاين وبرجمان»، و«فلسفة الحضارة الإسلامية: الرؤية الغزالية».. وغيرها.

3 - «روسينانت.. الحب السَّامي».. (أقلام عربية للنشر والتوزيع: مصر، 2020م).

4 - حصان دون كيشوت كان هزيلاً كبيراً في العمر، حتى إنه لا يصلح للمشي.

5 - كما أشار إلى ذلك المؤلف الدكتور مشهد العلاف في حديثه معي.

6 - «كبلانوس» هو أندرياس كابيلانوس Andreas Capellanus".. راهب فرنسي، عاش في القرن الثاني عشر الميلادي.. تأثر كثيراً بكتاب ابن حزم الأندلسي «طوق الحمامة».

7 - د. مشهد العلاف، «روسينانت.. الحب السَّامي».. (أقلام عربية للنشر والتوزيع: مصر.2020م)، ص 05، بتصرف.

8 - «دون كيخوته»، أو «دون كيخوتي دي لا مانتشا».. رواية إسبانية، اشتهرت بين العرب بالعديد من الأسماء، منها: دون كيشوت، ودون كيخوته، ودون كيخوط، ودون كيخوطي كما تلفظ بالإسبانية.

9 - سرفانتس، هو اسم الروائي الإسباني «ميغيل سرفانتس سافيدر»، أو«ميغيل دي ثيربانتس سابيدرا»، كما في المراجع الإسبانية، (1547 - 1616م) ولد في مدريد ثم سافر إلى إيطاليا، والتحق بالجيش، وقاتل في البحر، وفي عام 1575م، أصبح أسيراً في الجزائر، وبقي هناك في السجن لمدة خمسة أعوام، وهناك تعلم بعض العربية وبعض عادات المجتمع الإسلامي، وكتب عن «الحياة في الجزائر»، و«حمامات الجزائر».

10 - د. مشهد العلاف، «روسينانت.. الحب السَّامي»، مرجع سابق، ص 28.

11 - لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع، راجع:
- شكيب كاظم، «دون كيخوته» هل كتبها ثربانتس أم العربي الاندلسي سيدي حامد بن الجيلي؟ جريدة «رأي اليوم الإلكترونية» 04 مايو 2020م.
الرابط: https://www.raialyoum.com-

12 - د. مشهد العلاف، مرجع سابق، ص 60 بتصرف.

13 - ابن حزم الأندلسي (994 - 1064م).. مفكر بارز في علم مقارنة الأديان، وأديب، وشاعر، وحافظ، ومتكلم، وإمام مذهب الفقه الظاهري، وسياسي، من كتبه «طوق الحمامة في الألفة والآلاف»، ألفه في عام 1026م.

14 - د. مشهد العلاف، «روسينانت.. الحب السَّامي»، مرجع سابق، ص 68 - 69 بتصرف.

15 - المرجع السابق، ص 171 بتصرف.

16 - المعروف بالمعتمد بن عبّاد.

17 .لمزيد من التوضيح حول هذا الموضوع، راجع:
. قصة ابن السَّرَّاج والجميلة شريفة، المؤلف مجهول، ترجمة وتقديم: خالد سالم، (المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2018م).

التراث والذاكرة المجتمعية

شريف مصطفى محمد
كاتب وقاص مصري

الذاكرة ليست مجرد مخزون الأحداث والخبرات التي مرت بالإنسان والتي يختزنها العقل في أجزاء محددة من مخ الإنسان، بل إن الذاكرة هي الأثر الذي تعكسه تلك الذكريات والخبرات على السلوك الإنساني.. فذاكرة بلا أثر هي والعدم سواء.

ويبدأ عمل العقل مع الذاكرة لحظة وقوع الحدث أو الخبرة وتحولها إلى صورة ذهنية تسجل ثم تخزن في العقل، وتبقى محفوظة في العقل تنبض بالتجربة التي تؤثر في المعرفة الفردية للإنسان من خلال الأثر المستمر الذي ينعكس على ربط التجربة المعرفية مع التجارب المعرفية الأخرى، وفكر الإنسان وهو أثر تفاعلي للذاكرة مع منطقتي اللاوعي والوعي عند الإنسان يستدعي المعرفة أو الحدث بصورة مباشرة من خلال عملية التفكير وإنتاج الأفكار والمفاهيم الفردية الخاصة والتي هي في النهاية انعكاس لتفاعل التجارب السابقة التي عاشها الإنسان وطبعت في مخزن الذاكرة لديه.

الذاكرة ليست مجرد صفة بيولوجية فردية، بل للمجتمعات ذاكرتها الجمعية التي تؤثر بصورة ما في الذاكرة الفردية، الذاكرة المجتمعية هي بناء تراكمي تكون على مدار التاريخ وتبقى ذات تأثير كبير في بناء الشخصية وتكوين ملامحها العامة داخل المنظومة القيمية في المجتمع فتلك الذاكرة التي تكوّنت على مدار الزمن وتوارثها المجتمع جيلاً بعد جيل تعبر عن الهوية بكل مفرداتها، بالتالي حين يدرك المجتمع قيمتها ويضع في الحسبان دورها الداعم في بناء شخصية ذات قيم وطنية إنسانية لابد وأن يعمل على الحفاظ عليها من الإبدال أو التشويه أو الجمود.

في واقع الأمر إن الحفاظ على الذاكرة المجتمعية هو حفاظ على هوية المجتمع وخصوصيته الثقافية والقيمية ومن أجل بناء شخصية سوية ذات ملامح وطنية إنسانية ومتطلعة للتحضر والمستقبل والتحلي بالعلم والثقافة الكونية لابد من الحفاظ على تلك الذاكرة حية وفعالة ومتجددة، فكيف يمكن تحقيق ذلك؟

هناك طرق عدة للحفاظ على ذاكرة المجتمع وهويته: الأولى من خلال الحفاظ على مخرجات الثقافة الشعبية - التي هي جزء رئيسي في الذاكرة المجتمعية - من مخرجات مادية كالتراث العمراني أو الزي الشعبي وغيرها من متروكات الماضي التي تتشبع بقيمة تراثية كبيرة، بالإضافة إلى مخرجات لامادية كالقيم الإنسانية والعادات والسلوك والأخلاق وغيرها والحفاظ على وجودها.

الثانية أن يبقى هذا التراث حياً يتداخل في مفردات حياتنا اليومية ولا يكون مجرد معلومة مكتوبة داخل كتاب أو ندوة يقدمها متخصصون ويحضرها متخصصون، ولكنها تظل بعيدة عن المجتمع وخاصة الأجيال الجديدة الناشئة التي هي العمود الفقري للمستقبل.

الثالثة أن تكون هناك مرونة كافية للتفاعل بين الموروث والعصر الحديث وأن يكون للحداثة دور في تجديد الموارد الثقافية للتوائم مع متغيرات العصر الحديث حتى يكون للتراث دور حقيقي في بناء المجتمع داخل إطار المرحلة الزمنية الحالية بكل معطياتها التي تختلف عما كان عليه المجتمع قبل مئة عام.

كيف يمكن أن نجعل التراث حياً؟ بالقطع لا يمكن أن نبني البيوت على الطرازات القديمة وسط هذا الزخم الكبير من التكنولوجيا والتطور المذهل للعلم والحضارة. لذلك لابد أن ندرك أن التراث بشقه المادي قد لا يمكننا أن نبقيه خارج حدوده المتحفية التاريخية وجعله مكوناً من مكونات المفردات الحياتية للمجتمع، ولكنه يبقى ملهماً للتراث المادي بروح عصرية تتماهى مع العصر الحديث وتطوراته المتسارعة. أما التراث اللامادي فهو المكون الأهم في منظومة الذاكرة المجتمعية كالقيم الإنسانية والأخلاقية والثقافية والعادات والتقاليد التي تعودنا عليها وأجدني أذهب لسؤال محيّرٍ هل التراث قابل للتطوير؟ توقفت وسألت نفسي ماذا يعني التطوير؟ هل هو دمج هذا التراث بالحداثة وخلطه بالمفاهيم الحديثة؟ هناك بعض المتخصصين في التراث يرفضون فكرة التطوير ويعتبرونها هدم للتراث وإن أتفق معهم أن التطوير بمعنى التغيير وإعادة بناء المفردات هو هدم للتراث ولكن ألم يكن التراث هو نتاج تراكم مفاهيم وخبرات في الذاكرة المجتمعية المتعاقبة لأجيال وراء أجيال. ويمكن للأجيال الجديدة أن يكون لها دور في تراكم بعض المفاهيم أو المفردات الجديدة على الذاكرة والتراث المجتمعي أم إننا سنغلق عليه باب التراكم ونقول هنا نتوقف وكفى ما كان، وندخل التراث اللامادي القابل للتأثير في تكوين الشخصية الوطنية في نفق المتحفية ونغلق عليه الصندوق الزجاجي ويصبح مجرد فرجة للعابرين.

إن أردنا أن يظل التراث حياً لابد وأن نترك للأجيال الجديدة الحرية في تراكم مفاهيمها الذاتية ومفرداتها التي تتأثر بتغيرات الكون من حولهم، وتتأثر بذلك التبادل الثقافي الكبير الذي يحدث بين الشعوب في العالم من خلال التطور التكنولوجي الكبير الذي حدث في السنوات الأخيرة وتوسع شبكات التواصل الاجتماعي وتحولها إلى نافذة عملاقة ومتجذرة في المجتمعات للتبادل الثقافي. علينا أن نزرع التراث في عقول الأجيال الجديدة ووجدانها ونسمح له بأن يسهم في تشكيل شخصياتهم ويترسخ في وجدانهم. حينها التغييرات التي ستحدث ستكون مجرد تراكمات طبيعية لا تتعدى خطوط الخطر لأننا استطعنا تشييد بناءٍ قويٍ صامدٍ أمام الانهيار بالجديد والمختلف، وقادرٍ على تقييمه ونقده عقلياً وبوعي كافٍ يسمح للأجيال الجديدة بالحكم الصحيح على التغيير والدمج الإيجابي ما بين التراث والحراك الحديث لمفرداته.

من هنا لابد وأن يكون للتراث اللامادي دوره الكبير في التعليم وخاصة التعليم الابتدائي والإعدادي فهما مرحلتان من مراحل التكوين الوجداني والعقلي.

تحرص القيادة الرشيدة في دولة الإمارات العربية المتحدة على الحفاظ على الهوية الوطنية والذاكرة المجتمعية للمجتمع الإماراتي، واهتمت بالعملية التعليمية بصورة خاصة حيث أقرت قبل سنوات عدة مادة التربية الأخلاقية للتدريس بالمدارس اعتمد منهجها على الموروث الأخلاقي والقيمي للمجتمع الإماراتي وكانت خطوة واسعة على الطريق الصحيح للحفاظ على الهوية الإماراتية.

القيم الأخلاقية هي أهم عمود من أعمدة هذا التراث اللامادي إلا أنها ليست العمود الوحيد الذي يحمل الرصيد العظيم من التراث الإنساني الإماراتي بل هناك العادات والتقاليد والآداب الشعبية من قصص وحكايات وخرافيف ونوادر وشعر نبطي وغيرها لابد وأن نهتم بها ونبدأ في استكمال عمل منظومة شاملة للحفاظ على الذاكرة والتراث المجتمعي الإماراتي بخطوة واسعة لنستتبعها بخطوات أخرى لتظل الهوية الوطنية محافظة على خصوصيتها وتميزها وسط المجتمعات؛ لذلك كما أشرت سابقاً لابد أن يكون للتراث اللامادي مكانته في المناهج التعليمية ولا نربطه بالمناسبات فقط أو الفعاليات الطارئة التي لا تعتبر جزءاً من المنهج التعليمي يجب أن يجد الطفل نفسه يعيش كل القيم التراثية للمجتمع في جميع ما يتعلمه فلا نخلط بين دراسة التاريخ والتشرب بالتراث اللامادي للمجتمع لتبقى الذاكرة المجتمعية لدولة الإمارات العربية المتحدة حية متنامية لا تمنح فرصة للتفاعل الثقافي أن يتخطى حدود التأثير والتأثر الطبيعي الذي لا يؤدي إلى انحراف في بنية الشخصية الإماراتية بل يمثل قيمة مضافة لها ولكي نحقق ذلك لابد من مواجهة العديد من التحديات التي تؤثر في الاتجاه العكسي ولهذا حديث آخر ■

البروفيسور داود ماهر محمد الشمري

يفكك ألغاز مناهج البحث العلمي في التراث الثقافي غير المادي

هشام أزكيض

في الوسط المعرفي من الصعب جداً إن لم نقل يستحيل تناول قضاياه بعيداً عما يسمى «مناهج البحث العلمي»، فالمنهج من فعل ينهج الذي يعني الاتباع؛ وعليه فمناهج البحث العلمي عبارة عن الطريق الذي يسلكه الباحث في جمع، وترتيب المعلومات داخل دراسته، وفقاً لمتطلبات تلك الدراسة، وطبيعة المعلومات.

يترتب عما سبق، ضرورة الربط بين مناهج البحث العلمي ودراسة قضايا التراث الثقافي غير المادي، وهذا ما سعى إلى توضيحه كتاب «مناهج البحث العلمي في التراث الثقافي غير المادي.. المعايير وتقنيات التطبيق» للبروفيسور «داود ماهر محمد الشمري»[1]، الذي خاض غمار هذه المسألة سعياً إلى بيان أهمية استخدام البحث العلمي في عرض الأمور التي تتعلق بالتراث غير المادي، وهذا الأمر يرتبط ارتباطاً مباشراً بقضية تنقية التراث من الشوائب، والإضافات التي لم تكن من أصل ذلك التراث، والتي أثارت انتباه المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو). فهذه المؤسسة تبذل قصارى جهدها من أجل توثيق التراث المادي وغير المادي، والملاحظ أن هذا الأخير «التراث غير المادي» مهدد بالاندثار مع تطور علوم التكنولوجيا، وبعبارة أخرى فهو مهدد بالموت مع حامله إذا لم يسجل أو يوثق بطريقة علمية، قائمة على أسس علمية دقيقة.

التراث الثقافي غير المادي وما مقاصده

من هذا المنطلق، يقول البروفيسور داود ماهر محمد الشمري «بما أني أهتم كثيراً بالقيم التي يحملها التراث الثقافي غير المادي في الوطن العربي، كالأمثال الشعبية والقصائد النبطية، والحكايات والأساطير المتداولة بين شرائح كثيرة من المجتمع فضلاً عن الحِرَف، وأساليب الحياة في العديد من فصائل المجتمع العربي، كل ذلك جعلني أقرر، أو أقدم على تقديم ما يساعد الباحث الأكاديمي إلى ما يعينه على جمع ذلك التراث غير المادي وتوثيقه على أسس معايير علمية مستخلصة من مبادئ البحث العلمي الدقيقة، ينبغي اتباعها أثناء البحث في ميادين التراث الثقافي غير المادي، بعيداً عن المبالغة والتطرف».

ويرى الشمري أن التراث الثقافي غير المادي «مجموعة الممارسات والتقاليد والمعارف والمهارات المختلفة التي تتمسك بها الجماعات والأفراد باعتبارها ذات نفع عام، ما يستلزم حفظها وحمايتها».

فالتراث غير المادي، من منظور الشمري تبدعه الجماعات البشرية بما يتفق مع بيئتها، وتفاعلاتها مع محيطها الطبيعي وتاريخها

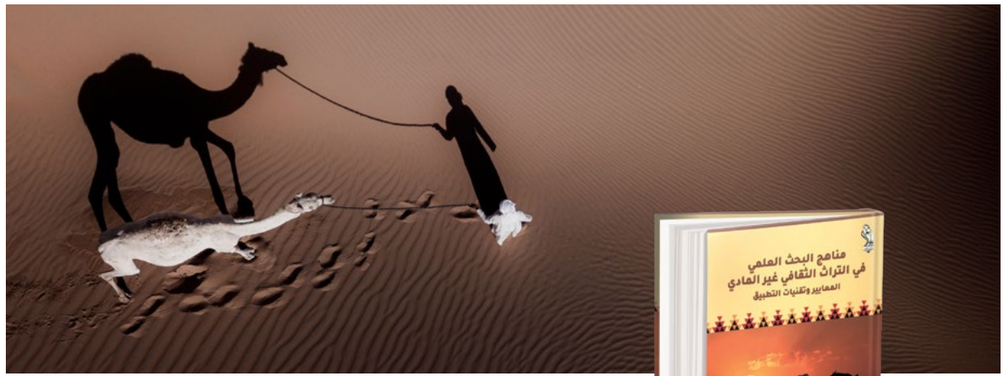

وتنقله الأجيال بعضها إلى بعض، وهذا التراث يخلق الوعي الوطني والترابط الاجتماعي المحلي، ويسهم في التعايش بين الشعوب والثقافات المختلفة، فهو وإن كان تراثاً محلياً، لكنه يمثل جزءاً من التراث الثقافي العالمي... لذلك فإن فهمه يساعد على الحوار بين الثقافات، كما يشجع على الاحترام المتبادل سعيا إلى تحقيق التعايش.

البحث العلمي في سبيل صيانة التراث الثقافي غير المادي

في معرض تحديده لمصطلح البحث العلمي، قال البروفيسور الشمري «من الناحية الاصطلاحية، فالبحث العلمي هو طريقة أو محاولة منظمة، يمكن أن توجه كل مشكلات الإنسان مستخدماً الأساليب العلمية، وقواعدها المعروفة في سعيه لزيادة سيطرته على بيئته واكتشاف ظواهرها، وتحديد العلاقة بين عناصرها المختلفة. ويمكن القول كما يرى الشمري أيضاً بأن البحث العلمي» عملية منظمة تتصف بالدقة والموضوعية في جمع البيانات عن موضوع ما، وتحليل هذه البيانات، ومناقشتها لغرض من الأغراض، ومن ناحية عملية فإن البحث العلمي ومنهجه هو الخطة التي يتخذها الباحث للحصول على البيانات وتحليلها بغية الوقوف عند مشكلة من المشكلات... والبحث العلمي هو تطبيقه لتلك الخطة أيضاً»، ومن دون شك فالتمسك بمنهج البحث العلمي وقواعده حسب الشمري سوف يمنح الباحث نتائج دقيقة، وموضوعية للتراث الثقافي غير المادي المدروس، وبخلاف ذلك نجد أن الثقة بالنتائج لن تتحقق، وهذا أضعف ما يمكن تصوره.

أما بخصوص التراث غير المادي وواقعه في الإمارات العربية المتحدة، فالبروفيسور الشمري أكد أنها تولي اهتماماً كبيراً بشؤونه ليس على مستوى الدولة، وإنما على مستوى دول الخليج العربي، وشمال أفريقيا، وهكذا فإن دولة الإمارات تعقد لقاءات ومؤتمرات دولية من أجل إغناء تجربتها في هذا الميدان، كما استطاعت على مستوى التوثيق إنجاز بحوث عديدة في الدولة كأنموذج للاهتمام بالتراث غير المادي، ومن أبرز تلك البحوث على سبيل المثال رسالة الدكتوراه التي قامت بها الدكتورة الشامسي عن عادات الزواج وتقاليده في الإمارات العربية المتحدة في القرن الماضي.

علاقة التراث الثقافي غير المادي بالهوية وسبل الحفاظ عليه

وفي علاقة مسألة الهوية بالتراث الثقافي غير المادي، أكد الشمري أن الاهتمام بالعادات والتقاليد أداة لتحقيق التجانس الاجتماعي، ويمكن للمناهج العلمية والتربوية أن تسهم في الحفاظ على معالم التراث المادي وغير المادي الخاص بأي مجتمع، وفي هذا السياق يمكن تشجيع الطلاب، والشباب من أجل الاهتمام بالتراث، ورصد الجوائز والتسهيلات من أجل صيانته، ولهذا يقول الشمري «ابتداءً نقول إن لفظة (الصون) يقصد بها جميع التدابير والإجراءات الرامية إلى ضمان استدامة التراث غير المادي، فيها تحديد هذا التراث وتوثيقه، وإجراء البحوث بشأنه، والمحافظة عليه وحمايته وتعزيزه، وإبرازه ونقله لاسيما عن طريق التعليم النظامي وغير النظامي... لتشكيل شخصيتنا

وهويتنا، وللرفع من شأن الاهتمام بالتراث الثقافي غير المادي على وجه الخصوص، فإن الشمري يدعو إلى:

• عقد الندوات المتخصصة بالتراث الثقافي غير المادي، للوصول إلى أنسب الأساليب لكشفه وصيانته وتطوير دراساته.

• إقامة المهرجانات التي تستهدف التعريف بالتراث غير المادي.

• إجراء دراسات متخصصة مقارنة مع شعوب العالم القريب والبعيد، لمعرفة القوانين المشتركة التي تحكم تلك الشعوب.

• تثبيت مفاهيم التراث غير المادي وأسسه، ضمن الأنشطة المدرسية النظامية وغير النظامية.

• عدم قبول الرواية مهما كانت قبل التأكد من صحتها، ومصداقية الرواة.

انطلاقاً مما أشرنا إليه يتضح أن كتاب «مناهج البحث العلمي في التراث الثقافي غير المادي.. المعايير وتقنيات التطبيق»، للبروفيسور داود ماهر محمد الشمري يستحق الإلمام والقراءة معاً، سيما من لدن المهتمين والباحثين في شؤون الثقافة والتراث المادي وغير المادي سعياً إلى تجويد عملية صونه ■

كاتب وقاص مغربي

الكاتب في سطور:

- البروفيسور داود الشمري: هو داود بن ماهر بن محمد الحمّيد بن الطيّف بن حمو بن شهاب بن أحمد بن علي الياسين بن عبد الله (القادم إلى العراق من جبل حائل في نجد).

- ولد في الشرقاط عام 1940 م (محافظة صلاح الدين في العراق)، ثم انتقل إلى بغداد لإكمال دراسته الجامعية عام 1969م في الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم التربية وعلم النفس، وتخرج فيها عام 1974م.

- عام 1975 عين باحثاً علمياً في ديوان وزارة التربية في بغداد.

- عام 1976/1977 منح إجازة دراسية لإكمال الدراسات العليا، وكان ذلك في كلية التربية جامعة عين شمس في القاهرة، فحصل على الدبلوم الخاص في الإدارة والتربية الدولية المقارنة.

- حصل على شهادة الماجستير في تخصص المناهج، وطرق التدريس عام 1979م .

- بدأ دراسة الدكتوراه عام 1994م في كلية التربية بالجامعة المستنصرية وحصل على الدكتوراه عام 1996م.

• نال درجة أستاذ - بروفيسور- عام 1995م.

• باحث علمي في وزارة التربية ما بين عامي 1975 - 1976م.

• محاضر في المعهد العربي لتدريب قيادات محو الأمية وتعليم الكبار . في بغداد عام 1980/1981م.

• عضو هيئة تدريس في كلية التربية في جامعة الموصل ما بين الأعوام من 1981 حتى 1993م.

• مستشار مركز البحوث الطلابية في جامعة الموصل ما بين الأعوام من 1983 إلى 1993م.

• عضو هيئة تدريس في كلية التربية للبنات بجامعة تكريت ما بين الأعوام من عام 1994 - 1998م.

• أوفد من قبل جامعة تكريت إلى ليبيا للتدريس في كلية الآداب والعلوم في مدينة أوباري بجامعة سبها في أقصى الجنوب الليبي عام 1998م.

• أوفد إلى دولة الإمارات العربية المتحدة عام 1999م للتدريس في جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا.

ومن مؤلفاته: «التدريس والتدريب الجامعي.. أسسه وبناء برامجه»، و«اتجاهات معاصرة في تدريس الرياضيات للكبار»، و«أساسيات في طرائق التدريس العامة»، و«قضايا من المجتمع العربي»، و«مناهج البحث العلمي»، و«دراسة تجريبية للطريقة المبتكرة في تدريس الرياضيات للكبار»، و«مرشد الوسائل التعليمية لكتب الرياضيات في المدارس الشعبية في العراق».

رباعيات في ذكر الله

شعر: د. شهاب غانم

1. خُلقْنا لنعبد

كـــلُّ شيءٍ حـــول الإلـه يـــدورُ
فـــي حيـــاةِ الأنـامِ فهـــو الكـبيرُ
هو مـــن أوجـــدَ الوجـــودَ لسـرٍّ
هـــو أدرى بـــه.. وكيـــف المصـــيرُ
قـد خُلقنـا لنعبـــدَ اللـــهَ فـــرداً
ونطيـــعَ الآيـــاتِ فـــي النّـــورُ
ويعيـــش الكفّـــارُ فـــي ظلمـــاتٍ
كـــلُّ حـــينٍ تخبـــطٌ وغـــرورُ

2. أرزاق

مـــن ســـوى اللـــه يرزقُ المـــرءَ فهمـــاً
واهتـــداءً إلـــى الســـبيلِ وعلمـــاً
وطعامـــاً وصحـــةً وبنينـــاً
وفـــؤاداً يفيـــضُ حبـــاً وحلمـــا
كلمـــا الآدمـــي زاد صلاحـــاً
زادَ رزقـــاً وصـــار أرقـى وأسمـــى
ليـــس كـــلُّ الأرزاقِ مـــالاً وجاهـــاً
فهـي أغـنى نوعـــاً وأعظـــم وحجمـا

3. العذاب الأدنى

العـــذاب الأدنـى مـــن اللـــه كيمـــا
يرجع المـــرء صالحـــاً مستقيمـــا
هـــو لفـــتٌ مـــن الإلـــه ولطـــفٌ
وكمـــرّ الـــدواء يشفـــي السقيمـــا
لا تصـــخْ أيهـــا الضعيـــف لهمـــزٍ
إن إبلـــيس كـــان دومـــاً رجيمـــا
عـــدْ إلى اللـــه كـــلَّ صبـــحٍ جديـــدٍ
واتـــلُ قرآنَـــه المجيـــد الكريمـــا

4. عُدْ إلى الله

عُـــدْ إلـــى اللـــه يـــا فـــؤادي فإنـــي
بـــت أخشـى عليـك مـــن أهوائـي
هـــي تأتـي من أيـن؟ مـــن شهـــواتٍ؟
أم تراهـــا مـــن شطحـــةٍ؟ أم غبـــاءِ؟
عُـــدْ إلى اللـــه ساجـــداً مستكينـــاً
أو بكفـــين ضارعـــاً للســـمـــاءِ
إنَّ هـــذي الحيـــاة ومضـــة حلـمٍ
تنتـــهي في الظـــلام قبل ابتـــداءِ

5. كيف نخشى الزمان

كيـــف نخشـــى الزمـانَ والعمـر وقـتٌ
ســـوف يمـــضي وينقـــضي ويـــزولُ
وسيبقـــى مدى الدهـور مليـــكٌ
دائمٌ وجهـــهُ كريـــمٌ جليـــلُ
وانقضـــاء الزمـانِ يدنيـك منـه
وحيـــاةٍ نعيمهـــا مأمـــولُ
وخلـــودٍ مـــا بعده من خلـــودٍ
دون مـــوتٍ أو أي حـــالٍ تحـــولُ

6. شعر

ليـــس وعظـاً وإنمـا هـــو شعـــرٌ
مـــن فـــؤادٍ يـــذوبُ فـي الملكـــوتِ
هو يرجـــو الرضـى، وفيـــه عيـــوبٌ
جمـــةٌ، يرتجيـــهِ قبـلَ المـــوتِ
هو يرجـــو القبـــول في جنَّـــةِ الخلـــدِ
بعفـــوٍ مـــن الغفـــورِ المُقـــيتِ
فتقبـــل يـــاربِّ أبيـــاتِ شعـــرٍ
هي خـيرٌ في ناظـري مـن سكـــوتِ

أود أن أعود إلى الأوهام

وليد علاء الدين
شاعر وكاتب مصري

«حينما يكون الزمان مملوءاً بالاضطرابات تدركين مع الأسف أن التاريخ حقيقي، وأنك جزء منه. من عادة المرء أن يعتبر نفسه محصناً من كل شيء. هذه واحدة من اللحظات التي تبدو فيها تلك الحصانة محض وهم. أود أن أعود إلى الأوهام..».

استوقفتني طويلًا هذه العبارة من رواية «مون تايجر» للكاتبة الإنجليزية بنيلوبي لايفلي، بترجمة ساحرة للدكتورة إيناس التركي. الرواية منشورة عام 1987، وهي تعبر بدقة عن فترة الحرب العالمية الثانية التي عايشتها الروائية - المولودة في القاهرة - أثناء عملها مراسلة حربية من مصر.

فكرة العبارة، مثل كل فكرة صيغت بعناية بعد تأمل ومحاولة فهم، تمتد لتصبح مبدأً عمومياً، يصلح لوصف كل زمن يموج بالاضطرابات.

بناء العبارة دقيق ومتدرج بشكل بدت معه الجملة الأخيرة كأنها تميمة تقي من الشرير «أود أن أعود إلى الأوهام».

بطبيعتي أنفر من روايات الديستوبيا (أدب المدينة الفاسدة)، ومن أفلام الرعب، وأخشى اللقطات المفعمة بالعواطف في الأفلام.

ضبطت نفسي متلبساً مرات كثيرة بالتشاغل بهاتفي أو بفنجان القهوة أو بالذهاب إلى المطبخ تفادياً للقطةٍ بعينها مشحونة بعواطف لا أستطيع تحملها في فيلم أحبه وأعرفه.

نحن جيل مدلل، سمعنا عن الحروب والمجاعات عبر العالم ولم تمسسنا آثارها. أقرب الحروب إلينا، تلك التي تركت شهداء في محيطنا العائلي أو الجغرافي القريب أو البعيد كان في عام ميلادنا، أو قبله أو بعده بقليل؛ عن حرب أكتوبر أتحدث، وقبلها بقليل كانت هزيمتنا في عام 1967 التي دلّلها الساسة والمنظّرون ومنحوها لقب «النكسة»؛ وكأننا كنا قبلها في عز وجاه وسلطة ثم انتكسنا.

أما ما بعد ذلك من حروب وصراعات في العالم الكبير؛ فلم يكن بالنسبة لنا سوى مشاهد منزوعة الدسم، وأخبار مفلترة نتابعها ونحن نتسلى بقراطيس اللب والترمس أمام شاشات التلفزيون، ثم شاشات الكمبيوتر، ثم شاشات الهواتف المتحركة؛ تصغر مساحة الشاشة ويزداد حجم التدفق المذهل من الصور والتحليلات بشكل جعلنا لا نتأثر بانفجار قنبلة في شارع مكتظ بالبشر إلا كما نتأثر بانفجار مصنوع للتسلية في أحد أفلام هوليوود.

لقد أصابنا تدفق «الميديا» بخلل فادح في التلقي. ثمة ثقب مروع في إنسانيتنا لم تعد معه إنسانية، يشبه ثقب الأوزون الذي لم يعد المناخ بعده كما كان قبله.

لم تعد تقلقنا مشاهد الدم والرعب، بات أولادنا يلعبون بأسلحة نارية حديثة، ويتفننون في قتل بعضهم، والسطو المسلح على البنوك، وتحطيم الأشجار لجمع عملات أكثر، صاروا يتسلون بدهس المارة بسياراتهم التي يحصلون عليها كلما سطوا على بنك أوقتلوا تاجراً، أوحطموا الطرقات والشوارع والمحلات..، يقتلون السيدة ويفزعون الأطفال على الأرصفة ليس لجمع عملات أكثر، إنما لرفع معدلات الضحك وتبادل الشتائم، سعيدين بأن أصابعهم الضئيلة قادرة على إحداث كل هذا الدمار بمجرد الضغط على أزرار ذراع موصول عبر الفضاء بالبلاي ستيشن أو الكمبيوتر أو الإكس بوكس وغيرها من حيوات افتراضية تجهزهم بعناية لحياتهم الواقعية.

لقد تغيرت طبيعة علاقاتنا بالحقائق، تقريباً لم تعد هناك حقائق. لم نعد نخشى إلا ما يصل إلى عنقنا ويضيّق الخناق عليه فنشعر بالاختناق. شاهدنا الحروب في العراق وفي إيران وفي الكويت كما نشاهد أفلاماً وثائقية. تابعنا أخبار مجازر العالم كما نتابع أفلام الموتى الأحياء «الزومبي» وهم يتساقطون تحت ضربات المعاول والسواطير. سمعنا عن مجزرة سياسية وأخرى على خلفيات طائفية، وثالثة جراء خلافات إثنية، وتعجّبنا من أشكال الشر التي يمكن للإنسان اختراعها. ثم عدنا لهواتفنا المضيئة.

تابعنا سقوط ضحايا الثورات وصدقنا مبررات وكذّبنا أخرى، ثم عدنا لانشغالنا بحيواتنا، لقد حولنا تطور «الميديا» - ويا للسخرية - إلى كائنات تاريخية، كائنات تعيش في القرن الحادي والعشرين وتطبق منطق جحا التاريخي، الذي أطلق مقولته الخالدة أنه في أمان مادامت النار لم تصل إلى ثيابه؛ قال القوم: يا جحا النارُ مشتعلة في المدينة، قال: طالما ليست في شارعنا فنحن في أمان. يا جحا إن النار مشتعلة في شارعكم، قال: طالما لم تصل إلى بيتي فأنا في أمان. يا جحا النار في بيتك فقال: طالما لم تطل غرفتي فأنا في أمان.. مضيقاً في كل مرة مساحة أمانه إلى أن صارت حدود ثيابه.

هل هذا ما نعيشه الآن؟ هل هذا ما نختبره بالفعل؟ وإلا ما الذي يجعل الولايات المتحدة الأمريكية تسطو على شاحنة كمامات متجهة إلى فرنسا أو إسبانيا خلال فترة الجائحة الكبرى، إن لم يكن جحا هو السبب؟

«أود أن أعود إلى الأوهام» يا سيدة بنيلوبي. ليست «مون تايجر» رواية ديستوبيا، لا أقرأ روايات الديستوبيا وأظنها تافهة. إنها رواية تاريخ، تاريخ بالمعنى المنضبط للكلمة، استخدام مذهل لتاريخ حقيقي عاشته السيدة خلال الحرب العالمية الثانية، لكنه يا للعجب أشد قسوة من الديستوبيات التي يجتهد فيها مدّعو الأدب في خلخلة قواعد الحياة وتدمير منطقها لإبهارنا.

الحياة لا تحتاج لتدخلكم يا سادة، الحياة كلها والتاريخ كله مجرد سلسلة متصلة من الحروب والمجازر والأوبئة والصراعات، سلسلة متصلة من أقوياء يستخدمون قوتهم لاستغلال ضعفاء، وضعفاء ينتقمون حين يستردون قوتهم ممن تبقى من أقوياء، وباستغلال ضعفاء آخرين.

«وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً» (الجن 10) وباء يتفشى... ربما صنعه البشر، حرب بيولوجية، كتف غير قانونية لعرقلة اقتصاد طغى، ربما هو من صنع الطبيعة، ربما هو انتقام أو اختبار إلهي! ربما، وربما، وربما ... لكن هذا هو التاريخ: سلسلة من الاضطرابات تسحق الملايين، أو الهدوء تجهيزاً لاضطرابات تسحق الملايين..»، وحينما يكون الزمان مملوءاً بالاضطرابات ندرك مع الأسف أن التاريخ حقيقي، وأننا جزء منه. لأن من عادة المرء أن يعتبر نفسه محصناً من كل شيء. وهذه واحدة من اللحظات التي تبدو فيها تلك الحصانة محض وهم. أود أن أعود إلى الأوهام» ■

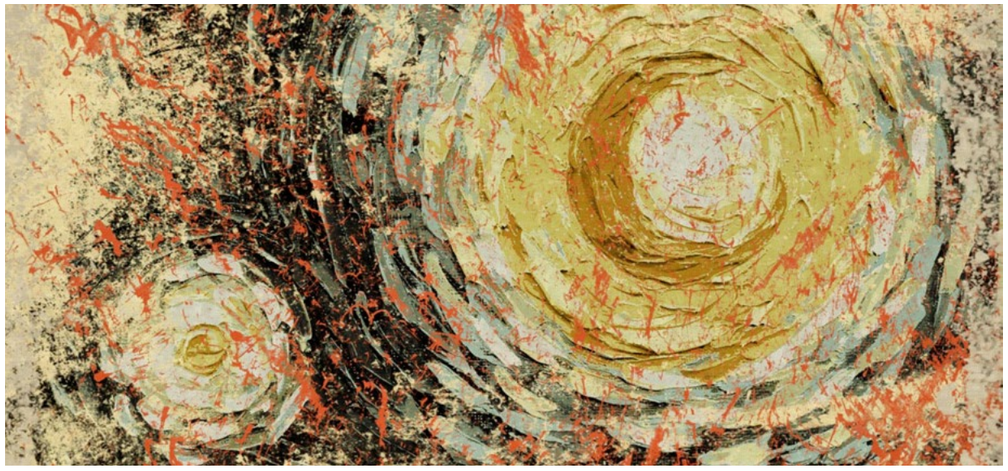

الشاعر حمد بن سهل الكتبي

مريم النقبي

في يوليو الماضي أكمل الشاعر الراحل حمد بن سهيل الكتبي ثلاثة عشر عاماً منذ وفاته في التاسع عشر من يوليو عام 2010.

يعد الراحل حمد بن سهيل الكتبي أحد أهم الرموز الأدبية في الساحة الثقافية والأدبية الإماراتية، امتلك حضوراً إعلامياً وشعرياً مميزاً على الصعيد المحلي والخليجي والعربي، وكان من المساهمين الكبار في تجديد ملامح القصيدة الغنائية في المكان، وأثّرت قصائده في ذائقة ووجدان المتلقي في الخليج والعالم العربي، فهو شاعر مرهف، امتلك موهبة فذة، مكّنته من إبداع وكتابة العديد من القصائد التي تم نشرها بالصحف والمطبوعات، إضافة إلى القصائد المغنّاة الكثيرة التي حرص مطربو الخليج على التغني بها لما تمتلكه من مفردات معبرّة ومميزة.

ولد الشاعر حمد بن سهيل الكتبي في مدينة العين عام 1972م، ورحل عن عمر يناهز الثامنة والثلاثين عاماً عندما كان يتلقى العلاج في مدينة الضباب «لندن»، وهو في أوج عطائه الشعري وألقه الإبداعي، تاركاً إرثاً غنائياً مميزاً أسهم في تألق الأغنية الإماراتية وشيوعها وازدهارها.

كانت بدايات الشاعر حمد بن سهيل الكتبي في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، حيث تعلم الكثير من والده الذي كان شاعراً أيضاً، وقد أفاده كثيراً اجتماع الشعراء عند والده رحمهما الله، واكتسب من تجاربهم الشعرية الخبرة والتمكّن .

حمد بن سهل الكتبي

من قصائده :

حـــبي تطمـــــن نـــام وريّـح اعصابـك
وش فيك دايـم عَلَيْ مشغـول يـا الغالـــي
لا تجعـل الشـك يطرق في الهـوى بابـــك
مـا حَـدّ غيـرك سكـن فـي قلـبي وْبَالـي
وش يعـــني انّي أمـوت بْسَاعـة غْيابـك؟
وتْرِد روحـــي إذا شاهدتـــك قْبالـــي؟
فـــي كـل ليلـه تسهّـــر عيني أهدابـــك
تَمـسي بقربـك وتشكـي لك عن أحوالـي
حبّـي تطمّـن وكلّمـــني عـن امّـا بـــك
مـا أطيـق أشوفـك حزين القلب والحـالِ
أنـا تركـت العيـون السـود بأسبابـــك
وَلّيتـــــك إحســاس قلـبي باوّل وْتـالي
امْسَحْ دموعـك وربّـح خافـق أحبابـــك
مـــن عينـك الدمـع يجرحـني إذا ســالِ
مِ اليـوم هـذا.. عَلَي لا تتعـب أعصابـك
مـا عنـدي أحْلى وأغْلـى مِنْـك يا الغالـي

”سـافرت عنـك ..!

سافـــرت عنـك وخافقـــي معـــك
يـــا سيـــدي عنـــدك أمانـــــه
مـــا طـــاع يالغـــالي يودعـــك
يرحـــل معـــي ويـــترك مكانـــه
خلـــه معـــك يسهـــرك ويسمعـــك
خلـــه يسامـــرك بحنانـــــه
وإذا الولـــــه والشـــوق لوعـــك
بتشـــوف طيفـــــي في عيانـــه
لو شفـــت عني البعـــد يمنعـــك
لـــو طـــوّل غيابـــي زمانـــه
لا لا تبكـــي بيـــوم مدمعـــــك
ما هـــو على شانـــي.. عشانـــــه ■

* شاعرة وكاتبة إماراتية

رائد الفنون الرقمية

جلال لقمان: الحركة التشكيليّة الإماراتيّة تعيش عصرها الذهبي

الفاضل أبو عاقلة

يعد الفنان جلال لقمان من الرواد في المشهد الثقافي الإماراتي منذ ما يزيد على ثلاثة عقود، فهو متخصص في الوسائط المتعددة، ونحات، وقيّم فني، ومؤلف.
نجح لقمان، الذي يعيش في أبوظبي، في إثبات جدارته كفنان رائد محلياً وعالمياً، حيث أقام عدداً من المعارض الفنية في نيويورك، والكويت، وطوكيو، ومصر، والمغرب، والتشيك، وواشنطن، وبكين، والمملكة المتحدة.

ويعد جلال لقمان أول من أدخل «الفن الرقمي» إلى دولة الإمارات العربية المتحدة في عام 1996، بالإضافة إلى أنه أول مصمم جرافيك مستقل، وأول مصمم مواقع إلكترونية متعاقد مع أبرز المنظمات الحكومية والشركات العالمية متعددة الجنسيات.

كل هذا الرصيد جعل من لقمان رائداً في هذا المجال على مستوى دولة الإمارات العربية المتحدة ودول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ومنذ ذلك الحين، اكتسب شهرته سريعاً كفنان متعدد الوسائط يوظف إلمامه بالوسائط التقليدية في أعمال الرسم الرقمي، كما دفعه شغفه، ليكون سبّاقاً إلى العديد من الجوانب الفنيَّة. تتخطى أعمال جلال الفنية الحدود من ناحيتي المعنى والشكل، حيث يدمج فيها البرامج الحاسوبية مع المعدن والخشب، وغيرها من المواد الشائعة في الفنون، ليُبدع تحفاً فنية تتجاوز في أبعادها حدود الإطاروتأسر المشاهد.

نجح لقمان الحاصل على درجة الماجستيرفي الصناعات الثقافية والإبداعية، بتعزيز مساهمته في المشهد الثقافي الإماراتي، إذ لم يكتفِ بإنتاج الأعمال الفنية فحسب، بل تعدى ذلك ليقدم المشورة في تنمية مواهب الفنانين الإماراتيين الآخرين، من خلال إطلاق مبادرات تروّج للفنون في الدولة.

ونظراً لخبرته القيّمة وشبكة علاقاته الواسعة عبر المشهد الفني الإماراتي، لجأ كثيرون إلى لقمان يلتمسون النصح والإرشاد حول العديد من المشاريع والأنشطة.

شارك لقمان في العديد من الوفود الوطنية لدولة الإمارات العربية المتحدة وكان عضواً في العديد من الفعاليات الفنية الدولية. كما شارك كمتحدث في عدد من الفعاليات المحلية الهادفة إلى الارتقاء بمستوى الفن والفنانين في دولة الإمارات. وأقام عدداً من الندوات وورش العمل في المدارس والكليات والجامعات على الصعيدين الوطني والدولي. ومجلة تراث جلست إلى جلال لقمان وكانت هذه الحصيلة..

ضرورة الانفتاح

بداية، رأى جلال لقمان ضرورة انفتاح الذات الإبداعية عند الفنان، وعدم انحصارها في المدرسة التي ينتمي إليها فقط، قائلاً: «في الحقيقة لا أومِن بالانتماء إلى مدرسة فنيَّة بعينها، بعبارة أخرى يجب على الفنان ألا يكون منغلقاً، بل على العكس، عليه أن يطلق العنان لأعماله وما تحمله من تعبيرقد يكون عفوياً يستغني به عن الشرح والكتابة. كما أن التجربة العميقة والخبرة الطويلة للفنان؛ ركن أساسي في جدران العمل الفني، من دون أن ننسى المتابعة والقراءة المتوالية للثقافة الفنيَّة والمجتمعيَّة،

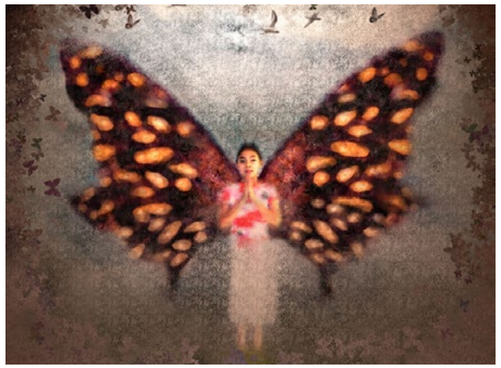

هذه كلها تسهم في البناء المعرفي». وبخصوص تعقد فهم بعض اللوحات الفنية على المتلقين أحياناً، ودور المبدع في تجسيرها، قال لقمان: «مسؤولية فهم اللوحة أو العمل الفني بشكلٍ عام تقع على المتلقي؛ الفنان ينتج عملاً فنياً بلغته الخاصة يحكي ما بنفسه، تاركاً قراءته للمشاهدين، لذا تجد الفهم والقراءة لنفس العمل تختلف من شخص إلى آخر، إذن يمكننا القول إن العمل الفني يخاطب المشاهد منفرداً، يخاطب من يتابعونه بحسب رؤاهم وثقافاتهم ونفسياتهم كلاً على حدة بموضوع مختلف».

وأشار الفنان الإماراتي الشامل إلى أخذ جميع مكونات اللوحة، لحظة تأويلها، قائلاً: «جميع مكونات اللوحة من الشكل، والمادة، والإضاءة، والظل؛ ومختلف التكنيكات تعمل لإيصال الفكرة».

التخصص ليس شرطاً للإبداع

أكد جلال لقمان أن الاختصاص الأكاديمي ليس أساساً لنجاح الفنان، بدليل أن الكثير من الفنانين العالميين لا يحملون شهادات جامعية. يقول عن تجربته في هذا الخصوص، وأضاف: «بعد أن قطعت جزءاً مهماً من مشواري الفني قررت دراسة الماجستير في الفنون، ولكن دراستي الجامعية كانت في إدارة الأعمال والجرافيك». وأردف: «أفادتني دراسة إدارة الأعمال والتسويق، لأن ذلك ساعدني في جوانب يجهلها الكثير من الفنانين في «الآرت بزنس»، مثل الاتفاقيات، والعقود، وحقوق الملكيات الفكرية، والتسويق، والشراكات؛ لذا استطعت مساعدة العديد من الفنانين في كيفية تسويق أعمالهم والحفاظ على حقوقهم، وربما يكون هذا مما ينقص الفنان الذي درس الفنون فقط».

ويرى جلال لقمان ألا ضرورة لتصنيف الفنون ما بين حديث وآخر أصيل، والانشغال بمحاولة المزاوجة بينهما. ويبين أن على الفنان التركيزعلى مواكبة التطور، على سبيل المثال إدخال التكنولوجيا في التصميم مع الحفاظ على المواد التقليدية في العمل الفني، يقول: «أعتبرالتكنولوجيا مثل الخامات المختلفة التي استخدمها عادةً. وقد ساعدني إتقاني لاستخدام التقنيات الحديثة بجانب المواد والخامات التقليدية لإبداع الكثير من الأعمال الفنيَّة».

قوة التكنولوجيا وتقييم اللوحات

في سياق ذي صلة، شدد لقمان على أهمية التكنولوجيا وقوتها وتأثيرها في تطوير الأعمال الفنية، ومساعدة الفنان في إنتاج أعمال

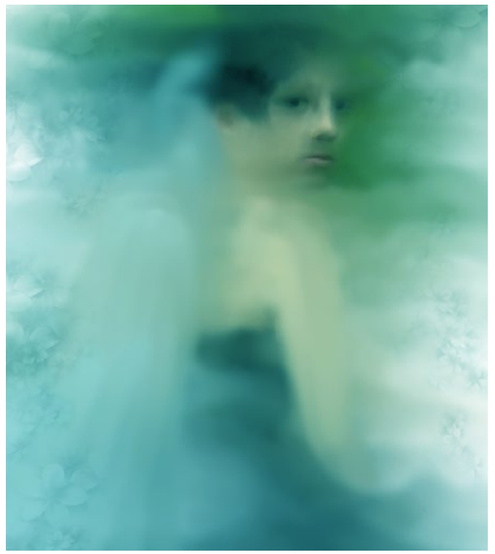

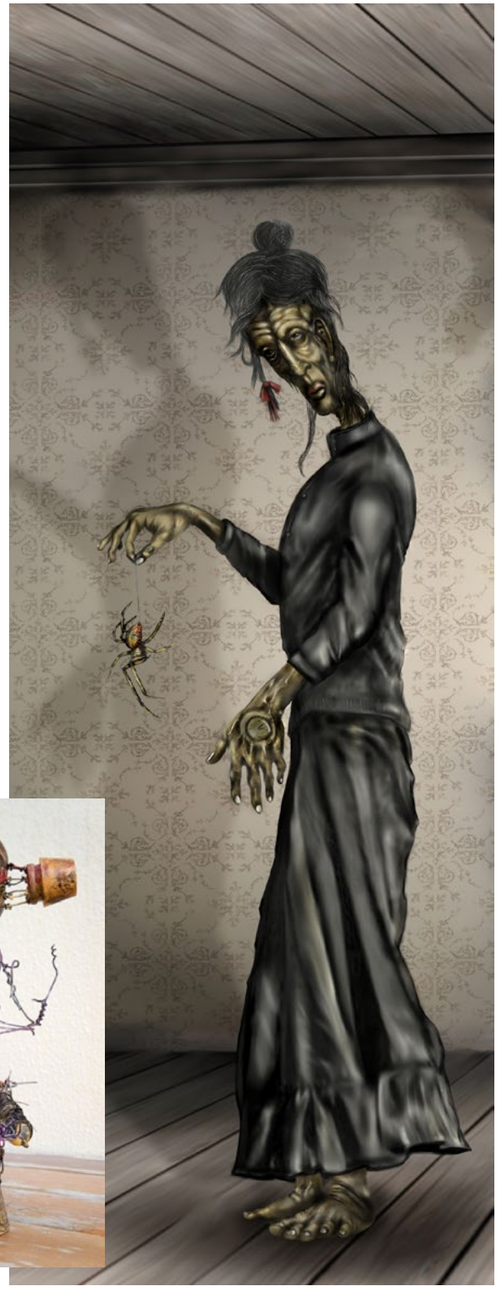

أكثر جمالاً وتعبيراً، وواصل: «إصراري على إدخال التكنولوجيا واجهه الكثير من الرفض في البدايات، بحجة المصداقية الفنية، أما الآن ونحن نعيش الثورة التقنية في مختلف نواحي الحياة والأعمال، أعتقد من ينفي التطور التكنولوجي، فقد حكم على نفسه بالنهاية المبكرة فنياً».

وعن التقييم الفني للوحة ودور الفنان في رفع مستوى قيمتها الفنية، شرح لقمان: «أن قيمة العمل الفني تأتي من قوة الموضوعات والقدرة على منحها معنىً يهم الملتقي، ملامساً لإنسانيتنا واختلاجات نفوسنا، أنا ضد الأعمال الفنيَّة الخاوية من المعنى أو المنغلقة، وهذا قبل أن نقيّم العمل من الناحية التقنية، مثال على ذلك رسم المناظر الطبيعية، ربما يكون من ناحية تقنية جيد ولكنه يعتبر ديكوراً، وليس عملاً فنياً».

رأي معاكس للتجريب

يشير لقمان إلى اعتبار البحث والتجريب في الفن التشكيلي حالة من الهروب من القوالب المتداولة هو أمر غير حقيقي، بل على العكس من ذلك فالبحث والتجارب عمل أساسي في تطوير المشوار المهني للفنان التشكيلي، وعليه الابتعاد أيضاً عن التقوقع في أسلوب ونمط واحد، يظن أنه يرتاح فيه ولابد من تطوير مختلف الأمور المستخدمة من خامات، وتقنيات، ومواضيع، ورسائل. وفي مطلع رده على سؤال الصور التي تشكلت فيها الهوية الوطنية في أعماله، أجاب لقمان: «أنا فنان

إماراتي فكل شيء أنتجه هو عمل فني إماراتي، أما أعمالي فالمؤكد أنها تحمل الكثير من الثيمات التي تعكس طابع الحياة الإماراتية. ويستطرد قائلاً: تتشكل رسالة الفنان وفقاً لظروفه ومشاعره وطريقة تعبيره عن ذاته، وبطبيعة الحال تنعكس ثقافته وإرثه في نتاجه، يجب أن يستطيع الفنان الوصول إلى العالم، ليس كإماراتي أو عربي، إن كان الطابع المحلي يقود العمل الفني فذلك قصور. على الفنان الإماراتي وعبر فنه مخاطبة العالم».

موقف الفن التشكيلي في الإمارات

وبسؤاله عما إذا كان الفن التشكيلي يعاني عزلة في دولة الإمارات، قال لقمان: «شخصياً وبعد رحلة طويلة في مجال الفنون أرى أن الحركة التشكيلية في دولة الإمارات تمر بعهد ذهبي، القيادة الرشيدة بفضل الله وفرت للمشاهد والفنان المعارض والمحافل الفنية العالمية؛ الفنان التشكيلي الإماراتي صار الآن يعرض أعماله في أنحاء العالم كله، الإمارات أصبحت وجهة للخبراء والزوار المهتمين بالفنون، وافتتحت العديد من الجامعات والكليات التي تدرس الفن التشكيلي، لذلك فإن الجيل الجديد يُحضّر في الوقت الحالي بطريقة سليمة وصحيحة، ما أعتبره مستقبلاً واعداً للحركة التشكيلية الإماراتية».

وختم لقمان، بالتأكيد على أن الفن للإنسانية جمعاء وهو لغة عالمية، رافضاً الانغلاق، وأكمل: «العمل التشكيلي ليس شرطاً أن يتأثر أو يكون مرتبطاً بالتراث العربي أو غيره، لأنه ليس تصميماً، بل هو تشكيل وبينهما فرق كبير، لا أرى بالضرورة احتواء اللوحة على طابع عربي أو إسلامي أو خليجي. التشكيل لغة خاصة جامعة على نطاقها العالمي، في النهاية ما يميز العمل الفني قدرة الفنان على توصيل رسالته ومعانيه. الحركة التشكيلية العربية والشرق أوسطية متمكنة وناجحة، لذا لا داعي للانغلاق على مفاهيم محددة، التمسك بهوية خاصة وصبغة غارقة في المحلية، ربما يأتي ذلك بنتائج مخيبة لأن ذلك يعني الانعزال» ■

* كاتب وصحفي سوادني

حي بنتي من لفت

فاطمة حمد المزروعي
كاتبة وباحثة من الإمارات

علاقة الأم بابنتها علاقة خاصة، أساسها المحبة والرحمة، فهي قطعة منها، ثمرة زواجها، قرة عينها، وملازمة لأمها، التي تحرص على مصلحتها بما يحقق لها النجاح في الحياة؛ لهذا اهتمت الأهازيج الشعبية في الإمارات العربية المتحدة بتصوير هذه العلاقة وتفاصيلها، فالابنة غالية عند أهلها. خاصة عندالأم التي تراها بمنزلة الصديقة المقربة.

معظم الأهازيج تبدأ بـ «يا حليلها»، «حيّ ، حيّ يا بنتي»، فتبدأ الأهزوجة بمخاطبة البنت للفت الانتباه لما سيقال لها، ومنها أهزوجة:

حي بنتي من لفت / بيضا تتخرطف في الزلوف/ ما هوب رسحا من قفا/ ولا هوب غطشى ما تشوف/ توصل بيت الجيران/ توطى على رؤوس الخفوف

تتغنى الأم هنا بابنتها بيضاء البشرة، التي تتعثرفي جدائلها؛ بسبب طول شعرها، وتامة الخلقة، فهي ليست معدومة الأرداف، ولا ضعيفة البصر، تمشي برزانة وهدوء لبيت الجيران. وهناك أهزوجة أخرى تركزعلى وصف الأخلاق والطباع، وهي:

يا زينة الأطباع/ يا عدلة المونه/ شِبهي على كبارك / الغشا يضفونه/ يا زينة الأطباع /يا عدلة الصيته/ مبخوت من حطّك يا بنت في بيته

تطلب هنا الأم من ابنتها أن تتعلم السنع والعادات والتقاليد، من خلال محاكاتها، أي أن تتعلم من خلال القدوة، باقتدائها بمن يكبرنها في السّن المحتشمات، اللاتي يعملن في بيوتهن. ونجد في عدد من الأهازيج التركيز على ارتداء الملابس الإماراتية، خاصة الحث على لبس الشيلة.

تتغنى الأم بابنتها، التي تساعدها في تنظيف البيت، والطبخ، ورعاية إخوتها الصغار، وترتقي هذه العلاقة إلى مستوى الصداقة، فتأتي الأهزوجة على لسان الأم في مدح فضائل الابنة:

يا البنت يا النفاعة / اللي في الأمروالطاعة / والبنت أحسن من الولد/ لوما البشاير ساعة

والأهزوجة الأخرى:

حيّ يا بنتي يا مندوبتي لأختي/ طلبت صبيّ وبتي أنتي/ حيّ يا بنتي يا مندوبتي لأختي/ صديقي وين ما كنتي

تعدد الأم هنا محاسن البنت، التي تراها بعض الأمهات أفضل من الولد، الذي كرّست له ثقافة المجتمع أهمية كبرى؛ خاصة قبل اكتشاف النفط في دول الخليج العربي؛ لأنه هو المعيل الأول للأسرة بعد والده. البنت تساعد أمها في أعمال البيت، تشاركها وتقاسمها في كل وقت؛ من ذلك ما يقال عند ولادة البنت «مبروك الحاسر»؛ أي التي تحسر كمي ثوبها؛ كي تعمل في البيت جنباً إلى جنب مع والدتها. أما عند ولادة الصبي فيقولون «مبروك الطارش»، أي إنه يطرش، بمعنى أن يذهب لقضاء الحاجات لأسرته، هذا من باب التفاؤل بأنه سيكبر، ويكون عوناً لوالده، معيلاً لعائلته.

إن البشائر بولادة الصبي تستمر مدة من الزمن، في حين أن البشارة بالمولودة الأنثى لا تتجاوز الساعة، فهذه نظرة المجتمع، والأدوار الاجتماعية التي حددها للمرأة والرجل، التي جعلت معظم الأمهات في أهازيجهن يتمنين ولادة الصبي، حتى يضمنّ تمكنهن في بيت الزوجية، واستمرار الحياة مع الأزواج، لدرجة أن بعض الأهازيج تتمنى فيها الأم أن تستمر طلقات الولادة وآلامها سبعة أشهر، وهذه الأهزوجة هي:

يوم قالوا لي غلام /ارتفع ظهري وقام/ ليت الطلقة كل عام / سبعة أشهر بالتمام

إن الأم في هذه الأهازيج السابقة تؤكد حبها لابنتها، ودورها في حياتها، حيث تقضي اليوم معها، تساعدها، وتقاسمها الكثير من الأمور، فهي الأمينة على أسرار الأم، ومن تبعثها كرسول لأختها، لهذا دققت الأم في كثير من الأهازيج على صفات الزوج الذي سيحظى بابنتها الأثيرة على قلبها، المقربة لأبيها، أعمامها، أخوالها، ولأهلها. لكن السؤال هنا ماذا فعل بعض الآباء حين ولدت البنت؟ وهل كانت ولادة البنات سبب حزن للعائلة أم حمدوا الله؟ هناك بعض الأهازيج والتساؤلات، وللحديث بقية تأتي بإذن الله ■

نادي تراث الإمارات

إعلان طباعة كتب

وَضَع نادي تراث الإمارات ومركز زايد للدراسات والبحوث خُطّةً لرفد المشهد الثقافي الإماراتي بإصدارات متنوعة تَخُصُّ تراث الإمارات وتاريخها؛ قَصْدَ إغناءِ المكتبة التراثية الإماراتية، وفَتْحِ منافذَ معرفيةٍ جديدةٍ أمام الباحثين، ويَدعوهم إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها في «المركز»، ليشارك بها في المعارض والفعاليات الثقافية. ويُقدِّمُ «المركز» لمؤلِّف الكتاب مكافأةً مالية تتراوح بين (10000 - 15000 درهم إماراتي).

شروط النشر:

- أن يَتّصف موضوع الكتاب بالجِدّة، والموضوعية، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفية.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً، أو مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغةُ الكتابِ العربيّةَ الفصيحة المُصحَّحة لغوياً.
- ألا يكون الكتاب مترجَماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجية العلمية في التأليف، والأمانة العلمية، والنقل من المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش أسفلَ كلِّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادروالمراجع في نهاية كل كتاب.
- أن يُرسَل الكتاب بصيغة الوورد، مرفَقاً بملخَّص من نحوِ مئتي كلمة باللغة العربية، وبنبذة مختصرة عن سيرة المؤلِّف العلمية.
- أن يكون عدد كلمات الكتاب بين 30 و70 ألف كلمة.
- تَتَولّى هيئة تحكيم مختصة مراجعةَ الكتاب وتقييمَه وإصدارَ قرار نهائي بشأن طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله. وفي حال الموافقة، يلتزم الكاتبُ بإجراء التعديلات المقترحة.
- مدة العقد خمس سنوات.
- تُرسَل الكتب بصيغتَي Word وPDF إلى الإيميل التالي: torathbook@ehcl.ae

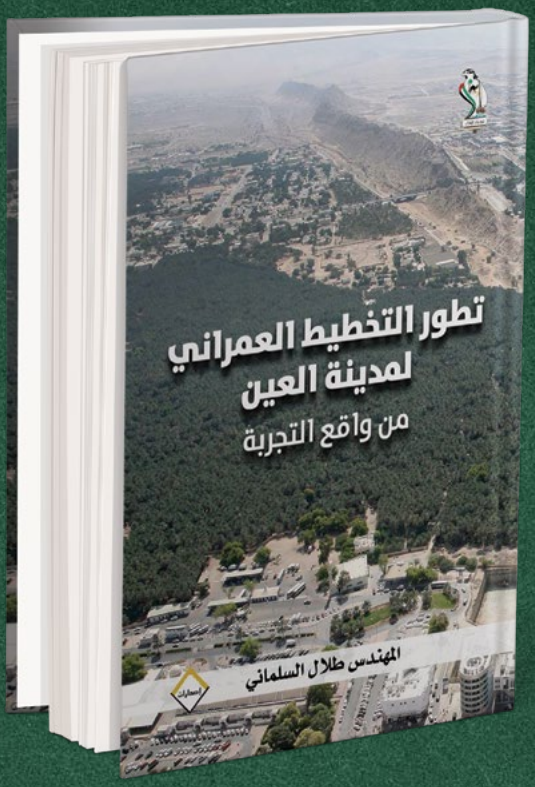

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين

«من واقع التجربة»

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين «من واقع التجربة» كتاب يتناول قصة نجاح مدينة العين في التحول من تجمعات سكانية صغيرة حول الواحات إلى مدينة عصرية خضراء، ويرى المؤلف في كتابه أن الحفاظ على هذا النجاح واستدامته هو من أولويات التخطيط الحضري السليم الذي يستوجب المراجعة الدورية المنتظمة لخطط التطوير العمراني للتحقق من مرونتها واستجابتها لمتطلبات المرحلة القادمة دون الإخلال بالثوابت والأهداف التي حددتها خطة إطار الهيكل العمراني لمدينة العين لعام 2030. كما يتحدث المؤلف عن واقع معايشته لمستجدات التطور العمراني لمدينة العين لأكثر من ثلاثة عقود مشيراً إلى مجموعة من المشاهدات لبعض الظواهر في البيئة العمرانية في المدينة، وهو يرى أن أي تخطيط للمدينة يجب أن يقوم على أساس علمي منهجي يستند إلى دراسات وإحصائيات وتحليلات لمختلف القطاعات ذات الصلة بحياة البشر سواء في الإسكان...

المهندس طلال السلماني